

مملكة الخزر اليهودية وعلاقتها بالبيزنطيين و المسلمين فى العصور الوسطى

دكتور
محمد عبد الشافى المغربى



١١٦

مملكة الخزر اليهودية

وعلاقتها بالبيزنطيين والمسلمين في العصور الوسطى

**مملكة الخزر اليهودية
وعلاقتها بالبيزنطيين والمسلمين في
العصور الوسطى**

د. محمد عبد الشافي المغربي

كمبيوتر: (دار الوفاء)

طباعة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن درباله - بلوك رقم ٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١٦٣٢

الترقيم الدولى: 9-224-327-977

مملكة الخزر اليهودية وعلاقتها بالبيزنطيين والمسلمين في العصور الوسطى

دكتور

محمد عبد الشافي المغربي

مدرس تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادي

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس: ٤٣٨٤٤٤٣٨ - الإسكندرية

AAV
08/04/2006

DK
34
K45
M3
2002
MAIN

إهداء

✎ إلى الذين يؤمنون بالقيم الإنسانية.

✎ إلى الذين يرفضون الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة.

✎ إلى روح والدي يرحمه الله

وإلى والدتي العطاء الدائم

إلى كل هؤلاء أهدى هذا الكتاب

محمد

المقدمة

- أهمية الموضوع.
- دراسة تحليلية لأهم مصادر ومراجع البحث.

بسم الله الرحمن الرحيم

على التخوم الشرقية الأوربية فى العصور الوسطى كان هناك قوم يستلفتون النظر بقوتهم، وشدة بأسهم ومراسهم، وهم اليهود الخزر الذين استطاعوا فى العصور الوسطى تكوين دولة قوية فيما بين القوقاز والفلوجا عرفت بمملكة الخزر. والخزر من الشعوب التركية التى لعبت دورا هاما فى العصور الوسطى مع البيزنطيين والمسلمين والعديد من الشعوب المعاصرة فى ذلك الوقت.

والخزر من الشعوب التى لا ترجع إلى أصل سامى، نزحوا من أواسط آسيا وسكنوا الإقليم الواقع بين المجرى الأدنى لنهر الفولجا والمنحدرات الشمالية للقوقاز، وتوسع ممتلكاتهم حول الأراضى الواقعة حول بحر آزوف AZOV، وزاد اتساعها أكثر من ذلك حتى قاربت كييف وأواسط الدنيبر Dnieper غربا فى القرن التاسع الميلادى، وكانت كثير من القبائل الضاربة جهة الشرق حتى أكسوس Oxus تحت حكم الخزر⁽¹⁾. وقد أمتد نفوذ مملكة الخزر إلى المنطقة الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين، فيما سمي بعد بـ "خزريا أو إقليم الخزر".

ولقد عرف الخزر بأسماء وأشكال مختلفة وجدناها فى بطون المصادر والمراجع المختلفة، حيث كانوا يعرفون عند كتاب العصور الوسطى القدامى بهذه الأشكال: خوزارس Chozars وخازيرس Khazirs وأكاتيرس Akatzirs وأكاتيرس Akatirs، أما فى التاريخ والحواليات الروسية فقد كانوا يعرفوا باسم Ugry Byelye وKhwalisses⁽²⁾. وفى المصادر الجورجانية عرف الخزر باسم كادزاريا Kadzaria وهو الاسم الجورجاني لمنجربليا Mingrelia⁽³⁾ وهناك

(1) Dunlop (D. M.): The History of the Jewish Khazars (Princeton, 1954). P.ix.

(2) Rosenthal (H): Art, Chazar, in Jewish Ency. Vol, iv, p.1.

(3) Art. Khazar, in Harmsworth Ency. (London, 1906) Vol, vi, p.370.

أشكال أخرى لاسم الخزر: ففي اليونانية خترووى οζαροι وفي اللغة العربية خزر وفي العبرية (כוזרי) كوزارى وكوزاريوم Kuzari - Kuzarium، وفي الصينية كوسا Kosa، ويميل بعض المحدثين إلى أن اسم الخزر مشتق من الكلمة التركية Qazmak وهى بمعنى التجول - البدو الرحل (to wonder - nomadize)، أو من كلمة Quz (جهة من جبل ناحية الشمال)^(٤) على أن التاريخ الروسى يسمى الخزر الأوغور البيض White Ugrian، على النقيض من التاريخ الهنغارى الذى يطلق عليهم الأوغور السود^(٥) والمؤرخ الأرمينى موسى خورنى Moise de Khoren الذى تحدث عن تاريخ الخزر المبكر) ذكر الخزر باسم Khazirs^(٦) وإذا بحثنا عن المعنى اللغوى للفظه خزر فى اللغة العربية، نجد أنها تعنى ضيق العين أو ميل العين كأن نقول "خزر الشيخ عينه" أى ضيق جفنيه حتى كأنهما خيطتا، والإنسان حينما يفتح عينه ويغمضها وينظر بمؤخرة عينيه فهو فى هذا الحال أخزر، وخزرت العين خزراً صغرت وضافت، ويقال أيضاً "خزر الشاب عينه" فعل ذلك دهاء^(٧) ويبدو أن الشعب أطلق عليه خزر لأنهم أصحاب انكسار فى العيون كسمة مميزة لهم، مثلهم فى ذلك الصينيون واليابانيون وبعض الشعوب الآسيوية الأخرى.

ولقد نجح الخزر فى تكوين أعظم إمبراطورية تجارية شملت جزءاً كبيراً من جنوبى روسيا الأوربية، فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى^(٨) وكانت بلاد الخزر التى يسكنها شعب من أرومة تركية تشغل مركزاً استراتيجياً يعتبر المفتاح والمدخل الحيوى بين البحر الأسود وبحر قزوين، حيث كانت الدول الشرقية

(٤) Art. Khazars, in Ency. Judaica (Jresalem, 1974) Vol. X, p. 944.

(٥) Art. Khazar, in the standard Jewish Ency. (Tel Aviv, 1958), p. 1124.

(٦) Klaporothe (M): Memoire sur les Khazar, in journal Asiatique (1823) T.3, p. 153.

(٧) المعجم الوسيط: (الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٧٢)، جـ ١، ص ٢٣٩.

(٨) Sinor (D): Art Khazars, in the New Ency. Britanica (London, 1973), Vol. V, p. 788.

Bachrach (B.S) : Art. Khazar in Lexicon universal Ency. (NEW YOURK, 1983), Vol. 12, p.66.

العظمى الممثلة في بيزنطة وفارس في تلك الأيام تواجه بعضها بعضا. وذلك أن بلاد الخزر كانت حاجزا يدرأ عن البيزنطيين شر غزوات القبائل البربرية المهمة في الفيا في الشمالية وهي قبائل البلغار Bulgars والمجر Magyars والبشناق Pechengs وغيرهم، وكذلك شر غزوات الفكينج Vikings قراصنة الشمال والروس، وأهم من ذلك ما عرف من وجهة نظر الدبلوماسية البيزنطية والتاريخ الأوربي من أن الخزر هم الذين أوقفوا الهجوم العربي الإسلامي العاصف في مراحل الأولى الجانحة على أوروبا الشرقية^(٩) بعد أن أصبحت حدود الخزر تلاصق أملاك المسلمين في تلك الجهات من جهة وتقترب من مناطق عملياتهم الحربية الجديدة من جهة أخرى وهذا الموقع الاستراتيجي الفريد مكن الخزر من أن يكون لهم دورا هاما في الصراع السياسي والديني في ذلك العصر.

ومما يجدر ذكره أن العلاقات بين الخزر والبيزنطيين موعلة في القدم وإن كانت تلك الصلات قد أخذت في الازدياد والعمق في القرنين السابع والثامن للميلاد. فقد اشترك الخزر في الحروب التي خاضتها الدولة البيزنطية ضد فارس في القرن السابع، حينما استعان بهم الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) في حملاته العسكرية ضد الفرس، إذ أجرى مفاوضات معهم في إقليم لازيقا بالقوقاز، انتهت بتحالفهم معه، وعندئذ أضحي التفاهم بين البيزنطيين والخزر من أهم معالم سياسة الدبلوماسية التي سارت عليها الدولة البيزنطية في الشرق.

بيد أننا نلاحظ أنه عقب وفاة هرقل سنة ٦٤١م صمتت المصادر عن الإشارة إلى أي جديد في مصير العلاقات البيزنطية الخزرية حتى أواخر القرن السابع الميلادي، أي إلى عهد الإمبراطور جستنيان الثاني ففي خلال فترة حكمه الأولى (٦٨٥-٦٩٥م) التي انتهت بإعفائه من المنصب الإمبراطوري، وعودته مرة أخرى

(٩) Koestler (A): the thirteenth tribe the Khazar Empire and its Heritage, (London, 1976), pp. 13-14.

الى العرش البيزنطى سنة ٧٠٥م تجددت الصلات مرة أخرى. ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه عندما خلع جستنيان الثانى عن العرش فى سنة ٦٩٥م لجأ إلى خاقان الخزر الذى رحب به وتعاطف معه. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل بالغ خاقان الخزر فى إكرامه بتزويجه من أخته. وبعد أن رجع جستنيان الثانى إلى عرشه حدث صراع كبير بين البيزنطيين والخزر حول السيادة على خرسون وشبه جزيرة القرم.

أما عن العلاقة بين الخزر والمسلمين فقد بلغت من أهميتها حدا لا يمكن إغفاله، فالخزر كانوا عقبة كأداء فى طريق الحملات الإسلامية التى استهدفت التوسع ونشر الدين الإسلامى الحنيف فى منطقة القوقاز، لقد نجح الخزر فى تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف حول شواطئ البحر الأسود وقروين حيث كانت تقع بين الدولة الإسلامية شرقا والدولة البيزنطية غربا. ولقد دارت حروب طويلة بين الدولة الإسلامية والخزر منذ ظهور الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين والخلافة الأموية والخلافة العباسية، تمخض عنها إيقاف المسلمين عند جبال القوقاز، فلم يفلح المسلمون فى التوغل فى شرق أوروبا، فى الوقت الذى أوقفت هذه الحروب توسع الخزر فى المناطق الإسلامية.

وليس من المبالغة القول أن الخزر حموا سهول أوروبا الشرقية ضد المسلمين، فالحروب التى نشبت بين المسلمين والخزر فى خلال القرنين السابع والثامن للميلاد وهى لمدة قرن من الزمان تقريبا عرفت عند المؤرخين المحدثين بالحرب العربية الخزرية الأولى (٦٤٢-٦٥٢م/٢٢-٣٢هـ) والحرب العربية الخزرية الثانية (٧٢٢-٧٣٧م/١٠٣-١١٩هـ).

وفى الصراع الدائر بين المسلمين والبيزنطيين، وقف الخزر إلى جانب البيزنطيين. ونتيجة لذلك تزوج الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس سنة ٧٢٢م

من أميرة خزرية أنجبت له ولدا قدر له أن يعتلى عرش الإمبراطورية البيزنطية باسم
ليو الرابع أوليو الخزرى (٧٧٥-٧٨٠م).

وعما يدعو إلى الدهشة أن الخزر اعتنقوا اليهودية فى القرن الثامن
الميلادى عام ٧٤٠م، فقد اتخذوا ديناً لا سند له من أية سلطة سياسية، بل كان
موضع اضطهاد من الجميع تقريبا، ولا يمكن أن يعد هذا أمراً عارضا، وإنما يدل على
السياسة المستقلة التى انتهجتها مملكة الخزر.

ومما هو جدير بالذكر أن علاقة الخزر لم تكن قاصرة على المسلمين
والبيزنطيين، بل تعدت ذلك بكثير. فقد كان للخزر علاقات مع الأرمنيين والهن
والفرس والأتراك الغربيين والبلغار والالان والبشاق والعديد من الشعوب الأخرى. كما
كانت لهم علاقة بأسبانيا (الأندلس) فى القرن التاسع الميلادى تمثلت فى الرسائل
التي تبودلت بالعبرية بين حسداى بن شفروط كبير الوزراء اليهودى للخليفة عبد
الرحمن الناصر (٩١١-٩٦١م/٣٠٠-٣٥٠هـ) والملك يوسف ملك الخزر.

وتناول موضوع الخزر ليس من الموضوعات التاريخية التقليدية إذ يذكر
المؤرخ المحدث دنلوب^(١٠) Dunlop فى مقدمة كتابه القيم الذى وضعه عن الخزر
قائلا: "إن الخزر لازالوا غير معروفين لدى العديد من قراء وكتاب التاريخ، وذلك
ليس بسبب قلة الاهتمام بهم أو بما تقدمه أحداثهم فى التاريخ، وليس أيضا بسبب
صعوبة الحصول على المادة العلمية الخاصة بدولتهم، ولكن بسبب صعوبة التعامل
مع المصادر الموجودة والمتوافرة عن دولتهم حيث تحوى قدرا كبيرا من المادة
التاريخية المكتوبة بلغات مختلفة كاليونانية والعبرية والعربية والسريانية والأرمنية
والجورجانية والروسية والفارسية والتركية والصينية، ولا يمكن لأحد أن يلم بكل

(10) The Hist. Of the Jewish Khazars., p.x,

هذه اللغات، هذا فضلا عما حوته تلك المصادر من التناقض والتعارض وما اكتنف الحقائق والقضايا من غموض".

وعلى أية حال، فإن البحث يتناول بالدراسة ظهور الخزر وتاريخهم المبكر وعلاقتهم بالمسلمين والبيزنطيين في القرنين السابع والثامن للميلاد، وأيضا علاقتهم بالهون والفرس والبلغار وغيرهم، كما يتناول مظاهرهم الحضارية خاصة موضوع اعتناقهم اليهودية وهو الموضوع الذي تأثر به حاضرا تأثرا بالغا.

وكان مما شجعتنى على اختيار هذا الموضوع والمضى فيه عوامل وأعتبارات عديدة:

أولا: أن المشتغلين بالعصور الوسطى الأوربية والإسلامية قدموا لنا مؤلفات ضافية فى إبداع وأصالة فى كثير من النواحي التاريخية أثرت المكتبة العربية، إلا أن هذا الموضوع لم يحظ باهتمام كاف لمن تصدى له، وقد تأكد للباحث أن هذا الموضوع لم يطرق فى دراسة مستقلة، كما أن الدراسات التى خرجت فى العالم عن الخزر قليلة، تناولت جوانب معينة فقط من تاريخ الخزر وهى بلغات مختلفة.

ثانيا : حاجة العرب والأمة الإسلامية إلى معرفة وافية بالخزر (الأتراك) الذين اعتنقوا اليهودية فى القرن الثامن الميلادى، وينحدر منهم فى الوقت الحاضر معظم الشعب اليهودى لقد كانت فلسطين مسكونة بقبائل عربية ترجع أصلها إلى الجنس السامى الذى ينتسب إلى سام بن نوح عليه السلام، قبل العبرانيين (الإسرائيليين) بآلاف السنين، ولم يكن اليهود أول من سكن فلسطين أو المناطق المجاورة لها بل سبقتهم إليها بآلاف السنين كثير من القبائل التى ترجع إلى الجنس السامى.

لقد نجح اليهود فى تكوين مملكة لهم فى فلسطين، لكنها لم تدم لما نالها من تدمير. فهاجروا إلى جميع أنحاء العالم، وأصبحوا غرباء عن أرضها وسكانها وأصبحت فلسطين فى نظر التاريخ والقانون بلادا غير يهودية وليس لهم فيها أى حق

أو مطالبة بها، وأصبح يهود اليوم هم سلالة الاختلاط الجنسي بالأجناس الأخرى ونشأت أجيال وطوائف لا تمت بصلة إلى اليهود إلا بصلة العقيدة.

فمن علماء الأجناس من يرى أن تسعة أعشار اليهود في العالم لا يمتون بصلة إلى اليهود الأولين بأى شبه⁽¹¹⁾ وإذا ما اتفق على أن بعض يهود اليوم من الشرقيين (خاصة اليهود العرب) لا يزالون يعتبرون من الساميين، فإنه لا يمكن الموافقة على اعتبار يهود أوروبا وأمريكا ومناطق أخرى من العالم من الساميين.

لقد أثبت العلماء المختصون بدراسة اليهود ومنهم "آرثر كويستلر" الذى أثبت بعد أن جمع الحقائق والأدلة فى كتابه "القبيلة الثالثة عشر" أن معظم يهود الحاضر، إنما يعتبرون من سلالة الخزر الذين ينحدرون من أصل بافت وليس من أصل سام، والذين اعتنقوا اليهودية. لقد هاجر يهود الخزر بعد التدمير الذى لحق بتجمعاتهم إلى مناطق الانتعاش الاقتصادى فى أوروبا الوسطى والشمالية، وتمركزوا فى الطريق التجارى بين اتحاد المدن التجارية وبين روسيا وبولندا وأوكرانيا ورومانيا ولتوانيا وغاليسيا وألمانيا وفنلنده والعديد من بلدان أوروبا ليكونوا أصول يهود أوروبا (الأشكنازيم) وكان عدد هؤلاء اليهود الخزر يفوق بكثير غيرهم من اليهود الذين جاءوا إلى أوروبا فى فترات أخرى من التاريخ، وعلى هذا الأساس فإن كويستلر يعتبر أن حوالى نصف يهود العالم بما فى ذلك، يهود إسرائيل لا علاقة لهم على الإطلاق بالجنس السامى وبقبائل موسى وسليمان العبرية.

ومن خلال هذا الموضوع، فإن الدراسة تطرح تساؤلاً: هل قيام دولة يهودية قديما فى فلسطين يخول لليهود الحاضر (المخلطون لحما ودما والخزريون) سندا فى العودة إلى فلسطين، لو صح أن لكل شعب من شعوب الأرض فى الوقت الحاضر حقاً فى الأراضى التى قطنها أو استعمرها أجداده من مئات السنين، لاحتاج

(11) Ripley (W.Z): The Races of Europe (London, 1945), p. 293.

الأمر إلى تغيير في خريطة العالم المعاصرة، ونقل معظم شعوب الارض من بلادها. ولكن للعرب الحق في المطالبة بأسبانيا التي أقام فيها أجدادهم ثمانية قرون، بل لو سرنا بهذا المنطق المعوج لكان العرب أحق فعلا بأسبانيا من اليهود بفلسطين، فقد بقوا فترة أطول من اليهود وتركوا آثارا أكثر مما تركه اليهود.

إن اعتناق الخزر لليهودية في العصور الوسطى قد هدم عددا من المقولات التي صارت بحكم تكرار إلحاحها في العصور الحديثة من قبيل المسلمات في قضية العرب مع اليهود، وإن شعب الخزر دليل قاطع يدحض ما رددته الصهاينة من أن اليهود في مختلف بقاع العالم ينتمون إلى أصل واحد هو فلسطين. ونجد اليهود (الخزر) في وقتنا المعاصر، يمثلون خليطا من الشعوب البعيدة عن نسب إسرائيل، يهاجرون من الاتحاد السوفييتي إلى فلسطين المحتلة، يأتون إليها من كل حذب وصوب ومن كل فج عميق، ليستقروا في دولة فلسطين المحتلة. هذا الكيان الخزري اللقيط الذي ولد في العالم الإسلامي، وقام بدور الدولة الحاجزة بين المسلمين والبيزنطيين في العصور الوسطى، نراه بصورة حية في التاريخ المعاصر في الوجود الصهيوني.

إن فلسطين لم تكن جزيرة مهجورة نجح اليهود في اكتشافها ورفعوا علمهم عليها، بل كانت وطننا له أصحابه، والدراسة التي نحن بصدددها وجدت أن أكبر طائفة في التاريخ تحولت إلى اليهودية هم الخزر الذين نجحوا في العصور الوسطى في صد الهجوم الإسلامي على شرق أوروبا. وفي العصور الحديثة نجحوا أيضا هم وبقايا يهود العالم في تكوين دولة إسرائيل.

أما عن سبب اختيار فترة القرنين السابع والثامن للميلاد التاريخية لمملكة الخزر، على الرغم من أنها عاشت ما يقرب من خمسة قرون منتعشة، إنما يرجع إلى أنها قبل ذلك كانت عبارة عن قبائل وثنية صانعتها الغزو والنهب، أما في القرنين

السابع والثامن فقد ظهرت بلاد الخزر في شكل مملكة وإمبراطورية قوية الجانب، مثلت قوة ثالثة وسط بين البيزنطيين والمسلمين، وزادت علاقتها بكلا الطرفين بصورة فعالة. ويتميز القرنان السابع والثامن للميلاد من حياة الخزر ودورهم التاريخي بالمادة العلمية الغزيرة، أما قبل ذلك أو بعد ذلك فالوثائق التي تتحدث عنهم تختلف تماما.

أما عن الصعوبات التي قابلت الباحث، فهي مثل كل الصعوبات التي تواجه المشتغلين بالبحث العلمي، والواقع أنني وجدت عناء في جمع المادة العلمية التي وردت في المصادر المعاصرة، كما أن كثير من المؤرخين لم يتفقوا على شكل معين لاسم الخزر. هذا في الوقت الذي وجدت عناء في التعامل مع المادة العلمية، إذ قابلت نصوصا تبدو ومتسقة، لكنها تنص بالتعارض والتناقض، فضلا عن كونها بلغات مختلفة. كما أن بعض هذه المادة لم تكن متوفرة في مصر أو في العالم العربي.

وتقع الرسالة في أربعة فصول. تبدأ بمقدمة ودراسة تحليلية لأهم المصادر والمراجع وتنتهي بخاتمة، أوضحت فيها ما وصلت إليه، ثم قائمة بالمصادر والمراجع. وجاء الفصل الأول بعنوان "قيام مملكة الخزر" ويتناول تاريخ الفترة المبكرة لشعب الخزر وعرض للآراء المختلفة بشأن ظهورهم وصلاتهم بالأرمنيين والهون وبيزنطة وعلاقاتهم المختلفة مع الفرس والأتراك الغربيين والبلغار واللات والبرطاس والبشناق وغيرهم - كما تناول هذا الفصل الشعوب والقبائل الخاضعة للخزر.

أما الفصل الثاني وعنوانه "مملكة الخزر وعلاقتها بالبيزنطيين في القرنين السابع والثامن للميلاد"، فقد اشتمل على اشتراك الخزر في حملة الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) على الفرس ونتائج ذلك، كما أشرت إلى الفترة الشاغرة التي طرأت في العلاقات بين الخزر وبيزنطة ثم تعرضت لموقف الخزر من مسألة طرد جستنيان

الثاني سنة ٦٩٥م من بيزنطة حيث لجأ إلى الخزر ورحبوا به. ثم تناول هذا الفصل الصراع الذي دار في خرسون وشبه جزيرة القرم بين الخزر والبيزنطيين وألقيت الضوء على التحالف الذي جرى بين البيزنطيين والخزر على عهد الإمبراطور ليو الأيسوري (٧١٧-٧٤١م) وقد ختمت هذا الفصل بعرض ما بقي من علاقة الطرفين خلال الفترة التي تناولها البحث.

أما الفصل الثالث وعنوانه "مملكة الخزر وعلاقتها بالمسلمين في القرنين السابع والثامن للميلاد" فقد استعرضت فيه الصراع الطويل الذي دار بين المسلمين والخزر في منطقة القوقاز ومحاولات العرب فتح بلاد الخزر لنشر الدين الإسلامي وذلك في الفترة الواقعة بين سنتي ٦٤٢م ((٢٢٢هـ) و٦٥٢م (٣٢٢هـ) والتي أصطلح عليها الحرب العربية الخزرية الأولى والتي انتهت بهزيمة المسلمين، ثم تعرضت للحروب التي دارت بين الطرفين في عهد الدولة الأموية والتي كانت فيما بين سنتي ٧٢٢م (١٠٣هـ) و٧٣٧م (١١٩هـ) واصطلح على تلك الفترة الحرب العربية الخزرية الثانية، كما ألقيت الضوء على العلاقات الدبلوماسية بين الخزر والمسلمين في عهد الدولة العباسية.

في الفصل الرابع والأخير وهو بعنوان ""المظاهر الحضارية بمملكة الخزر" وبحث في أوضاع الخزر الحضارية المتمثلة في التنظيم السياسي الخاص بمملكتهم والجيش والقانون والقضاء الخزري واللغة والمجتمع الخزري وما عجز به من جنسيات كثيرة من شعوب مختلفة والنشاط الاقتصادي لمملكتهم من تجارة وزراعة. ثم أفردت قسما كبيرا لاعتناق الخزر لليهودية والمراسلات التي دارت بين الأندلس ومملكة الخزر في العصور الوسطى.

وأخيرا أحب أن أسجل هنا أنه كان يجب نشر هذا الكتاب في عام ١٩٩١م أي منذ عشر سنوات تقريبا، غير أن ظروف خارجة عن إرادتي حالت دون ذلك،

وأحمد الله أن جاء الوقت لنشر هذا الكتاب الذى كان بحثى لرسالة الماجستير.
ومن هنا أسدى شكرى العظيم لأستاذى الفاضل الأستاذ الدكتور محمود الحويرى
لما أمدنى به من توجيه ونصح وإرشاد، كما أقدم جزيل شكرى للأب جورج قنواتى
(ت) بدير الآباء الدومينكان، والأب منصور مستريح بدير الآباء الفرنسيسكان اللذين
ساعدانى فى الترجمة عن اللاتينية، كما لا يفوتنى أن أشكر الدكتور محمود صميده
(ت) أستاذ اللغة العبرية بآداب سوهاج وتلميذه النقيب الأستاذ فرج قدرى
الفخرانى المدرس المساعد بآداب قنا للترجمة عن العبرية، والحقيقة أن الموضوع
لم يكن ليخرج لولا تعاون الكثيرين الذين أبدوا معى تعاونًا صادقًا، لذا فإنى أقدم
بالشكر لكل من قدم لى يد العون طيلة مراحل إعداد هذه الدراسة سواء فى مصر أو
خارجها، وفى النهاية أتمنى من الله أن أكون قد وفقت فى هذه الدراسة فإن كان
بها نقص أو تقصير أو أصابنى فيها بعض العثار فهو منى وحدى فهذه طاقتى
المحدودة، وإن كان غير ذلك فمن الله وحده وتوفيقه.

وعلى الله قصد السبيل

د. محمد عبد الشافى المغربى

كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادى

دراسة تحليلية لأهم مصادر ومراجع البحث:

نظرا لطبيعة هذا الموضوع، فقد تطلب من الباحث أن يعتمد في دراسته على مصادر مختلفة بيزنطية (يونانية ولاتينية) وأرمينية وسريانية وفارسية وتركية، وعبرية وعربية، ومنها ما هو مدون بلغته الأصلية، ومنها ما هو مترجم إلى العربية والإنجليزية والفرنسية. كما تطلب البحث الاعتماد على عدد وفير من المراجع الأجنبية الحديثة المدونة بالإنجليزية والفرنسية، والرجوع أيضا إلى الدوريات والمجموعات ودوائر المعارف المختلفة، وكل ذلك أملا في إخراج الموضوع على أحسن صورة واستخلاص أفضل النتائج على ضوء المعلومات المتاحة. وسأقتصر التركيز في تحليل المصادر على أهمها، وإن كان معظمها خدم الموضوع وكذلك بالنسبة للمراجع التي إفادتنا إفادة كبيرة والتي برزت من خلال معالجتى لهذا الموضوع.

تأتى في طليعة مصادرها مجموعة مؤرخى التاريخ البيزنطى "الكوربس"

Copus Scriptorum Historiae Byzantinae

وتحتوى هذه المجموعة على كتابات المؤرخين البيزنطيين أمثال ثيوفانيس ونيقفورس وقسطنطين بورفيروجينيتوس وكيدر رينوس وزانوراس وأناكومنين وجريجوراس وغيرهم. ولقد اعتمدت الدراسة على هذه المجموعة، طبعه بون (١٨٢٨-١٨٩٧م) وهى عبارة عن أجزاء عديدة مختلفة لهؤلاء المؤرخين، تحتوى على نصين فى الصفحة الواحدة، نص باليونانية وهو الأصل فى النصف الأعلى من صفحاتها، ومع نص باللاتينية فى النصف الأسفل من صفحاتها وهو الترجمة لنفس النص اليونانى. وهذه المجموعة من القطع المتوسط.

ومن المصادر الهامة التى أفادت الدراسة مؤلف المؤرخ البيزنطى ثيوفانيس Theophanis ومؤلفه بعنوان "تاريخ الأزمنة" Chronographia وكان ثيوفانيس قد ولد فى عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٢٥م) وخط كتابه بين عامى

(٨١٠-٨١٤م)، وتوفي سنة ٨١٧م، وغطى تاريخه الفترة الواقعة بين عامي ٨١٣ و٨٢٤م، وكتب ثيوفانيس مدونته على شكل حوليات أو سجلات تاريخية سنوية، وتميز بغزارة ما أورده بالنسبة لدراستنا. وأفادنا ثيوفانيس فيما يختص بعلاقة الخزر ببيزنطة، حيث تحدث عن حملات هرقل ضد الفرس وكيف استعان هرقل بالخزر في إحدى حملاته، كما ألقى المؤلف الأضواء القوية على ما كان بين بيزنطة والخزر من صراع في شبه جزيرة القرم. وكنا نأمل أن يمدنا ثيوفانيس بشيء من تاريخ الخزر المبكر. وقد اعتمدنا عليه من خلال مجموعة الكوربس Corpus.

كما استفادت الدراسة من التاريخ الذى وضعه المؤرخ والإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس Constantin VII Prophyrogentus (٩١٤-٩١٩م، ٩٤٥-٩٥٩م) وعنوان مؤلفه هو "الإدارة الإمبراطورية" De Administrando Imperio ويعتبر هذا المصدر من أكبر وأعظم المصادر التى يجد فيها الباحث معلومات شتى عن الخزر وكثير من الشعوب السلافية وغير السلافية ولقد استفادت منه الدراسة فيما يختص بعلاقة الخزر ببيزنطة والبلغار واللان والبشناق وغيرهم. والكتاب على غزارة ما أورده إلا أنه لم يخل من عدم الدقة فى عرضه للحوادث. أما بشأن التسمية الخاصة بمؤلفه، فلم يضعها قسطنطين نفسه، وإنما وضعها جون موريس John Meurrius الذى قام بنشر هذا الكتاب لأول مرة عام ١٦١١م، وقد التزم بهذه التسمية كل من تناول هذا الكتاب بعد ذلك. ولقد اعتمدت عليه الدراسة بشكل كبير من خلال نشره فى مجموعة "الكوربس" Corpus، كما استفادت الدراسة من إحدى المؤلفات الأخرى لنفس المؤرخ السابق وجاءت بعنوان "مراسم البلاط البيزنطى" De Cerimoniis Aulæ Byzatinæ.

كما استفادت الدراسة من الإشارات القيمة التي وجدناها في كتابات المؤرخين البيزنطيين زانوراس Zonaras وعنوان مؤلفه "موجز التواريخ" Epitomae Historiarum وكيدر ينوس Cedrenus وعنوان مؤلفه "خلاصة التاريخ Historiarum Compendium على الرغم من تأخرهما عن فترة دراستنا حيث عاشا في القرن الحادى عشر الميلادى. ولقد نقل كيدر ينوس عن ثيوفانيس واعتمد عليه فيما يختص بالحديث عن حملات الإمبراطور البيزنطى هرقل (٦١٠-٦٤١م) ضد الفرس وعلاقته بهم.

ومن المصادر البيزنطية الهامة التى وقفت عليها الدراسة التاريخ الذى وضعه بطريك القسطنطينية نيقفورس (٨٠٦-٨١٥م) Nicephorus، وهو بعنوان "مختصر تاريخى لما حدث بعد الإمبراطور موريس".

"Breviarium Historicum De Rebus Gestis Post Imperium Mauricii"

ويغطى هذا الكتاب الفترة الواقعة بين سنتى ٦٠٢ و ٧٦٩م أى من عهد الإمبراطور البيزنطى فوقاس (٦٠٢-٦١٠م) إلى نهاية عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م) ولقد استفادت الدراسة إلى حد كبير من هذا المصدر الخصب إذ تعرض للحروب البيزنطية الفارسية، وقدم لنا وصفا رائعا عن الاتفاق الذى جرى بين الخزر وهرقل. كما تعرض المؤرخ بصورة تفصيلية للصراعات التى جرت بين الخزر وبيزنطة على السيادة على كل من خرسون وشبه جزيرة القرم. كما ألقى الضوء على مسألة طرد الإمبراطور جستنيان الثانى سنة ٦٩٥م من عرشه وعودته إليه مرة أخرى سنة ٧٠٥م. ولقد اعتمدت عليه الدراسة فى الفصل المتعلق بعلاقة الخزر ببيزنطة.

والحقيقة أن هذا المؤرخ أمدنا بمعلومات طيبة وتميز بغزارة ما أورده موضوعية ما قدمه. وهذا الكتاب منشور فى مجموعة الكوربس Corpus، إلا أننا اعتمدنا عليه من خلال مجموعة أخرى لا غنى عنها لباحث العصور الوسطى وهى

مجموعة "أعمال الآباء اليونانيين" Patrologia Graeca وهي مجموعة ضخمة من المجلدات ذات القطع الكبير يزيد عدد مجلداتها عن ١٥٠ مجلدا. وقد نشرها مين Mign في باريس عامي ١٨٥٧ و ١٨٦٦ م وتحتوى على كتابات البطارقة القديسين البيزنطيين. والحقيقة أن التعامل مع مجموعة الكوربس أيسر من التعامل مع مجموعة الباترولوجيا وذلك لتمييز مجلدات المجموعة الأولى بفهرسة أكثر دقة من المجموعة الثانية. الأمر الذى أفاد الباحث فى جمع مادة موضوع رسالته.

كما استفادت الدراسة من المصادر السريانية، وخاصة المؤرخ ميخائيل السريانى. صاحب الكتاب الذى عرف باسم "تاريخ ميخائيل السريانى" Chronique De Michel le Syrien وقد ولد هذا المؤرخ فى ملطية عام ١١٢٦ م وتوفى فى عام ١١٩٩ م، وقد ألقى كتابه الضوء على ما يتعلق بالعلاقات بين بيزنطة ومملكة الخزر. ومن المؤرخين السريان أيضا ابن العبرى واسمه بالعربية أبو فرج غريغوريس بن العبرى الملطى الذى ولد أيضا فى ملطية فى عام ١٢٢٦ م، وتوفى فى سنة ١٢٨٦ م. وكان ابن العبرى على علم باليونانية والسريانية والعربية، ويعتبر بحق أكبر كاتب موسوعى فى الأدب السريانى وقد ألف العديد من الكتب، استفادت الدراسة

منها بكتابين أحدهما بعنوان "تاريخ الأزمنة" The Chronography of Georgory Abul Faraj. وهو أصلا باللغة السريانية، وقد قام بدج Budge بترجمته إلى الإنجليزية. ويتناول هذا الكتاب التاريخ منذ بدء الخليقة حتى عام ١٢٨٥-١٢٨٦ م، وهو نفس تاريخ وفاته. ولقد استفادت منه الدراسة فى مواضيع مختلفة من الرسالة على الرغم من قلة المعلومات المستقاة منه. ولابن العبرى كتاب آخر بعنوان "مختصر تاريخ الدول"، ويعتبر هذا الكتاب من أشهر مؤلفاته، وقد ألفه بالسريانية فى البداية، ثم قام هو نفسه بترجمته إلى العربية بناء على رغبة وإلحاح

بعض وجهاء العرب. وقد تناول هذا الكتاب علاقة الخزر بالمسلمين ... وهو موضوع الفصل الثالث من دراستنا.

وخرجت الدراسة بفائدة كبيرة من المصادر الأرمنية، وخاصة المؤرخ الأرمني موسى خورنيه Moses Khorenots، الذي أمدنا بإشارات عن تاريخ الخزر المبكر في كتابه "تاريخ أرمينيا"، واستفادت الدراسة أيضا مما عرض لهذا المؤرخ الأرمني من تاريخ على صفحات المجلة الآسيوية Journal Asistiqua، وذلك فيما يختص بعلاقة الخزر ببيزنطة على عهد الإمبراطور هرقل، حيث قام المؤرخ الروسي الأرمني باتكانيان Patkanian بترجمة ما نشر من الأرمنية إلى الفرنسية.

ومن المصادر ذات الأهمية الخاصة بالنسبة للبحث، والتي أمدته بمعلومات غاية في الأهمية المصادر الفارسية، ويأتي في مقدمتها المخطوطة الفارسية مجهولة المؤلف "حدود العالم" Hudud Al Alam وهذه المخطوطة اكتشفها المستشرق الروسي تومانسكي Tomanski في عام ١٨٩٢م، ونسبت إليه في الدوائر العلمية، فأصبحت تعرف "بمخطوطة تومانسكي المجهولة المؤلف L' Anonyme de Tumanski وقد قام بنشرها بارتولد في عام ١٩٣٠م، ثم تلى ذلك ظهور ترجمة إنجليزية تصحبها تعليقات وافية ليمنورسكي في عام ١٩٣٧م وهي النسخة التي اعتمدت عليها الدراسة. وقد تم تأليف هذا الكتاب حوالي ٩٨٢م (٣٧٢هـ). والمؤلف لا يميل إلى ذكر مصادره في عرضه للحوادث ووصفه للشعوب، ويبدو أنه كان عالما نقليا أكثر منه رحالة متجول، وذلك لأننا نلمس انعكاس آثار المؤلفين السابقين في مواضع مختلفة من كتابه، وقد أفادنا في مواضع مختلفة من الدراسة حيث تعرض للخزر والالان والبلغار والبشناق والبرطاس وغيرهم.

ويعد كتاب "زين الأخبار" "للكرديزي" الذي وضعه بالفارسية من المصادر الهامة التي أمدت البحث بمعلومات وفيرة. وقد تم تأليف هذا الكتاب في عهد السلطان الغزنوي عبد الرشيد (١٠٤٩-١٠٥١ م / ٤٤٠-٤٤٤ هـ) وهو من المصنفات التاريخية الرائعة وقد استفادت الدراسة من الفصل الذي وضعه المؤلف عن الترك حيث تحدث عن الخزر. وفي هذا الفصل يذكر من بين مصادره المؤرخين ابن خرداذبه والجيهاني، ويبدو أنه اعتمد اعتمادا كبيرا على ابن رسته في مواضع كثيرة خاصة في حديثه عن أوروبا الشرقية على الرغم من أن المؤلف لم يشير إليه ولو مرة واحدة.

وعن الكتب الفارسية أيضا التي أفادت الدراسة كتاب "تاريخ كذيدة" لحمد الله مستوفي قزوینی. وهو كتاب وضعه في التاريخ العام، ألفه في عام ١٢٣٠ م (٧٣٠ هـ) ويتميز هذا المؤلف بدقة ما أورده. وهو من مدينة قزوین وشغل وظيفة المستوفي (أي مفتش الحسابات) وكانت وفاته سنة ١٢٤٩ م (٧٥٠ هـ)، وقد أفادنا هذا الكتاب في الفصل الخاص بعلاقة الخزر بالمسلمين، ويتضح من المعلومات التي عرضها أنه قد أفاد إفادة كبيرة من الذين سبقوه.

وأیضا استفادت الدراسة من الإشارات القيمة التي أوردها الكتاب الفارسی "فارسنامه" لابن البلخی الذي ألفه في الفترة الواقعة بين عامي ١١٠٦ م و ١١١٦ م. وأیضا كتاب "ديوان لغات الترك" للمؤلف التركي الأصل محمود الكاشغري. وقد أمدنا بمعلومات متناثرة وقليلة. وهذا الكتاب وضعه عن آسيا الوسطى والقبائل التركية. وقد تم تدوين الكتاب ببغداد في الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٧٢ م (٤٦٤ هـ) و ١٠٧٤ م (٤٦٦ هـ) كما يذكر ذلك هو نفسه.

وعن الكتاب المسيحيين الشرقيين الذين أفادوا الدراسة نذكر منهم محبوب المنبجي وكتابه "العنوان" الذي يبدأ تاريخه من بدء الخليقة حتى ٩٤١ م (٣٣٠ هـ)، وقد قام المؤرخ المحدث فازيليف Vasiliev بنشره في "مجموعة أعمال الآباء

الشرقيين Patrologia Orientalis" وقد نشر باللغة العربية يصاحبها ترجمة فرنسية في باريس ١٩١١م، وقد استفادت منه الدراسة في الفصل الخاص بعلاقة الخزر ببيزنطة خاصة على عهد الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى (٦٨٥-٦٩٥م) (٧٠٥-٧١١م).

وننتقل الآن إلى المصادر اليهودية، ويأتى فى مقدمتها المصدر اليهودى المعروف "بالرسائل الخزرية" وهى رسائل تبودلت باللغة العبرية بين حسداى بن شفروط كبير الوزراء فى بلاط الخليفة الأموى فى الأندلس عبد الرحمن الثالث (٩١١-٩٦١م / ٣٠٠-٣٥٠هـ) من جهة والملك يوسف ملك الخزر، وتبودلت هذه الرسائل فى الفترة الواقعة بين عامى (٩٥٤م) و(٩٦١م) أى فى الوقت الذى كتب المسعودى كتابه تقريبا، وقد استفادت الدراسة من هذه الرسائل بشكل كبير خاصة فى الفصل الرابع، واعتمدنا عليها من خلال كتاب Jewish Travellers حيث قام المؤلف بنشرها، فضلا عن المراجع الأخرى التى تعرضت لهذه الرسائل. على أن أهم ما يلاحظ فى رسالة حسداى أنها كانت طويلة تحدث فيها عن كيف سمع أول ما سمع بوجود مملكة يهودية وعن الصعوبات التى واجهته فى إرسال رسالته ومضى يسأل طائفة من الأسئلة المباشرة التى تكشف عن حرصه على الاستزادة من المعلومات عن كل وجه من وجوه الحياة فى مملكة الخزر، ثم أورد معلومات طويلة عن أسبانيا وعن وضع اليهود، ولا شك أن حسداى كان يرمى من وراء ذلك إغراء الملك بالإفاضة فى ذكر أحوال مملكته فى رده عليه. وأهم ما يلاحظ على رد الملك يوسف على رسالة حسداى أنها جاءت أقل عاطفة وشجنا مما بدا فى رسالة حسداى إليه، ولا شك أن مرجع ذلك أن العلم والثقافة لم يكونا سائدين بين يهود الفولجا بالشكل الذى كان يلتمس على أنهار الأندلس فى ذلك الوقت.

وعن المصادر العبرية الهامة التي أمدت الدراسة في الجزء الخاص باعتناق الخزر لليهودية كتاب يهوذا هاليفى (يهودا اللاوى) (١٠٨٥-١١٤١م) والذي وضعه عن الخزر وسماه "كوزارى" (٦٢٦) وهاليفى شاعر عبرى أسباني كتب هذا الكتاب قبل أن يموت بسنة واحدة أثناء حجه لبيت المقدس، والكتاب عبارة عن رسالة فلسفية تحدث فيها عن المحاورات الفلسفية التي دارت بين أنصار الديانات السماوية الثلاث. والكتاب على الرغم من عنوانه فإنه لا يقول إلا القليل عن بلاد الخزر نفسها، لكن المؤلف اتخذ من مسألة اعتناقهم لليهودية سبيلا لتأليف هذا الكتاب، والباحث المدقق يجد أن هذا المؤلف يمثل العقلية المستنيرة لليهود لأنه متمكن من الديانة اليهودية وملم بالعقيدة الإسلامية والمسيحية وفلسفة الإغريق، واعتمدنا عليه فى الكتاب من خلال كتاب سه لا فان يوسف: يهوذا اللاوى "هاخوزارى". هو تسأت أورعيم، هعروت فهنحيوت ليلمود فلقرياه (١٩٢٣) والكتاب أحد كتب السلسلة التي تقدم تعريفات باللغة العبرية للكتاب والأدباء بانتاجاتهم المختلفة.

وأيضاً رجعنا إلى كتاب "التوراة" وهو من المصادر اليهودية الأولى. من خلال الكتاب المقدس الذي يضم بين دفتيه كتب التوراة والأنبياء وأخبار الملوك وتمثل العهد القديم والإنجيل الذى يمثل العهد الجديد، وقد اعتمدت عليه الدراسة لتفسير بعض المسائل التي تخص مسألة اعتناق الخزر لليهودية.

أما عن المصادر العربية فهي كثيرة ومتنوعة، والحقيقة أن هذه الدراسة تدين بالفضل لتلك المصادر، حيث غدت البحث بالمعلومات التفصيلية القيمة، ويمكننا تقسيم تلك المصادر إلى طائفتين: طائفة أفادتنا فى الفصل الخاص بعلاقتهم بالمسلمين. وأخرى أفادتنا فى الفصل الخاص بالمظاهر الحضارية، ويأتى فى مقدمة الطائفة الأولى كتاب "الفتوح" للعلامة أبى محمد أحمد بن أعثم الكوفى المتوفى

سنة ٩٢٦م (٣١٤هـ) ويقع في ثمانى مجلدات تناول فيه أخبار المسلمين وفتوحاتهم في بلاد المشرق والبحر المتوسط وخراسان وأرمينية وأذربيجان، وقد أغنى هذا الكتاب الدراسة بمادته العلمية الغزيرة، حيث عرض للحروب التى خاضها المسلمون مع الخزر. والحقيقة أنه لم يترك لمستزيد يريد الزيادة أن يستزيد، ولا سبيل إلى استكمال أخبار الحروب بين المسلمين والخزر إلا بالاطلاع على هذا المصدر الخصب الذى استقى منه معظم من تناولوا تاريخ فتوح المسلمين فى القوقاز، ولكن السمة الغالبة على هذا المصدر هو السرد القصصى الممل، ويبدو أن موهبة المؤلف القصصية تفوق قدرته التاريخية. ومن هنا حذفنا التفاصيل الكثيرة التى لا تدعو الحاجة إليها، كما أن المؤلف لم يدعم عرضه للأحداث بالعنصر الزمنى.

كما استفادت الدراسة من كتاب "فتوح البلدان" للبلاذرى المتوفى سنة ٨٩٢م (٢٧٥هـ) وكتاب "تاريخ الرسل والملوك" للطبرى المتوفى سنة ٩٢٢م (٣١٠هـ) حيث أمد الدراسة بمعلومات طيبة فى مواضع كثيرة فى الرسالة، لكنها كانت فى كثير من الأحيان موجزة وبعضها مقتضبا اقتضابا يجعل الفائدة منها قليلة - كما أن البلاذرى والطبرى وبعض المؤرخين الذين تناولوا تاريخ الخزر كانوا يخلطون بين الترك والخزر، فمرة يطلقون عليهم الخزر ومرة أخرى يطلقون عليهم الترك فقط دون خاصية أو تحديد، مما كان يشكل صعوبة فى البحث وذلك لأن الخزر ترك وليس الترك خزرا.

وكتاب "الكامل فى التاريخ" لأبن الأثير المتوفى سنة ١٢٣٢م (٦٣٠هـ) من المصادر الهامة التى أمدتنا بمعلومات قيمة فى الدراسة. وقد اعتمد ابن الأثير على سابقه، ولكنه حذف الأسانيد، كما حذف التفاصيل التى لا تدعو الحاجة إليها.

ومن المصادر التى افدنا منها، تاريخ ابن خلدون وابن كثير والنويرى والذهبي وإن لم يكن فى أخبار هؤلاء من جديد انفردوا به، بل اعتمدوا كلية على

سابقهم، فالنويرى مثالا لا يدعى لنفسه أصالة خاصة، بل يذكر بالتحديد أنه إنما يقتفى اثر السابقين عليه ويلقى المسؤولية على عاتقهم.

أما عن طائفة المصادر العربية الأخرى التى أفادتنا فى معالجة المظاهر الحضارية فقد كانت على جانب كبير من التعقيدات، لأنها كانت وحدها تقريبا المتاحة بين أيدينا التى تكلمت فى هذا الشأن، ولم تكن بصورة واضحة وكبيرة تمكن المتصدى لمعالجة تلك المظاهر، خاصة وأن ما أورده الجغرافيون والرحالة من مادة علمية فى هذا الصدد قد شابه الغموض واللبس، ذلك أنهم كانوا يهتمون بتدوين الأحداث الغريبة العجيبة فقط.

أفادت الدراسة أيضا من كتاب "مروج الذهب" للمسعودى المتوفى ٩٥٧م (٣٤٦هـ) الذى تحدث عن الخزر والأمم التى كانت تحيط بالعالم الإسلامى فى القوقاز وأشار المسعودى فى مروجه بشأن اعتناق الخزر لليهودية أن له كتابا آخر تضمن وصفا لهذه الظروف إلا أن الكتاب لا تعرف عنه شيئا لأنه فقد، إلا أنه يبدو أن تلك الظروف بقيت ماثلة فى كتابين هما المسالك والممالك "للبكرى" المتوفى سنة ١٠٩٤م (٤٨٧هـ) والثانى "نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر" للدمشقى المتوفى سنة ١٣٢٧م (٧٢٧هـ). ونادرا ما يشير المؤلفان إلى مصادرهما وهى جميعها لا تخرج عن سابقهم كالمسعودى والاصطخرى والإدريسى.

ومن المؤلفات التى كانت على جانب كبير من الأهمية "رسالة ابن فضلان" لأحمد بن فضلان الذى ترك رسالة مشهورة قدم لنا فيها صورة حية للظروف السياسية فى العالم الإسلامى والعلاقات بين بلاد الإسلام والبلاد المتاخمة لها فى آسيا الوسطى والأصقاع النائية. وكان الخليفة العباسى المقتدر بالله (٩٠٨-٩٣٢م/ ٢٩٥-٣٢٠هـ) قد أنفذ بعثة إلى بلاد البلغار، وكانت هذه البعثة برئاسة سوسن الرسى وكان ابن فضلان أحد أفراد تلك البعثة، وقد تم إعداد هذه البعثة بناء على طلب

بلغار الفولجا الذين أرسلوا رسولا إلى عاصمة الخلافة العباسية بعد أن أسلم ملكهم
زطلب من الخليفة أن يبعث إليه من يفقه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام ويبني له
مسجداً ويقيم حصناً ضد ملوك الخزر اليهود الذين كانوا يعتدون على قومه ويفرضون
عليهم الضرائب. وقد استغرقت رحلة ابن فضلان حوالي أحد عشر شهراً، وكتب
رحلته عن الشعوب التي مرت عليها البعثة بأسلوب شيق سلس ولغة حية مصورة في
رسالة إلى الخليفة، وربما تكون هذه الرسالة هي المصدر الذي استقى منه
الأصطخري وابن حوقل والمسعودي. ومن المؤسف أن ابن فضلان قد حيل بينه
وبين زيادة قصة الخزر، ولم يجد بداً في تدوين رحلته من الاعتماد على البيانات
التي استقاها من البلاد الخاضعة للخزر وخاصة البلغار، وقد اهتم بهذه الرسالة العديد
من المستشرقين وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على النسخة التي اكتشفت في مدينة
مشهد العراقية والتي قام الدكتور سامي الدهان بتحقيقها.

كما أفادت الدراسة من كتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموي المتوفى
سنة ١٢٢٩م (٦٢٦هـ). وتكمن أهمية هذا الكتاب أنه حفظ لنا رحلة ابن فضلان في
مواد (خزر، أتل، روس، بلغاريا، باشقرد، خوارزم) وكان هذا المصدر الوحيد لتلك
الرحلة قبل اكتشاف النسخة المدونة، والشيء الملاحظ أن ابن فضلان كان يسمي
ملك البلغار (ملك الصقابة) وكان يمكن اعتبار هذه العبارة خطأً من ياقوت لولا أن
ابن فضلان يستعمل نفس هذه العبارة، وكان ياقوت يتخفف في نقوله من بعض
التفاصيل حيناً ويتقيد بالنص حرفاً حيناً آخر ولقد أفادنا المصدر في معظم الرسالة،
خاصة وأنه حقق معظم الأماكن الهامة التي وردت بالرسالة ولم يفته إلا القليل.

وهناك ثلاثة مصادر جغرافية تحمل عنواناً واحداً هو "المسالك والممالك"
لبن خرداذبة (ت ٩١٢م/٣٠٠هـ) والإصطخري (ت ٩٥٧م/٣٤٦م) وابن حوقل
(ت ٩٧٧/٣٦٧) الذي ألف كتابه بعد الإصطخري واعتمد عليه اعتماداً كلياً، ولكنه

انفرد بإيراد النظام القضائي بمملكة الخزر وهزيمتهم على يد الروس، واستقادت الدراسة من مؤلف الإصطخرى الذى اعتمد فى تأليفه على رحلاته فى طلب العلم والمعرفة فى الآفاق الإسلامية وعلى ما نقل من كتاب "صور الأقاليم" للبلخى، ولكن رواية الإصطخرى عن الخزر وضعت أمام المؤرخين صعوبات جمة إذ أنه جمع فيها دون فائدة تذكر بين روايتين مختلفتين. كما حاول أن يثبت ذلك العلامة الهنغارى كموشكو Kmocho (١٩٢١م) غير أن هذه المشكلة قد حلت بعض الشيء عقب العثور على النص الأكمل لابن فضلان حيث اتضح أن القسم الخاص بالخزر الذى ينسبه ياقوت إلى ابن فضلان إنما هو فى الواقع للأصطخرى^(١٢).

أما عن المراجع والمجموعات والدوريات ودوائر المعارف المختلفة، فقد أفاد معظمها الدراسة بصورة كبيرة. ويأتى فى مقدمة هذه المراجع الكتاب القيم الذى وضعه المؤرخ المحدث دنلوب عن الخزر، وكان دنلوب يعمل أستاذًا للتاريخ الشرقى الوسيط فى جامعة كولومبيا. ويعتبر كتابه مرجعا كبيرا عن الخزر، ولكنه لم يسدل الستار على العديد من القضايا التاريخية الخاصة بالخزر، وأوصى بمزيد من البحث لأن كثيرا من القضايا مازالت موضع استنتاج وحدث وموضع جدل واختلاف.

أما الكتاب الثانى فهو للصحفى المجرى كويستلر الذى جاء بعنوان "القبيلة الثالثة عشر، إمبراطورية الخزر وتراثها" وهو عبارة عن دراسة تاريخية أنثروبولوجية، حاول فيها كويستلر أن يدحض مزية الاستقلال العرقى الجيسى لليهود وكذب الادعاء بمعاداة الشعوب الأخرى للسامية، وتناول فيها أثر الخزر فى التركيب السلالى

(12) Krachovski (I.V.): Istoria Arabskoi Geograficheskoi Listeratury. (Moskova, 1957), p. 197.

والترجمة العربية، كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ج ١،

لليهودية الحديثة وتراثها الاجتماعي. والحقيقة أن كويستلر في كتابه قدم لنا فيضا من الأدلة والوثائق في تأييد نظرية اقتناعنا بها يزداد، وإن صحت هذه النظرية فإن القول بمناهضة السامية يصبح خاليا من المعنى، واعتمد المؤلف على حجج المؤرخين المحدثين سواء البولنديون أو النمساويون أو الإسرائيليون في إثبات أن الغالبية العظمى من اليهود المعاصرين ليسوا من أصل فلسطيني وإنما من أصل قوقازي، كما أخذ بالإحصاء الموثوق الذي قدمه المؤرخون البولنديون والبدال على أن الغالبية العظمى من اليهود في العصور السابقة كان أصلها من بلاد الخزر، والحقيقة أن نظرية كويستلر ليست بالنظرية الجديدة، فقد توصل إليها من قبل كثير من العلماء أمثال دنلوب وبولياك الإسرائيلي (الروسي الأصل) الذي قدم إلى فلسطين مع المهاجرين اليهود سنة ١٩٢٣م وشغل كرسى تاريخ اليهود الوسيط. بجامعة تل أبيب، وألف كتابا باللغة العبرية عن الخزر، وطبع في تل أبيب سنة ١٩٤٤م^(١٣) وقوبل بالعداء ولم يذكر اسمه في دائرة المعارف اليهودية التي طبعت سنة ١٩٧١م.

ولقد أثار كتاب كويستلر ضجة ضخمة في جميع الأوساط. وعلى الرغم من أن الكتاب هو شهادة لنا - لا علينا - في موقفنا مع اليهود إلا أن الكاتب يظهر صهيونيته حين ذكر في نهاية كتابه قائلا: "رغم أن هذا الكتاب يدرس التاريخ الماضي، فلا مفر أن يحمل تضمينات معينة تنسحب على الحاضر والمستقبل فانا أعى - في المرتبة الأولى - الخطر المتمثل في أنه قد يساء فهمه باعتباره إنكارا لحق دولة إسرائيل في الوجود، ولكن هذا الحق لا يستند إلى الأصول المحتملة للشعب اليهودي ولا إلى الوعد الأسطوري بين إبراهيم والله، ولكنه يستند إلى القانون الدولي، أقصد إلى قرار الأمم المتحدة الصادر سنة ١٩٤٧م والذي قضى بتقسيم

(13) Poliak (A. N.): Khazaria, in Hebrew (Tel Aviv, 1944).

فلسطين - التي كانت يوما ما ولاية تركية ثم صارت إقليما خاضعا للانتداب البريطاني ثم إلى دولة عربية ودولة يهودية - وأيا كانت الأصول العرقية للمواطنين الإسرائيليين وأيا كانت أوهامهم عنها التي يعلنون النفس بها فإن دولتهم قائمة فعلا وقانونا، سواء أ حملت كروموزومات شعبها جينات من أصل خزري أو سامي أو من أصل روماني أو أسباني فأمر لا صلة له بالموضوع، ولا يمكن أن يؤثر في حق إسرائيل في البقاء ولا في الالتزام الأدبي لأي شخص متحضر، يهودي أو غير يهودي، بالدفاع عن هذا الحق، ولا شأن لمسألة الوجود الخزري منذ ألف عام - مهما كان سحرها بإسرائيل الحديثة⁽¹⁴⁾.

والحقيقة أن الكاتب يناقض نفسه فيما قدمه، فهو في البداية يقدم لنا فيضا من الأدلة على أن شعب اليهود المعاصرين ليسوا ساميين، وعلى هذا فليس من حقهم احتلال فلسطين ويفاجئنا في النهاية بأن هؤلاء من حقهم فلسطين بناء على القانون الدولي. وهذا القول يناقض البحث العلمي السليم، ويبدو أن التنصل الآن من العرق السامي أصبح لا يضر بعد أن استنفذ غرضه باغتصاب فلسطين وإقامة دولة فيها بقوة القانون الدولي والأمر الواقع. إن كويستلر يفاخر ويغيب العرب والمتحضرين والمثقفين في العالم أنه أخذ يكذب هو واليهود على العالم طوال الوقت السابق بأنه سامي يريد أن يعود إلى أرض أجداده وأفلح في العودة هو واليهود إلى فلسطين وتكوين دولة إسرائيل وتشريد شعبها بعد أن ابتلع العالم كذب اليهود، أما الآن فلا يضيره اليوم هو واليهود بأن يعلن أنه مدع، وأن يعلن أن فلسطين ليست أرض أجداده، وأولئك القادمون ليسوا أجداده وأنه ليس ساميا، وقد يكون خزيا. ولكن هذا كله لا يعني شيئا ما دامت إسرائيل في زعمه قائمة بقوة القانون.

(14) Koestler: The thirteenth tribe the khazar Empire and its Heritage, p.223.

الفصل الأول

قيام مملكة الخزر

- الإشارات المبكرة عن تاريخ الخزر.
- علاقة الخزر بالأرمن.
- علاقتهم بالبزنطيين قديمًا.
- علاقتهم بالهون.
- علاقتهم بالفرس.
- علاقتهم بالأتراك الغربيين.
- الهيمنة الخزرية على بعض الشعوب في شرق أوروبا.
- (البلاد التي كانت تدفع الجزية للخزر - البلغار - الغز - البرطاس - مملكة السريير - الآلان - المجر - هون ورشان - البجناك)

اتفق معظم الباحثين الذين تناولوا تاريخ الخزر سواء أكان ذلك من قريب أم بعيد على أن الخزر شعب من اصل تركى عاش فى أواسط آسيا، ثم قدم فى فترة مبكرة غير محددة إلى شرق أوروبا بحذاء الطريق البرى المار شمال بحر قزوين، واستقر الخزر حول بحر قزوين ومناطق جبال القوقاز وامتد سلطانهم من بحر قزوين ونهر الفولجا إلى نهر الدنيبير وعاصمتهم كانت تقع على بعد من استراخان الحالية وقد أطلق عليها بلانديشار Balandshar، كما شمل نفوذ الخزر جزءا كبيرا من جنوب روسيا وامتدت أراضيهم إلى الغرب الأوربي⁽¹⁾.

ولكن الشىء الذى اصطدم به المعنيين بالخزر هذه التساؤلات الكثيرة بشأنهم. متى ظهر الخزر واسم الخزر لأول مرة، وكيف برزوا على مسرح الأحداث ومتى قدموا من أواسط آسيا، وكيف كانوا فى بداية عهدهم واستقرارهم، وكيف تحولوا من قبائل وثنية إلى مملكة لها كيائها وإمبراطورية لها امتدادها، ثم أين كان الخزر وشكلهم السياسى فى تلك الحقبة التى ظهر فيها الهون والآفار والأتراك الغربيين والفرس، وما هى علاقتهم المبكرة بالعرب والبيزنطيين ومتى بدأت؟ ونود هنا قبل الإجابة عن هذه التساؤلات أن نشير إلى أن فجر تاريخ الخزر يكتنفه الغموض، خاصة فيما يتصل ببداية ظهورهم ووصفهم الأثنولوجى. لذا فإننا فى السطور القادمة سوف نورد كل ما ذكر عن الخزر وبدايتهم، واضعين فى الاعتبار عدم إغفال أية رواية مهما كانت خيالية أو ساذجة أو بعيدة عن الصحة فربما يكون لها أهمية تاريخية.

(1) Art. Khazar, in Ency. Americana (1829), Vol. 16, p.391, Cole (F.C.):
Art. Khazar in the American People Ency., (New York, 1966), Vol. 11, p.111.
Art. : Chazars, in Chambers's Ency., (London and Edinburgh. 1923), Vol. 3.
Durant (W) : The Story of Civilization, The Age of Faith (New York, 1950), Vol. Iv, p. 446.

ففيما يختص بأصل الخزر الأنثروبولوجي يجمع المؤرخون المسلمون على أن الخزر أتراك من ولد يافث بن نوح، كما يورد هؤلاء المؤرخون أيضا تصنيفا أنثروبولوجيا لشجرة نسب أولاد نوح (سام وحام ويافث) وما تفرع منهم في الأماكن التي استقروا بها، ونجدهم مثلا يخصصون يافث بشعوب الترك والخزر ويأجوج وماحوج والصقالية والأشبان والبرجان وغيرهم، وكانت منازلهم أرض الروم قبل الروم. وصار لولد حام بلاد المغرب وما وراء النيل وصار لسام وسط الأرض كالحرم وما حوله^(٢) كما نجد ياقوت الحموي^(٣) يرجع شعب الخزر إلى الخزر بن يافث.

وفي المراسلات المتبادلة بالعبرية في القرن التاسع الميلادي بين حسداى بن شفروط كبير الوزراء اليهودي لخليفة قرطبة في الأندلس عبد الرحمن الثالث وبين يوسف ملك الخزر جاء في رد الملك يوسف أن الخزر اليهود يرجع أصلهم إلى يافث ابن نوح الثالث، كما يذكر أنه وجد في الكتب المختصة بالسلالات عن آبائهم أنه كان لنوح عشرة أولاد هم Ouvar, Tirus, Agijoe, Balgad, Sanar, Cusar, Zarna, Bisal, Ugin, Savir وهم ينحدرون من كوزار (الخزر) Cusar^(٤).

(٢) ابن قتيبة : المعارف، ص ٢٦.

الديتوري : الأخبار الطوال، ص ٣٤.

اليقوي : تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٩-١٢.

الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج ١، ص ٢٠٥-٢٠٦.

الكرديزي : زين الأخبار، ج ٢، ص ٤٣٣.

ترجمة : عفاف السيد زيان.

ابن الأثير : الكامل ف التاريخ، ج ١، ص ٤٦.

(٣) معجم البلدان: ج ٣، ص ٤٣٢.

(٤) The Answer of Joseph, C.F. Adler (E. N.), Jewish traveller (London, 1930) p. 34; Koesler: op. Cit., p.72.

ولنأتى لكتاب "ديوان لغات الترك" الذى وضعه المؤلف التركى الأصل محمود الكاشغرى^(٥) وشمل الحديث عن كثير من الشعوب التركية ومواضع سكنهم، وقد اعتمد فى ذلك على المعاينة ومعرفة الشخصية بتلك البلاد، فنجده يعود بأصل الترك إلى ترك بن يافث، ونجده يصف العديد من أقوام الترك، ونندهش من عدم ذكره للخزر، على الرغم من أنه ذكر أمما مجاورة ومعاصرة للخزر أمثال البجناك والقفجاق والباشقرد وغيرهم، ويبدو أنه لم يذكر الخزر لأنه لم يكن لهم كيان سياسى ضخم، خاصة وإذا علمنا أن تاريخ تأليف هذا الكتاب كان بين عامى ١٠٧٢م و١٠٧٤م أى القرن الحادى عشر، وفى ذلك القرن كان الخزر فى طريقهم إلى الاضمحلال والتلاشى كدولة.

وتفيض المصادر العربية والفارسية بالحديث عن تاريخ الخزر المبكر، فتطالع رواية ذكرها ابن سعد^(٦) تربط بين الخزر وإبراهيم عليه السلام، وذلك أن إبراهيم رزق أولاداً اتفروا فى أرض مدين ويقشان وغيرها "وقالوا لإبراهيم" يا أبانا أنزلت إسماعيل وإسحاق معك وأمرتنا أن ننزل أرض الغرب والوحشة قال: بذلك أمرت. قال فعلمهم اسما من أسماء الله فكانوا يستسقون به ويستنصرون، فمنهم من نزل خراسان، فجاءتهم الخزر فقالوا: ينبغى للذى علمكم هذا أن يكون خير أهل الأرض أو ملك الأرض، قال: فسموا ملوكهم خاقان".

وأورد الطبرى^(٧) نفس هذه الرواية التى ذكرها ابن سعد بلا اختلاف. كما أوردها أيضاً تميم بن بحر^(٨) الذى يذكر أن إبراهيم لم يتزوج بعد سارة حتى ماتت

(٥) — ١، ص ٢٧.

(٦) الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٢.

(٧) تاريخ الرسل والملوك، ج ١، ص ٣١١.

(٨) Minorsky (T.): Tamim Ibn Bahr's Journey to the Uyghurs. (1948), Vol. Xii, part 2, p.282 in Bulletin of the School of Oriental and African studies.

فتزوج امرأة من العرب العاربة تدعى قنطورا بنت مقطور تم حرقوا سائرين حتى وصلوا إلى خراسان فتناسلوا هناك واتصل خبرهم بالخزر الذين يحدرون من أصل يافث بن نوح فصاروا إليهم وحالفوهم وتزوجوا منهم وأقاموا بعضهم عندهم وانصرفوا الباقون إلى بلدهم.

والحقيقة أن هذه الروايات تثير تساؤلات هامة، هل كان للخزر وجود بالشكل المعروف على عهد إبراهيم عليه السلام؟ أم أن هذه الروايات أسطورة وخرافة، أم أن الخزر ذكروا في هذا الموضع خطأ، أم أن الرواية ساذجة ولا تستحق الاهتمام. وبدون النظر إلى تلك الاعتبارات فإن تلك الروايات قد أفادت بأن الخزر أقاموا في خراسان، فهل كانوا بالفعل في خراسان؟ فضلا عن أن الخزر في تلك الرواية سموا ملوكهم خاقان، والملاحظ أن هذه التسمية لم تظهر إلا بظهور الأتراك الغربيين الذي سيأتي عنهم الحديث في موضع آخر من الدراسة. كما اننا نطالع قصة أخرى في كتاب "الحيوان" للجاحظ^(٩) الذي ذكر قصة في عهد النبي سليمان، غير ذات أهمية بالنسبة لدراستنا، إلا أن صاحب الخزر ذكر مع صاحب الروم، وصاحب الترك وصاحب النوبة في هذا الموضع، وإن صحت هذه القصة فهل كان صاحب الخزر نظيرا لصاحب النوبة والروم؟ والملاحظ في هذه الرواية أنها ميزت بين الترك والخزر.

ونطالع أيضا قصصا تربط بين الإسكندر الأكبر والخزر، فالدينوري^(١٠) يذكر أن الإسكندر توجه إلى أرض المشرق ليحصل على طاعة ملك الصين، إلا أن وزراءه صعبوا له ذلك وقالوا: "كيف يمكنك الاجتياز إلى مطلع الشمس من هذه الجهة، دون ذلك البحر الأخضر ولا تعمل فيه السفن، لأن ماءه شبيه بالقيح، ولا يصير على

(٩) حـ ٤، ص ٨٥-٨٦.

(١٠) الأخبار الطوال. وص ٣٥-٣٦.

نتن ريحه أحد؟" فقال: لابد من المسير ولو لم أسر إلا وحدي. قالوا: نحن معك حيث سرت. فسار حتى قطع أرض الروم... ثم جاوزهم إلى أرض الصقالبة، فأذعنوا له بالطاعة، فجازهم إلى أرض الخزر فأذعنوا له فجازهم إلى أرض الترك فأذعنوا له....".

ولا تعيننا بقية الأحداث الخاصة بالإسكندر، ولكن ما يثير التساؤل في هذا الموضوع هو هل كان الخزر موجودين على فترة الإسكندر بالشكل الذي نعرفه عن الدول والممالك؟ ثم أن الطبري^(١١) في إحدى مواضع كتابه الضخم ذكر معركة عظيمة جرت بين الإسكندر وحاكم الفرس في خراسان بالقرب من حدود الخزر. على أن المؤرخ المحدث دنلوب^(١٢)، يعتبر ارتباط ذكر الخزر بقصص الإسكندر نوعا من التجاوز ولا يمكن قبوله أو تصديقه، ويعلق قائلا: "إن صح ما روى عن الخزر فإن ذلك يعد دليلا على نشاط الخزر واتساعهم بعيدا إلى الشرق من منطقة القوقاز في بعض الوقت" إلا أنه في النهاية يعود ويرى أن جميع الإشارات التي تربط الخزر بالإسكندر وهمية وخيالية.

وهناك مصادر عربية أخرى نجد فيها أخبار عن الخزر، ففي كتاب "العقد الفريد" لبني عبد ربه^(١٣) إشارات عن الخزر تلقي بعض الضوء على بداية تاريخ الخزر، ففي مناقشة طريفة درات بين ابن المقفع (ت ١٤٢ هـ) ومجموعة من أقرانه. طرح سؤال هام: أي الأمم أعقل؟ فردوا عليه بهذه الأمم الفرس، ثم الروم، ثم الصين فالهند فالأفارقة ثم جاء الترك فالخزر، فلم يوافق على هذه الأمم جميعا ورد عليهم

(١١) تاريخ الرسل والملوك، ج ١، ص ٥٧٦.

Dunlop : op. Cit., p.15.
(١٢) Dunlop : op. Cit., p.15.

(١٣) ج ٢. ص ٢٢٤-٢٢٥.

Rosenthal (H.): Techniaue and Approach of Muslim Scholarship.
(1947), p. 72.

بالعرب، وكان ابن المقفع يعقب على كل أمه ويخصها بخصائص معيية فى رده. فقد عقب على الترك بأنهم "كلاب ضالة" وعلى الخزر بأنه "بقر سائمة". ، كما ذكر نفس المصدر رواية أخرى وكانت عبارة عن مناظرة جرت بين النعمان بن المنذر ملك الحيرة وبين كسرى ملك الفرس فى شان العرب وقوام هذه المناظرة أن كسرى نظر فوجد أن لكل أمة من الأمم ميزة وصفة، فوجد للروم والهند والصين صفة وحتى للترك والخزر على ما بهم من سوء الحال فى المعاش فإن لهم ملوكا تضم قواصبيهم وتدبر أمرهم ولم ير للعرب شيئا من خصال..... إلخ"^(١٤).

ولنأتى الآن لتحليل هاتين الروايتين، وفى الرواية الأولى جاء الترك والخزر فى المؤخرة بعد الفرس والصينيين والهنود والأفارقة، وعلى الرغم من أن الخزر جاءوا فى المؤخرة إلا أن هذا لا ينفى أنهم ذكروا مع هذه الأمم بالشكل الذى يولد اتجاهها على وجودهم وكيانهم وإن كان الخزر الترك قد احتلا مكانة قليلة الشأن بين الأمم، كما أن هذه الرواية ميزت بين الترك والخزر فى الصفات والمميزات، لكن الشئ الذى يمكن الخروج به من هذه الرواية أن الخزر جاءوا كمجموعة عرقية مستقلة لها طابع معين وصفات وخواص مميزة بين عناصر وطوائف الترك المختلفة، والرواية الثانية على الرغم من أنها خصت الترك والخزر بسوء الحال إلا أنها أفادت بأن لهم ملوكا تضم قواصبيهم وتدبر أمرهم، الأمر الذى يجعل من الخزر شعب له دوره وكيانه بين الشعوب القائمة وإن كان أقل فى الدرجة.

وهناك علاقة مبكرة بين الخزر والأرمن تذكرها المصادر الأرمنية، وتفصيل ذلك أن شعوب الشمال اتحدوا وهم الخزيرز Khazirs والباسيليون Basilians (أو الباسيلك Basilk) ونفذوا عبر ممر كور Chor تحت قيادة زعيمهم فناسب سورهاب Vnasp Surhap وقد عبروا إلى ذلك الجانب من نهر كورا Kura إلا أن فالارش

(١٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢، ص ٤-٥.

Valarsh القائد الأرمني صدهم على رأس قوة من الجند المحاربين وبعثهم في صورة جثث على طول السهل، وطارد بقاياهم إلى مسافة بعيدة ودفعهم خلفا إلى ممر كور، وهناك اتحد الخزر والباسيليون مرة أخرى ودخلوا في معركة ثانية مع الأرمن، إلا أن الأرمن أبدوا شجاعة وهزمهم وأجبروهم على الفرار على الرغم من موت فالارش بين يدي الرماة، وقد حدث ذلك في الفترة الواقعة بين سنتي ١٩٧م و٢١٧م^(١٥).

ويطلعنا الطبري^(١٦) عن علاقة مبكرة بين الخزر والإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) حيث ذكر أن هدنة جرت بين شابور الثاني ذو الأكتاف (٣١٠-٣٧٩م) كسرى الفرس والإمبراطور البيزنطي قسطنطين الكبير (٣٢٤-٣٣٧م) أول من اعترف بالمسيحية (سنة ٣١٣م) ثم تولى من بعده ثلاثة من بنوه حتى جاء الإمبراطور جوليان (٣٦١ - ٣٦٣م) الذي ارتد عن المسيحية، ووجدت الوثنية من أيديها بإخلاص وولاء فأعادها "وقتل الأساقفة وأحبار النصارى، وأنه جمع جموعا من الروم والخزر ومن كان في مملكته من العرب ليقاتل بهم سابور وجنود فارس".

ويبدو أن البعض اعتمد على هذه الرواية وذكر أن الخزر قدموا مساعدتهم الأولى للإمبراطور الروماني جوليان سنة ٣٦٣م^(١٧) على أن المؤرخ المحدث دنلوب^(١٨) يعتبر هذه الرواية نوعا من الخطأ ولا يقبلها، ويبدو أنه اعتمد على ما جاء في المصادر البيزنطية فيما يتعلق بشعب الخزر، فالمصادر البيزنطية لم تذكر الخزر

(15) Moses Khorenots: History of the Armenians. (London, 1978), p.211.
Klaproth (M): Meomorie sur les Khazar in Journal Asiatique. (1823), T. 3, pp.. 153-154.
Dunlop : op. Cit., pp. 8-9.

(16) تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص ٥٨.

ابن كثير : الكامل في التاريخ، ج١، ص ٢٣٠.

(17) Rosenthal: Art. Chazar, in Jewish Ency., Vol. Iv, p. 1.

(18) Op. Cit., p. 18.

بشكل صريح إلا في القرن السابع الميلادي، حينما التحقوا بقوات الإمبراطور هرقل سنة ٦٢٢م في حروبه ضد الفرس ومساعدته بقواتهم في حصار تفليس، فالمؤرخ اليوناني ثيوفانيس^(١٩) Theophanis يتحدث عن الخزر بقوله: "أولئك الأتراك القادمون من الشرق الذين يدعون الخزر" ومع ذلك فإن لفظ الأتراك يأتي لدى غيره من الكتاب الإغريق دون تحديد أو خاصية.

والحقيقة أن الخزر كونهم ساعدوا الإمبراطور هرقل ولم يذكروا بشكل صريح في المصادر البيزنطية إلا في القرن السابع، فإن ذلك لا ينفي مساعدتهم لجوليان ربما ذكروا في تلك المصادر بأسماء غير الشكل الذي نعرفه، كما تقدم من أن الخزر عرفوا بمسميات شتى، وعلى ذلك يمكن القول أنه لم يكن للخزر شأن ولم يدخلو دائرة الضوء التاريخي على عهد الإمبراطور جوليان إلا أن في صورة جنود مرتقة.

وهناك اتجاه لربط الخزر بالهون Huns، والمعروف أن الهون شعوب تركية مغولية سماهم الصينيون هيونج - نو Hioung - nou وقد أطلق الرومان والهنود فيما بعد عليهم الهون أو الهوني Hunni والهونا Huna^(٢٠) وقد نجح الهون في تأسيس إمبراطورية لم تعيش طويلا شمال الصين وقد شقت قبائل الهون أواخر القرن الرابع الميلادي طريقها إلى سهول روسيا الجنوبية (شمال البحر الأسود) عندما دفعتها من وراء تحركات غامضة قامت بها قبائل الأورال - الطائية في وسط آسيا، ربما بسبب، زيادة أعدادها زيادة هائلة أو نشوب صراع وحروب بينها أو تغيرات مناخية أثرت تأثيرا بالغيا على حياة الهون الرعوية، ونجح الهون في تكوين

(19) Chronographia, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (1839), Vol. I, p. 485.

Klaproth : op. Cit., T. 3, p. 155.

Art., Khazar., in Ency., Judica., Vol. x, p. 944.

(20) Grousset (R) : L'Empire Des Stepps. (Paris, 1948), p.53.

Halphen (L) : Les Barbares. (paris, 1936), p. 11.

إمبراطورية ضخمة جعلوا مقرها في سهل هنغاريا (المجر)، وبلغت هذه الامبراطورية أوج عظمتها عندما توحدت تحت زعامة آتिला Attila الذي ورث الحكم سنة ٤٣٣م، وقد وقع تحت سيطرة الهون الشعوب الجرمانية التي عجزت عن الوقوف أمام زحفهم العاصف وعنهما الجيبيداي Gipidae والآلان Alans والقوط والصقالبة وغيرهم^(٢٢).

وكان آتिला ملكهم قد استقبل سنة ٤٤٨م سفارة من الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠م) Theodosius II الذي كان يرأسها بريسكوس Priscus^(٢٣)، وتحدث بريسكوس عن شعب خاضع للهون ويقطن سكيثيا Scythia تجاه بونتس Pontus (البحر الأسود) ويدعى أكاتزير Akatzir^(٢٤) ومن جهة أخرى فإن الأصطخري^(٢٥) تحدث عن الخزر وذكر أنهم "صنفان: صنف يسمون قراخزر، وهم سمر يضربون - لشدة السمرة - إلى السواد كأنهم صنف من الهند، وصنف بيض ظاهرو الحسن والجمال". إلا أنه لم يخص الصنف الثاني باسم كما فعل في الصنف الأول، مما دفع بعض المحدثين إلى اعتبار أن الشعب الذي ذكره بريسكوس وهو أكاتزير الخاضع للهون هم نفس الصنف الثاني أقخزر الذي ذكرهم الأصطخري أي البيض ظاهرو الحسن والجمال، وقد لاقى هذا التفسير قبولا واسعا في كتابات المؤرخين المحدثين وإن كان قد قوبل بالرفض من فريق آخر على أساس أن هناك استحالة من الناحية اللغوية^(٢٦).

(٢١) محمود الخويري: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ١٠٧-١٠٨.

(22) Bernad (P.): A. History of Russia. (London, 1962), p. 37.

(23) Dunlop : op. cit., p.7.

Art. Khazar., in Ency. Judica., Vol. x, p. 944.

(٢٤) المسالك والممالك، ص ١٣١.

Klaproth : op. cit., T. 3, p. 158.

(25) Dunlop : op. cit., p.7.

Pritsak (O) : Art. Khazar., in Dictionary of the Middel Ages. (New York. 1986), Vol. 7, p. 240.

وعن الأكاتزير والدى يطابق الى حد كبير أقخرر او الخزر البيص يخبرنا بريسكوس أنه كان خاضعا تحت سيطرة الهون وحاول الإمبراطور البيزنطى ثيودوسيوس أن يكسب هذا الشعب الى جانبه عن طريق تقديم رشوه. لكن رئيس الأكاتزير (الخزر) الجشع ويدعى كاريدياك اعتبر تقديم الرشوة له غير وافية فوقف بجانب الهون. كما أن آتيلا هزم المنافس الرئيسى لكاريدياك ونصه الحاكم الأوحده على شعبه^(٢٦).

وعلى أى حال فإن الشىء الذى أكدته المؤرخون أن الخزر تبعوا رايات آتيلا وكانوا يدفعون له الجزية سنة ٤٣١م، كما أنهم حاربوا فى سنة ٤٥٢م فى أقاليم كاتالونا Catalanian تحت راية الهون السود والآلان^(٢٧) على أن الهون ظلوا فيما بعد على المسرح الأوروبى ثمانين عاما فقط، فى حين أن الخزر كانوا فى طريقهم إلى التماسك والانتعاش. وفى أعقاب انهيار إمبراطورية الهون بعد وفاة آتيلا سنة ٤٥٢م حدث فراغ فى شرق أوروبا وتدفقت مرة أخرى موجات متلاحقة من حشود البرابرة قادمة من الشرق إلى الغرب، ومن أبرز هذه الحشود الأويغور والأفار وفى الغالب كان الخزر فى تلك الحقبة ينعمون بالإغارة على إقليمى جورجيا وأرمينيا الغنيين وممرات القوقاز^(٢٨).

وتفويض المصادر العربية والفارسية أيضا بالحديث عن علاقة الخزر بالفرس قبيل الإسلام، حيث أنه إبان حكم كسرى الفرس قباد بن فيروز سنة (٤٨٨-٥٣١م) خرجت قبائل الخزر فأغارت على بلاده حتى بلغت الدينور، وبذلك بدأ صدامهم مع الفرس، فأرسل إليهم قائدا من خيرة قواده على رأس جيش بلغ مقداره اثنى عشر

(26) Koestler : op. Cit., pp. 22-23.

(27) Rosenthal op. Cit., in Jewish Ency., Vol. Iv, p.1.

Klaproth op. Cit., T 3., p. 154.

Cole Art. Khazar, in the American People Ency., Vol. XI, p.

111

(28) Koestler op. Cit., pp. 23

ألف مقاتل فوطىء بلاد أران^(٢٩)، وفتح ما بين الشروان^(٣٠)، ونهر الرس^(٣١). ثم أن قباد قد قام بنفسه بحمله على قبائل الخزر البربرية التى كانت كثيرا ما تجتاح المنطقة الواقعة بين القوقاز ووادى كر، وتمكن من هزيمتهم بسهولة فى أول صدام بينه وبينهم وقتل عدد كبير منهم واستولى على غنائم هائلة^(٣٢). ولا شك أن الخزر آنذاك سببوا للفرس قلقا عظيما حتى أن قباد أهتم بتحسين حدوده الشمالية فأقام حائطا دفاعيا وعدة قلاع قوية محصنة^(٣٣) ليقى نفسه من شر غزوات الخزر وغيرهم، الأمر الذى يدل على أن العلاقات بين الفرس والخزر على عهد قباد كانت عدائية.

ولم تكن العلاقات بين الفرس والخزر على عهد خليفته كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م) بأحسن حال، إذ تجددت الحروب مرة أخرى وقام أنوشروان بحملة عليهم، فقتل منهم وغنم^(٣٤). ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فيبدو أن أنوشروان كان

(٢٩) أران : أران والران واحد، وهى ولاية واسعة من نواحي أرمينية.

انظر : ياقوت: معجم البلدان، ح-٤، ص ٢١٣.

(٣٠) شروان : مدينة من نواحي باب الأبواب الذى تسميه الفرس الدربند.

انظر : ياقوت: معجم البلدان، ح-٥، ص ٢٥٨.

(٣١) البلاذى : فوح البلدان، ١٩٨.

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ح ١، ص ٢٤٢.

الرس : بين أذربيجان وأران فخر يقال له الرس.

انظر : ياقوت: معجم البلدان، ح-١، ص ١٧٠.

(٣٢) Sykes (p.): History of Persia (London, 1921), Vol, 1, p.441.
Klaproth : op. Cit., T.3, p. 154.

(٣٣) البلاذرى : فوح البلدان، ص ١٩٨.

ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص ٣٨٧.

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ح-١، ص ٢٤٢.

زبيدة عطا : الترك فى العصور الوسطى، ص ١٣.

(٣٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، ح-٢، ص ١٠٣.

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ح-١، ص ٢٥٨.

قلقا بشأن المحافظة على الثغور الفارسية التي تحيط بها شعوب شتى تبادل الفرس العداء، ويدل على ذلك ما ذكره المؤرخون المسلمون في قصة بناء أنوشروان لباب الأبواب (الدربند)، ذلك أن قبائل الخزر كانت كثيرا ما تحتاج الأراضي الفارسية، وحينما تولى أنوشروان عرش كسرى خاف عادية الخزر، فأرسل إلى ملكهم يعقد معه الصلح، فخطب إليه ابنته على أن يزوجه إياها ويعطيه هو أيضا ابنته ويكون أمرهما واحدا بهذه المصاهرة ويتفرغا لأعدائهما، فلما أجابه إلى ذلك بعث إليه أنوشروان جارية من جواريه، كانت في قصره على أنها ابنته وحمل معها ما يحمل مع بنات الملوك وأهدى خاقان الخزر إلى أنوشروان ابنته، وبعد ذلك، التقى الاثنان بناء على رغبة أنوشروان لتوطيد المودة في موضع يعرف بالبرشلية، وأظهر كل واحد منهما تجاه الآخر بره وكرمه^(٣٥).

وتضيف المصادر أن أنوشروان أمر جماعة من عسكره بشن هجوما على طرف من عسكر الخزر، بغرض إحراقه وتخريبه والعودة في الخفاء. ولما حدث ذلك شكى خاقان الخزر لأنوشروان مما فعل جنده. ولكن أنوشروان لم ينكر ما فعله عسكره فحسب بل عاد لتكرار هذا الفعل ثلاث مرات وفي كل مرة يقدم اعتذاره للخاقان، فلما ضجر الخاقان أمر جنده بمثل ما أمر به أنوشروان، فلما فعلوا أرسل إليه أنوشروان قائلا: "كاد أصحابك يذهبون بعسكري وقد كافأني بالظنة فحلف أنه لم يعلم بشيء مما كان سببا فقال أنوشروان: يا أخى جندنا وجندك قد كرهوا صلحنا

= ابن الوردي : تمية المختصر، حـ ١، ص ٧١.

Sykes : op. Cit., Vol. I, p. 455.

Shater (E.Y) : Art. Khosrow I 531 –579, in the Ency. Of World Biography (1973), Vol. 6, p. 191.

(٣٥) البلاذري : فوح البلدان، ص ١٩٨ – ١٩٩.

ابن خرد اذبه : المسالك والممالك، ص ٣٦٠.

القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٠٣.

لأنقطاع ما قطع عنهم من النيل في الغارات والحروب التي كانت تكون بيننا ولا آمن أن يحدثوا أحداثا يفسد قلوبنا بعد تصافينا وتخالصنا حتى نعود إلى العداوة بعد الصهر والمودة، والرأى أن تأذن لي في بناء حائط يكون بيني وبينك ونجعل عليه بابا فلا يدخل إليك من عندنا وإلينا من عندك إلا من أردت وأردنا فأجابه إلى ذلك^(٣٦). وشرع أنوشروان في بناء ما عرف بباب الأبواب وهو عبارة عن سور حاجز على الخليج الفارسي، ولقد تناولت معظم المصادر المتاحة بين أيدينا وصفا لهذا الباب^(٣٧) ومما يلفت النظر في هذه الرواية أن بعض المؤرخين يذكرون الترك دون تحديد أو خاصة، فعلى سبيل المثال ذكر البلاذري وابن الأثير أن ما حدث كان مع الترك ولم يكن مع الخزر، وبعبارة أخرى كان المؤرخون يخلطون بين الترك والخزر ويجمعون بينهم.

ويبدو أن السلام خيم على الطرفين فقد كان يحضر بباب شروان وفود من الترك والصين والخزر ونظرائهم^(٣٨) والحقيقة كان لأنوشروان عادات وتقاليد وطباع تتصف بالعدل والرفقة وهو الذي أتم بناء حائط دربند الخزر التي شيدها سفنديار^(٣٩). ويبدو أنه كان للخزر شأن عظيم آنذاك، وذلك أنه من تقاليد بلاد أنوشروان أن يوضع على يمين عرشه كرسي من الذهب وعن يساره وخلفه كرسيان آخريان من

(٣٦) البلاذري : فتوح البلدان، ص ١٩٩.

ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٢٥٩-٢٦٠.

انظر : ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ١٢، ١١.

(٣٧) Barthold (v.) : four studies on the History of Centiral Asia. (1962), Vol. 3, p. 87.

Notices et Extrarits Des Manuscrits De la Bibliotheque De Roi (Paris, 1789) T.2, pp. 507-8.

زبيدة عطا : الترك في العصور الوسطى، ص ١٣

(٣٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ١٠٣.

(٣٩) حمد الله قزويني : تاريخ كذبيدة، ج ١، ص ١١٥

الذهب، فأحد هذه الكراسي الثلاثة كان يخص ملك الصين، والثاني يخص ملك الروم والثالث كان لملك الخزر، بحيث إذا قدموا إلى بلاط كسرى جلسوا على هذه الكراسي الثلاثة، وهذه الكراسي الثلاثة دائمة توضع طوال السنة، فلا ترفع ولا يجروا أحد على الجلوس عليها^(٤٠).

وعناك رواية أخرى قريبة الشبه من الرواية السابقة الخاصة بأنوشروان وملك الخزر، حيث يذكر المؤرخ اليوناني بريسكوس أن بيروز (Firuz) (٤٥٩-٤٨٤م) في وقت ما قبل سنة ٤٨٥م أرسل إلى كونخاد (Qun (Kounkas Khan) ملك هون الكيداراييت Kidarite Huns وذكر أنه يرغب في السلام والتحالف وأنه سوف يعطي الكيداراييت أخته لتتزوج من كونخاد، وأجابه إلى ذلك وأرسل إليه من فارس بدلا من أخته امرأة أخرى تمثل شخصيتها وعندما خيم السلام على الفريقين أقشمت هذه المرأة لملك الكيداراييت هذا التدليس مما جعله يصبر على الاستمرار في الزواج لكي يأخذ بثأره واستمال فيروز أن يرسل إليه عددا من رؤساء الفرس وكبرائهم، فلما وصلوا إليه قتل بعضهم، وأرسل البعض الآخر مشوهين إلى سيدهم^(٤١).

وهناك ما يشير إلى أن الخزر هم الهون البيض^(٤٢)، فقد أشار المؤرخ الشهير بيوري^(٤٣) في كتاباته التي تناولت الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلى أن الكيداراييت هم الهون الذين أقاموا في طريق القوقاز وهددوا ممر داريل Dariel مما دفع البعض إلى الميل بأن الخزر هم الكيداراييت^(٤٤).

(٤٠) ابن البلخي : فارسنامه، ص ٨٧.

(٤١) Dunlop : op. Cit., p. 19.

(٤٢) Cole : Art., Khazar, in the American People Ency., Vol. xi.

(٤٣) Bury (J. B.) : History of the later Roman Empire from the Death of Theodosios I to the Death of Justinian. (London, 1923), p. 7 n.5.

(٤٤) Dunlop : op. Cit., p. 19.

وإذا أجرينا مقارنة بما أوردته المصادر العربية وما أورده المؤرخ اليوناني بريسكوس نجد تشابها في الأحداث وإن اختلفت التفاصيل والمسميات، فقد ذكر مثلا هذا المؤرخ أن الفرس سنة ٤٦٥م أقاموا قلعة يورباخ Yuroeipakh في نهاية شرق القوقاز أمام الكيداراييت، وطالبوا الرومان بدفع عطايا مقابل هذه الحماية، وفي موضع آخر ذكر هذا المؤرخ أن سفارة فارسية زارت سنة ٤٧٢م القسطنطينية وأعلنت انتصارها على الكيداراييت واستيلائهم على مدينة بلعم Balaam الكائنة شمال القوقاز^(٤٥) ومن الجائز أن تكون هذه الدفاعات هي نفس الدفاعات التي اهتم بها الفرس وأقاموها أمام الخزر.

ويميل أحد المؤرخين المحدثين إلى الأخذ بأن الرواية التي أوردها بريسكوس هي نفس الرواية التي طالعناها في المصادر العربية على أساس أنها حدثت في عهد فيروز (٤٥٩-٤٨٤م) وتحولت إلى أنوشروان لأنه تزوج بنت خاقان الأتراك الغربيين سنجبو^(٤٦).

على أن ما يؤكد أن العلاقات بين الفرس والخزر على عهد كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م) كانت عدائية في فترات كثيرة، ما أشار إليه الطبري^(٤٧) من أن شعوبا عديدة من بينها أبخز وبنجر وبلنجر^(٤٨) وآلان^(٤٩) قد اتفقوا على غزو بلاد كسرى "وكان طريقهم سهلا ممكنا" هذا ولم يهتم كسرى بغزوات تلك الشعوب في أول الأمر، مما

(٤٥) Ibid, pp. 19-20.

(٤٦) Ibid, pp. 24.

(٤٧) تاريخ الرسل والملوك، ح-٢، ص ١٠٠.

(٤٨) بلنجر : مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب.

ياقوت : معجم البلدان، ح-٢، ص ٢٧٨.

(٤٩) آلان : بلاد واسعة في طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورة للخزر.

ياقوت : معجم البلدان، ح-٧، ص ٣١٦.

جعلهم يتوغلون في بلاده، وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد وجه إليهم جيشاً ألحق بهم الهزيمة وتمكن من أسر عشرة آلاف فأسكنهم أذربيجان وما والاها.

والحقيقة أن الطبرى لم يأت على ذكر الخزر في روايته السابقة إلا أن ما يؤكد اشتراكهم في غزوات تلك الشعوب ما ذكره المسعودى^(٥٠) من أن بلنجر هي العاصمة الأولى للخزر.

على أن الصراع الدائم بين الفرس والبيزنطيين خاصة حول منطقة لازيقا الاستراتيجية قد أجهد الإمبراطورية البيزنطية، حتى أن الإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م) عقد مع الفرس معاهدة سلم كان من بنودها ألا يسمح الفرس لقبائل الهون والآلان وغيرهم من التوغل في الإمبراطورية الرومانية خلال ممرات الخزر^(٥١) الأمر الذى يدل على أن الفرس فى ذلك الوقت كانت يدهم السيطرة على تلك الممرات الخزرية.

على أن الخزر قبل أن يصبحوا دولة ذات شأن كانوا يدينون بالولاء والتبعية لدولة قصيرة العمر عرفت باسم إمبراطورية الأتراك الغربيين كانت هذه الإمبراطورية حلقة من مجموعة من القبائل يتولى أمره حاكم هو الخاقان. وهو اللقب الذى خلعه الخزر على أنفسهم فيما بعد^(٥٢).

(٥٠) التنبه والأشراف، ص ٦٣.

(٥١) عبد القادر أحمد اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، ص ٦٤.

(٥٢) Koestler : op. Cit., 24.

Chavannes (E.) : Documents Sur Les tou-Kiue (Turcs) Occidentaux (st. Petersburg, 1903).

Barthold & Golden : Art., Khazar, in Ency. Of Islam.

Obolensky (D) : The Byzantine Commonwealth (London, 1971), p. 172.

Wren (M. C.) : The Course of Russian History, (New York, 1958).

وعن المعروف أن كلمة ترك "وردت أول ما وردت في القرن السادس الميلادي على شعب من البدو وأقام دولة بدوية قوية في خلال هذا القرن^(٥٣) وقد ظهر الأتراك في التاريخ الفارسي في منتصف القرن السادس الميلادي، حيث انقسموا إلى فرعين غربي وشرقي، وقد امتلك الأتراك الغربيون المناطق الشمالية الممتدة من منغوليا إلى جبال أورال وبسطوا سيادتهم من جبال الألتاي Altai إلى سيرداريا Sirdaria، وكان أول خاقان لهم تومين Tumen^(٥٤).

وكانت هذه الإمبراطورية حلقة الوصل بين بيزنطة والصين^(٥٥) حيث وردت كلمة ترك بالصينية (توكيو)^(٥٦) وقد تمكن الأتراك الغربيون من إخضاع الآفار^(٥٧) (Huann – Juan – Var – Hun)^(٥٨).

(53) Barthold : Art. Turkes, in Ency. Of Islam, Vol. vi.

(54) Sykes : op. Cit., Vol. I, p. 454.

Chavannes : op. Cit., p. 47.

Grousset : op. Cit., p. 126.

Setton (M.K) : A History of the Grusades, (Philadlphia, 1955), Vol. I, p. 136.

Walsh (W.B) : Russia and the Soviet Union, (New York, 1958), p. 17.

(55) Setton : op. Cit., Vol. I, p. 136.

(56) Barthold : Art. Turks, in Ency. Of Islam.

(٥٧) الآفار : في منتصف القرن السادس الميلادي استطاع الآفار تكوين إمبراطورية ضخمة في

شرق أوروبا وتمكنوا من مد نشاطهم حتى الألب، وتقدموا إلى الدانوب، وأقاموا في بنونيا

Pannonie، كما امتد نفوذهم إلى الديبير وإلى بحر البلطيق، ويرى جروسية : أننا يجب أن

نميز بين الآفار الحقيقيين Les Varais Avar وبين من أطلق عليهم خطأ بالآفار، فالآفار

الحقيقيون ينحدرون من سلالة المغول، ونتجوا عن تفكك إمبراطورية المغول في القرن الخامس.

وقد ظنوا سادة منغوليا خلال هذا القرن قبل أن يدمرهم الترك سنة ٥٥٢م أما الآفار المزيفون

Fau x-Avar (Pseudavr)؛ فيكونون من قبيلتين إحدهما تمثل آفار أوروبا وهم من

المغول والآخرى يعتقد أنها تنحدر من الترك الشرقيين.

Grousset : op. Cit., pp. 226-232.

انظر :

(58) Barthold (W.) & Gloden (P.B.) : Art. Khazar in Ency. Of Islam, Vol. iv.

وعلى اية حال فقد اشترك الخزر مع الأتراك الغربيين فى هجومهم على
الفرس الساسانيين^(٥٩). خاصة على عهد كسرى أنوشروان حين استعان بهم سيجيور
(سنبو) خاقان الأتراك الغربيين هم وبعض الأمم القاطنة فى القوقاز^(٦٠).

وعلى عهد كسرى الفرس هورمزد (٥٢٩ - ٥٩٠م) تجدد القتال بين الأتراك
الغربيين والفرس وكان هورمزد قد حارب سنبو خاقان الأتراك الغربيين الذى مات
سنة ٥٧٥م^(٦١). وخرج خاقانهم فى ذلك الوقت وكان يدعى شابه فى هجوم كبير
على الأراضى الفارسية وزا من ذلك خروج ملك الخزر فى جيش عظيم فحرب ودمر
عند باب الأبواب، كما أغار الإمبراطور البيزنطى على الأراضى الفارسية^(٦٢).

والواقع أنه كان ثمة تقاربا بين الإمبراطورية البيزنطية والتوك بما فيهم
الخزر لأن العدو التقليدى لبيزنطة آنذاك هو الفرس فى الوقت الذى أصبح الفرس
العدو الأول للتوسع التركى ومن هنا كان من الطبيعى أن يتحد الجانبان -
البيزنطى والخزرى - ضد العدو المشترك.

ومما يؤكد التعاون بين البيزنطيين والترك تبادل البعثات بينهم بهدف القيام
بحملات مشتركة ضد الفرس الساسانيين^(٦٣).

(59) Chavannes : op. Cit., p. 226.

(٦٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، ج-٢، ص ١٠٠.

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج-١، ص ٢٥٧.

Art. Khazar, in Ency. Judaicac, Vol. x, p. 944.

(61) Chavannes : op. Cit., p. 242.

(٦٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، ج-٢، ص ١٧٤.

ابن الأثير : الكامل فى تاريخ، ج-١، ص ٢٧٧.

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج-٢، ص ٣٦١.

(٦٣) Barthold, Art. Turkes, in Ency. of Islam, Vol. iv.

زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٤-١٥.

وتشير الروايات إلى أن الخزر قد دأبوا على شن الغارات على بلاد أرمينيا التابعة للفرس. خاصة في عهد الملك الفارسي هورمزد^(٦٤) الأمر الذي سبب قلقا وانزعاجا للفرس ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أخضع الخزر بلاد أرمينيا لنفوذهم وعينوا عليها نائبا لخاقان الخزر في ذلك الوقت يدعى يزيد بلاش^(٦٥).

ولكن إمبراطورية الأتراك الغربيين لم تدم طويلا كما سبق أن ذكرنا، إذ استمرت فقط قرن من الزمان وجاءت نهايتها على يد الصينيين في سنة ٦٥٩م^(٦٦)، والحقيقة أن الإمبراطورية التركية برغم قصر عمرها كانت من عوامل المدنية والاستقرار، والشعوب التركية أمثال الخزر استطاعوا أن يتلاءموا معها ويتقبلوا التقدم الحضارى^(٦٧) وسنرى في علاقة الإمبراطورية البيزنطية بالخزر كيف كانوا تحت سيادة الأتراك الغربيين أسما وكانوا هم القوة الفعالة.

ونطالع الخزر عند المؤرخين السريان الذين يشيرون برواية قوامها أن إبان حكم الإمبراطور البيزنطى موريس Maurice (٥٨٢ - ٦٠٢م) ثلاثة إخوة تقدموا من داخل سكيثيا Scythia إلى ناحية الغرب وكانوا على رأس ثلاثين ألف رجل تقريبا وعندما وصلوا إلى تخوم بيزنطة عبر أحدهم وهو بولجار يورس Bulgarios (ذكره ابن العبرى Bulgaris) نهر الدون واستقر داخل حدود الإمبراطورية البيزنطية، أما الأخوان الآخرون فقد احتلوا أراضى شعب الآلان الذى كان يطلق عليه بارزاليا Barsalia وهؤلاء جميعا اتخذوا اسم الخزر من اسم أكبر هؤلاء الإخوة وهو خزريج

(64) Notices et Extraits Des manuscrits De La Bibliotheque Du Roi, T.2, p. 348.

(٦٥) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، ١، ص ١٨٧.

(66) Barthold & Golden : Art. Khazar, in Ency. of Islam, Vol. iv. Pritsak : op. Cit., Vol. 7.

(67) Runciman (S) : A history of the Crusades, (Cambridge, 1954), Vol. I, p.59.

Khazarig^(٣٨). ويورد يوحنا الإفسوسى Johon of Ephesus (ت ٥٨٦م) نفس هذه الرواية وإن صحت فهو مرجعها حيث أشار حوالى سنة ٥٨٥م إلى اسم بلغاريوز Bulgarioz وخزريج Khazerig اللذين انحدرتا من صلبهما البلغار والخزر على أنهما أخوان^(٣٩). والحقيقة أن هذه الرواية أشارت إلى قرابة شعبى الخزر والبلغار والتحالف الوثيق بينهما.

ويذكر المؤرخ اليونانى ثيوفيلاكس Theophylact (ت ٦٢٠م) أن سفارة من الأتراك الغربيين قد وصلت إلى الإمبراطور موريس فى سنة ٥٩٨م حيث يصف هذا المؤرخ كيف أنه فى السنوات الماضية أطاح الأتراك بالهون البيض (Hephthalites) والآفار والأيجوريين Uigurs الذين كانوا يقطنون تيل Til^(٤٠)، والذي أطلق عليه الأتراك النهر الأسود^(٤١).

(68) Michel Le Syrien : Chronique, (Paris, 1904), T. II, p. 364.

Bar Hebraus : The Chronography, (London, 1932), p. 32.

(69) Barthold : Art., Bulghar, in Ency. of Islam, Vol. i.

(٧٠) تيل : أو أتيل عاصمة الخزر وكانت كائنة على بعد ٨ أميال من استراخان الحالية وعلى يمين بانكوف Bankof على نهر القولجا وهذا النهر كان يطلق عليه أيضا اتل أو اتيل ومعنى هذه الكلمة فى لغة القوط (الأب) ومعناها فى لغة Turanian (النهر) ولا نعرف عن هذين الاسمين جاء اسم هذا النهر.

انظر :

Rosenthal, Art., Chazar, in the Jewish Ency., Vol. iv The Time Atlas of World History, p.108.

وقد وصفت كثير من المصادر الإسلامية مدينة اتل.

انظر : الإصطخرى : المسالك والممالك، ص ١٢٩.

ياقوت : معجم البلدان، ح ١، ص ١٠٣.

(71) Dunlop : op. Cit., p. 5.

Chavannes : op. Cit., pp. 246-8.

ومن المعروف أن الخزر أطلق عليهم الهون البيض^(٧٢). مما يولد اتجاهها إلى اعتبار أن الهون البيض الذين ورد ذكرهم في هذه الرواية هم الخزر، فضلاً عن ذلك أن الخزر كانت عاصمتهم اتل والتي سوف يقابلها المسلمون في فتوحاتهم. ويمضى ثيوفيلاكس في روايته ويذكر أنه في وقت السفارة التركية سنة ٩٨٥م حدثت هجرة جديدة من أواسط آسيا إلى أوروبا، كان قوام هذه الهجرة قبائل التارنياج Tarniakh والكوتزاجرز Kotzagers والزبندر Zabender^(٧٣) وبمقارنة هذا الرواية اليونانية وبما ذكرته المصادر السريانية نخلص إلى أن هجرة القبائل التي ذكرها ثيوفيلاكس لابد وأن تكون نفس الهجرة التي ذكرتها المصادر السريانية عن الإخوة الثلاثة الذين تقدموا من داخل سكثيا واستقروا داخل حدود الإمبراطورية البيزنطية إبان عهد الإمبراطور موريس والذين اتخذوا في النهاية اسم الخزر من أكبر هؤلاء الإخوة خزريج الذي هو عند ثيوفيلاكس في الرواية اليونانية كوتزاجرز، كما أن هناك اتجاهها إلى أن المدينة الخزرية سمندر^(٧٤) اقتبست اسمها وأصلها من الزبندر.

على أن المؤرخ المحدث دنلوب^(٧٥) يقرر بناء على الروايات السابقة أن الخزر الذين كان لهم شأن فيما بعد هم قوم من الأتراك قدموا من أواسط آسيا إلى أوروبا خلال حكم الإمبراطور موريس - أي في القرن السادس الميلادي. والحقيقة أن المادة المعروفة عن هذا الموضوع تبرز أن الخزر كانوا يعيشون في ضواحي أوروبا قبيل القرن السادس وعرفوا بمسميات مختلفة، ولم يستقر اسمهم

(72) Cole : op. Cit., Vol.xi.

(73) Dunlop : op. Cit., p.5.

(74) سمندر : للخزر مدينة تسمى سمندر فيما بين باب الأبواب، انظر ابن حوقل : صورة لأرض،

ص ٣٩٣، وكانت سمندر دار مملكة الخزر، انظر: ياقوت: معجم البلدان، ح ٥، ص ١٣٠.

(75) The Hist. Of the Jewish Khazars, p. 6.

عند المؤرخين إلا بعد توحيدهم واستقرارهم. ومن المحتمل أن هذه الأسماء كانت لقبائل وشعوب استوعبتها مملكة الخزر بعد قيامها.

ويمكن اعتبار القرن السابع هو نقطة البداية الحقيقية للخزر لكي يقوموا بممارسة دورهم على مسرح الأحداث، حيث استقلوا استقلالاً تاماً بعد أن سقطت إمبراطورية الأتراك الغربيين، كما بدأت علاقتهم بشكل كبير مع البيزنطيين والمسلمين.

وسوف تستفيد الإمبراطورية البيزنطية من الخزر في تلك المناطق التي هاشوا فيها. حيث كانوا يشكلون قوة ودولة منظمة تمارس نوعاً من السيادة على الشعوب البربرية المحيطة بها، وقد امتدت دولة الخزر من القوقاز ناحية الشمال إلى الفولجا وبعيدا إلى مصبات هذا النهر، ونهر الدون، ووصل امتدادها أيضا ناحية الغرب على شواطئ الدنيبير⁽⁷⁶⁾ واستقرار الخزر على الفولجا جعلهم لثلاث قرون المفتاح لسياسات بيزنطة تجاه الإستبس، مما كان على بيزنطة أن تحافظ على وجود علاقات طيبة معهم⁽⁷⁷⁾.

ولقد كان الخزر يتحكمون ويجمعون الجزية من العديد من الأمم والقبائل التي تعيش في الأقاليم الممتدة بين القوقاز وجمال أورال ومدينة كييف وسهول أوكرانيا. ففي المراسلات التي دارت بين الخزر والأندلس في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٩١١-٩٦١ م / ٣٠٠-٣٥٠ هـ) أجاب الملك يوسف ملك الخزر في رده على رسالة حسداى عن حجم مملكة الخزر وطبيعة أرضها وتحدث عن القبائل والأقطار التي كانت تدفع الجزية⁽⁷⁸⁾. ومما يذكر أن يوسف كان يجمع الجزية من

(76) Bury (J. B.) : A History of the Eastern Roman Empire (London, 1912), p. 404.

Rosenthal : op. Cit., in Jewish Ency. vol. iv., p. 1.

(77) Miller (D. A.) : The Byzantin tradition ., p.12.

(78) The Answer of Joseph king of the Togami to Chisdai., CF. : op. Cit., p. 34.

سبع وثلاثين أمة. على أن دنلوب^(٧٩) يعتبر ذلك مغالاة ويخلص إلى أن تسع أمم فقط كانت على ما يبدو قبائل تعيش في قلب الخزر، أما الثماني والعشرون الأخرى فتنتطبق على قول ابن فضلان^(٨٠) بأنه كان لملك الخزر خمس وعشرون زوجة كل منها ابنة ملك من الخاضعين.

والحقيقة أن الملك يوسف في رسالته لحسداى أعطى بيانا شاملا عن مملكته، منها أن البلاد التي كانت على طول نهر اتل (الفولجا) في رحلة تمتد إلى أربعة أشهر إلى الشرق كانت تدفع الجزية للخزر، وهذه البلاد والممالك هي Bulgar, Burtas, Suver, Arissu, Ventit, Tzarmis, Syever, Slavlyun ومن هنا يمتد خط التخوم Buarasm حتى Jord Jan وجميع السكان القاطنين على ساحل البحر لمسافة شهر كانت أيضا تدفع الجزية للخزر وإلى الجنوب على شاطئ البحر كانت Bak-Tadiu, Semender وبوابات باب الأبواب ومن هناك يمتد خط التخوم إلى جبال Bak-Bgola, Azur, Sridi, Kiton, Zunikh, Kladusser وهذه كلها كانت تقع على قمة مرتفعة جدا، ومن Alan لغاية تخوم Gebul, Taket, Kessa, Kalkial الغرب من Serkel كانت هذه التخوم Lambot, Aluss, Sugdai, Kertz, Samkrtz, Budik, Mamkup, Hut, Alubika, Bartinit, Grusin, Aloma وكل هذه الأماكن السابقة كانت تقع على شاطئ القسطنطينية (البحر السود). ثم يمتد خط التخوم إلى الشمال معترضا أرض Basar والتي تقع على نهر Vaghez وفي سهول هذا النهر كانت توجد قبائل عديدة حتى حدود Gagries وتقوم بدفع الجزية للخزر^(٨١).

(79) op. Cit., op. 141.

(٨٠) رسالة ابن فضلان، ص ١٧١ (بيروت، ١٩٨٧)
حققها وعلق عليها وقدم لها د. سامي الدحان.

(81) Rosenthal : Art. Chazar, in Jewish Ency., Vol. 4, p. 5.

وكانت مملكة الخزر تهيمن على العديد من الأمم والقبائل والشعوب البربرية الصاخبة في منطقة القوقاز، منها البلغار والمجيار (الهنگاريون) (Magyars Hungarians) كذلك سيطر الخزر على المستوطنات القوطية والإغريقية في القرم Grimea والقبائل الصقلية في الغابات الشمالية الغربية^(٨٢).

فالبلغار وقعوا تحت سيطرة الخزر سنة ٦٢٩م حين مدوا سيادتهم نحو الغرب إلى المنطقة الواقعة بين الدون والدينيبير حتى رأس مياة الدونيتز Donetz في إقليم ليبيديا Lebedia^(٨٣) وتفصيل وقوع البلغار تحت سيطرة الخزر طبقا لما أورده المؤرخ اليوناني ثيوفانيس من أن البلغار (أونوجور Onogundurs وهو اسم قديم للبلغار) نشأوا أقوياء في إقليم Kuban. وعند موت زعيمهم كوبرات Kubrat سنة ٦٥٠م ترك ميراثه لخمسة أولاد وأوصاهم بالتمسك بالوحدة والحفاظ على وحدة أمتهم، إلا أنهم لم يعملوا بهذه النصيحة، فقد قام الابن الأكبر باتباز Batbais بالبقاء في ميراثه وترك الآخرون أماكنهم حيث عبر الثاني وهو كوتراجوس Kotragus الدون واستقر في مواجهة باتباز وشغل الثالث وهو أسباروخ Asparukh الأراضي الواقعة غرب الدينيبير، وذهب الرابع والخامس بعيدا خلف الدانوب^(٨٤). وتقدم الخزر واستولوا على جميع الأقاليم حتى البحر الأسود، وفي هذا الصدد فقد وصفوا

(82) Koestler : op. Cit., p. 19.

Bury : op. Cit., p. 404.

Walsh op. Cit., p. 17.

Sumner (B. H.) : Survey of Russian History., (London, 1944), p. 35.

(83) Rosenthal : Art. Chazar in Jewish Ency., Vol. 4, p. 2.

Obolensky : op. Cit., p. 37.

Sinor : op. Cit., Vol. v. p. 788.

(84) Dunlop : op. Cit., p. 41.

Runciman (S.) : A history of the First Bulgarian Empier (London, 1930), pp. 16019.

Brehier (L.) : Vie et Mort de Byzance. (Paris, 1947), p. 64.

"بالأمة العظيمة من برزاليا Berzilia إلى سارماتيا Sarmatia الأدنى" (٨٥) وخضع جانب كبير من البلغار للخزر نظرا لتفككهم ومغادرة قبائل بلغارية عديدة موطنها الأولى، على أن أكبر الجموع التي ارتحلت هي التي كانت بزعامة أوسباروخ (أكبر هؤلاء الاخوة البلغار، حيث ارتحلت إلى الغرب، وفي العقد السابع ومن القرن السابع ظهرت هذه الجموع عند مصب نهر الدانوب) (٨٦) واستقر الوضع عند مطلع سنة ٦٧٩م، عندما ارتحل أسباروخ واستقر في بلغاريا الحالية (٨٧) الحقيقة أن وقوع البلغار تحت سيطرة الخزر في ذلك الوقت لم يمنعهم فيما بعد من أن يلعبوا دورا عظيما في عصر العلاقات البيزنطية الخزرية كما سنرى فيما بعد.

وبالرجوع إلى المراسلات التي دارت في القرن العاشر الميلادي بين حسداى ويوسف ملك الخزر نجد أن تقدم الخزر إلى مناطق البحر الأسود والقرم قد وضع في رد الملك يوسف حيث أشار قائلا: "كان آباؤنا قلة في العدد، لكن الإله منحهم القوة والحصانة حينما كانوا يظهرون شجاعة في الحروب ضد العديد من الأمم القوية مثل شعب الوندنر Wnnter الذي طردهم من أرضهم وتعبوهم بالقتال حتى النهر العظيم دونا Duna (الدانوب) حيث استقروا بالقرب من القسطنطينية، واستولى الخزر على أقاليمهم" (٨٨).

(85) Art. Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, pp. 944-5.
Dunlop : op. Cit., p. 41-42.

(86) Ostrogrsky (G.) : History of the Byzantine State. (Oxford, 1957), p. 23.
Miller : op. Cit., p. 12.

السيد الباز العربي : الدولة البيزنطية، ص ١٥٢.

حسين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٩٢.

(87) Hudud Al Alam. (The Region of World),
Apersian geography : p. 163.

Bernard : op. Cit., p. 37.

Barthold & Golden : op. Cit, Vol. iv, p. 1173.

(88) The Answer of Joseph., C. F. Adler : op. Cit., p. 34.

=

وقد جاء ذكر شعب الوندندر Vnndr فى المخطوطة الفارسية "حدود العالم" حيث كان يعيش فى المنطقة الواقعة شمال الخزر، ووصف بالضعف والجبن والفقر وانعدام الثروات^(٨٩) كما جاء ذكر الوندندر عند ابن الأثير^(٩٠) وفى حوادث سنة ٢٢٣م (١٠٤هـ) باسم الوندندر. على أية حال فإن الذى يهمنى أن بعض المؤرخين يميلون إلى اعتبار شعب الوندندر هو نفسه شعب البلغار، إذ جاء ذكره بهذا الشكل فى المصادر العبرية ثم تحرف إلى الاسم القديم للبلغار وهو أونوجور Onogundur. ويرى بعض المؤرخين استنادا لما جاء فى المخطوطة الفارسية "حدود العالم" من أن شعب الوندندر هم بقية من البلغار^(٩١). والحقيقة أن العلاقة بين البلغار والخزر علاقة وثيقة حيث أنه من الثابت أنهم وفدوا على حوض الفولجا قبل أن تتكون إمبراطورية الأتراك المعروفة باسم (توكيو)^(٩٢).

ولقد اعتاد البيزنطيون على أن يستميلوا إلى جانبهم شعوبا ليوقفوا من زحف شعوب أخرى على أراضيهم، وقد ذكر المؤرخ والإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس^(٩٣) (٩١٣-٩٥٩م) فى كتابه الذى وضعه عن إدارة الإمبراطورية البيزنطية أنه يمكن للبلغاريا السوداء أن تهاجم الخزر لكبح جماحهم.

= Art. Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p. 945.

Dunlop : op. Cit., p. 42.

(89) Hudud Al Alam: p. 162

(٩٠) الكامل فى التاريخ، جـ ٢، ص ١٨٧.

(91) Dunlop : op. Cit., p. 43.

Art. Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p. 945.

(٩٢) بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ٢٦.

ترجمة : أحمد السعيد سليمان، راجعه إبراهيم صبرى.

(93) De Administrando Imperio, (Bonne, 1811), p. 81, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantine and trans, by Jenkins : p. 65.

والترجمة العربية، قسطنطين السابع بورفيرو جينيتوس إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ص

= ٦٥ - ترجمة : محمود سعيد عمران.

ومن العناصر التركية التى كان للخزر هيمنة عليهم الأتراك الغز الذين كانوا يؤدون الجزية للخزر وكانوا قريبى الشبه بهم^(٩٤)، وإن كان قسطنطين السابع عدوهم من الشعوب التى يمكن أن تصد وتهاجم الخزر إن لزم الأمر وذلك لمجاورة أراضيهم أراضي الخزر وكل ذلك أملا فى الحفاظ على أمن الإمبراطورية^(٩٥).

وهناك عنصر تركى آخر يدين بالتبعية للخزر هم البرطاس وهم أمة تعيش ملاصقة للخزر ويعيشون فى وادى اتل (القولجا) فى بيوت مصنوعة من الخشب^(٩٦) "والبرطاس أمة من الترك حاضرة داخلية فى جملة ممالك الخزر وهم كائنون على نهر معروف بهم اسمه برطاس"^(٩٧).

وأىضا من الشعوب التى كانت تسكن جبل القبق^(٩٨) شعب مملكة السريز وهى مملكة واسعة بين اللان وباب الأبواب^(٩٩) ويشير المسعودى^(١٠٠) إلى أن ملكها

= Runciman (S) : Byzantine Civilization, (London, 1933), p. 159.

^(٩٤) ابن فضلان : رسالة بين فضلان، ص ٩١-١٠٦.

Koestler : op. Cit., p. 37.

^(٩٥) Constantine Porphyrogentius : op. Cit., p. 80 in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae and trans. By Jenkins: pp. 63-65.

^(٩٦) الإصطخرى : المسالك والممالك، ص ١٣٠.

القزوينى / آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٧٩.

Macarthy (C.A) : The Magyars in The Ninth century (Cambridge, 1930), p. 25.

زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ٧-٨.

^(٩٧) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ح ١، ص ١٣٦.

Hudud Al Alam : p. 163.

Macarthy : op. Cit., p. 25.

^(٩٨) قبق : جبل متصل بباب الأبواب وبلاد اللان وهو آخر حدود أرمينية، انظر ياقوت : معجم

البلدان، ح ٧، ص ٢٧.

^(٩٩) ياقوت : معجم البلدان، ح ٥، ص ٨٠.

^(١٠٠) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ح ١، ص ١٤٤-١٤٥.

كان يدعى فيلان شاه ويدين بالنصارية وقد كان بينهم وبين الخزر علاقات عدائية حيث إن "ملكهم كان يغير على الخزر مستظفرا عليهم، لأنهم فى سهل وهو فى جبل". وهنا نلاحظ أن المصادر الإسلامية الأخرى لم تشر إلى غاراتهم على الخزر على الرغم من أنها أوردت أوصافا لهذا الشعب^(١٠١) على أننا نستطيع أن نستنتج من صمت المصادر التاريخية أن هذا الشعب خضع للخزر خصوصا إذا ما قورن بشعوب أقوى منهم قد دانت بالتبعية للخزر.

وعلى الرغم من أن شعب مملكة السريز قد ورد ذكره فى المخطوطة الفارسية "حدود العالم" ووصف بالغنى وسعة العيش^(١٠٢) إلا أن هذا الشعب لم يرد اسمه فى المصادر البيزنطية، ولم تذكر تلك المصادر شيئا بشأنه^(١٠٣).

ومن الشعوب القوقازية التى لعبت دورا فى مصير العلاقات البيزنطية الخزرية شعب مملكة الآلان (اللان) الذين كانوا يدينون بالمسيحية، وملكهم يدعى كركنداج، أما عاصمة بلادهم فكانت تسمى مغص^(١٠٤). وكان ملكهم فى وقت ما قبل القرن العاشر قد اعتنق المسيحية عن طريق القسطنطينية، وعلى الرغم من بقاء عدد كبير من شعبه على الوثنية فقد منحه الإمبراطور البيزنطى فى ذلك الوقت لقب رفيع فى بيزنطة وهو Exusiastes^(١٠٥) وقد جاء ذكر هذا الشعب فى المخطوطة الفارسية بصورة تفصيلية بعض الشيء عن موقعه وسكانه ومدنه^(١٠٦) وعلى الرغم من السيادة

(١٠١) الإصطخرى : المسالك والممالك، ص ١٣٠

ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ٢٥٤

(102) Hudud Al Alam : p. 161.

(103) Bury : op. Cit., p. 409.

(١٠٤) المسعودى مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ص ١٤٥

(105) Bury op. Cit., p. 409.

(106) Hudud Al Alam p. 161

الخرزية على هذا الشعب فى منطقة القوقاز إلا أنه كان من الشعوب التى يستعملها البيزنطيون لمهاجمة أرض الخزر إذا تمردوا على الإمبراطورية^(١٠٧).

ومن الشعوب التى خضعت للخزر وتعاهدت معهم المجر، وكان الخزر قد نصبوا عليهم ملكا أيضا من الخزر الذى شكل السلالة الملكية للمجر، وكان المجر يجبون الجزية من الصقالبة والفنيين لحساب الخزر^(١٠٨) حيث امتد حكم الخزر ناحية الغرب بعيدا خلف القرم والقوقاز والفلوجا، وهناك تقارير تفيد فى تاريخ غير محدد أن قبيلة البوليانز^(١٠٩) Polians كانت تدفع الجزية للخزر وهى عبارة عن سيف عن كل بيت، وأيضا قبائل السفيريانز Severians الصقلية والفياتشيانز^(١١٠) Viatchians، ثم استبدلت السيوف فيما بعد بخرية نقدية فالراد يمشيانز Radimichians وهم قبائل صقلية أدوا للخزر درهم عن كل فرد^(١١١) وكيف نفسها كانت مستعمرة من الخزر لبعض الوقت قبل سنة ٨٦٢م^(١١٢).

(١٠٧) يتر : الإمبراطورية البيزنطية، ص ٩٤.

ترجمة : حسين مؤنس، ومحمود يوسف زايد.

السيد الياز العربى : الدولة البيزنطية، ص ٢٩٩.

(108) Koestler : op. Cit., p. 98.

Sinor : op. Cit., Vol. v, p. 688.

Florinsky (M. T.) : Russia (New York, 1953), Vol. I, p. 5.

(١٠٩) البوليانز : قبيلة صقلية على نهر الدنيبر بالقرب من وسط كيف الحالية، انظر :

Mackenzie & Curran : A History of Russia and the Soviet Union (New York, 1982), p. 15.

(١١٠) الفياتشيانز : قبيلة صقلية كانت تعيش فى الإقليم الواقع جنوب موسكو الحالية. انظر :

Koestler : op. Cit., p. 118.

(111) Art. Khazar., in Ency. Judaica., Vol. x, p. 948.

Mackenzie & Curran : op. Cit., p. 18.

Brutzkus (J.) : The Khazar Origin of Ancient Kiev., in Slavonic and East European, Review (1944), Vol 22, p. 110.

Wren : op. Cit., p. 46.

(112) Art. Khazar., in Ency. Judaica., Vol. x, p. 948.

Brutzkus (J.) : op. Cit., pp. 108-24.

وفى القوقاز خضعت شعوب أخرى تحت سيادة الخزر مثل هون ورشان (ورثان)، وهم عناصر ترجع إلى أصل هونى فى الدربند، ويعتقد أنهم شكلوا جزءاً من اتحاد إمبراطورية الخزر، وقد كان أميرهم Alp Liuture ملازماً لخاقان الخزر^(١١٣).

ومن الشعوب التى كانت تعيش تحت سيادة الخزر البجناك^(١١٤) الذين كانوا يعيشون بين نهري الفولجا والأورال، وكان الخزر يغيرون عليهم كل عام لجباية الجزية منهم^(١١٥).

ولقد عرف البجناك فى المصادر البيزنطية باسم باتزيناك Patzinak أو باتزيناكوى Patzinakoi وفى المصادر اللاتينية باسم بيسينى Bissenى، وفى المصادر الهنغارية باسم بزنيو Besenyo، وقد شغل هذا الشعب التركى السهول الواقعة شمال البحر الأسود^(١١٦). وكثير ما أوقف الخزر البجناك عند حدهم^(١١٧) الأمر الذى كان يعد فى صالح الإمبراطورية البيزنطية.

(113) Art., Khazar., in Ency. Judaica., Vol. x, p. 944.
Barthold & Golden : op. Cit., Vol. iv., p. 1173.

(114) البجناك : قبيلة من الأتراك وأصلهم من تركستان الصينية وكانت مساكنهم فى الأورال بجوار الخزر، لمزيد من التفاصيل انظر:

Constantine Porphyrogenitus: op. Cit., pp. 50-58. Trans by Budge.
Hudud Al Alam : p. 160.

القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٨٠.

(115) ابن رسته : الأعلام النفيسة، ص ١٤٣.

(116) Art. Pecheneg, in Ency. Britt., Vol. 7, p. 826.

Buss : Art Pechengens, in Lexicon universal Ency. (New York, 1983),
vol. 15.

(117) بيتز : الإمبراطورية البيزنطية، ص ٩٣.

وهنا نود أن نعرض بعض ما أورده المؤرخون بشأن الخزر وأصلهم. وما التبس عليهم. فقد ذكر المسعودي^(١١٨) "أن الخزر يدعون بالتركية سبير"، وما يلفت النظر هنا أن هناك شعب يدعى سبير Sabir كان معاصرا للخزر وهو أحد الشعوب التي كانت تسكن وسط آسيا واضطروا للهجرة من موطنهم بسبب الهزيمة التي لحقت بهم على أيدي الآفار وهاجروا إلى سهول كوزاخ Kozakh حتى استقروا في سهول شمال القوقاز^(١١٩). ولقد ذكر المؤرخ بروكوبيوس Procopius على عهده في النصف الأول من القرن السادس الميلادي أن الآلان والأبخاز الذين كانوا يدينون بالمسيحية ويصادقون الرومان عاشوا في الأراضي الواقعة شمال القوقاز مع الجراكسة Zichs (Circassians) وخلف هؤلاء كان يعيش سبير الهون^(١٢٠). كما أشار إليهم جورداناس Jordanas على أنهم أحد أعظم فرعين من الهون^(١٢١) فهل تعتبر هؤلاء القوم هم الخزر؟.

لقد كان هؤلاء الهون السايبرية يسيطرون على أبواب قزوين التي كان أي غير شمالي يستطيع من خلالها أن يهدد كلا من فارس وبيزنطة، لذا نجد الإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م) قد عمل مرارا على السيطرة على لازيقا وعلى كثير من القبائل القوقازية الأخرى خاصة قبائل الأباجية Abasgi والهون السايبرية^(١٢٢). ولقد انقطع ذكر هؤلاء السايبرية بقيام إمبراطورية الأتراك، وبدوا أنهم كانوا خاضعين للأتراك أو الخزر، عندما قامت مملكة الخزر واتسع نفوذها استوعبت هذا الشعب.

(١١٨) التنبيه والأشراف، ص ٨٣.

Hudud Al Alam : p. 455.

(119) Barthold & Golden : op. Cit., Vol. iv, p1174.

(120) Dunlop : op. Cit., p. 26.

(121) Art., Khazar, in Ency. Judaica, Judaica, Vol. x, p. 944.

(122) موس : ميلاد العصور الوسطى، ص ٢٠٥-٢٠٦.

ترجمة : عبد العزيز جاويد، مراجعة : الباز العريبي.

وقد خلط بعض المؤرخين الخزر بشعوب أخرى، فالقلقشندى^(٢٢٣) على سبيل المثال يقول " أن الخزر هم التركمان"^(٢٢٤) وهم نوع من الترك"، مما دفعنا للاطلاع على كل ما يخص التركمان في موسوعته، ولم نجد صلة بين التركمان والخزر. والحقيقة أن ما ذكره القلقشندى بعيدا عن الصحة، فالخزر والتركمان ترك ولكن ليس الترك تركمان وخزر.

كما يذكر ابن العبري^(٢٢٥) "أن الكرج"^(٢٢٦) هم الخزر" والحقيقة أن هذا الرأي بعيد عن الصحة تماما وذلك أن الكرج شعب مستقل من الشعوب التي كانت تسكن جبال القبق.

أما الدمشقي^(٢٢٧) فقد وضع عبارة نحس منها بأنه يعي ما يؤرخه ويكتبه، ولكن بعد التثبت والتحقق نجد غير ذلك تماما فمثلا يقول: "إن ابن الأثير قال أن الخزر هم الكرج وليس بموافق بل هم الأرمن يدينون بالنصرانية" أراد أن يصحح ما التبس على غيره فوقع في مثله. والحقيقة أنه كثيرا ما تضطرب أقوال القدماء من مؤرخي وكتاب التاريخ حول هذه الشعوب وذلك لاعتبارين هامين أولهما، أنه ربما

^(٢٢٣) صبح الأعشى في صناعة الانشا، جـ ١، ص ٣٦٧.

^(٢٢٤) التركمان : أصلهم قبيلة من الأتراك، عاشوا في المنطقة الواقعة بين بحر الخزر وقر جيغون، ثم انتقلت جموع منهم غربا ليستقروا شرقي آسيا في قونية وقيصريه وسافوستا Savosta بالإضافة إلى شمال بلاد الشام وهم من العناصر البعيدة عن العنصر السامي. انظر: محمود الحويرى: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، ص ٢٦.

^(٢٢٥) تاريخ مختصر الدول، ص ٣٥٠.

^(٢٢٦) الكرج: جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون جبال القبق، انظر : ياقوت، معجم البلدان، جـ ٧، ص ٢٣٠.

^(٢٢٧) نخبه الدهر في عجائب البر والبحر: ص ٢٦٣.

مرجع ذلك إلى بعدهم عن تلك الديار ثانيهما، قرب هذه الشعوب بعضها البعض ومعاصرتها لبعضها البعض أيضا، في الوقت الذي يغلب على هذه الشعوب التنقل والترحال، الأمر الذي يشكل صعوبة في معرفة وتحديد أماكنها الأصلية.

ومما يجدر ذكره أن مملكة الخزر بلغت حدا من الاتساع والنفوذ حتى أنه أطلق على بحر قزوين البحر الخزري^(٢٢٨).

وهكذا نجح الخزر في الانتشار والتوسع حول منطقة البحر الأسود وبحر قزوين والقوقاز ليكونوا إمبراطورية مترامية الأطراف تقع بين الدولة الإسلامية شرقا والإمبراطورية البيزنطية غربا، وكان هذا الموقع الاستراتيجي المتميز قد سمح لمملكة الخزر أن تلعب دورا هاما على مسرح الأحداث في العصور الوسطى، وسنشهد ما كان لها من علاقات مع البيزنطيين والمسلمين في خلال مائتي السنة التالية، هذه الحقبة التي كانت تتراوح فيها بين النزاع المسلح ومعااهدات الصداقة.

(228) Allen (W. D.) : A History of the Georgian People (London, 1939), Vol. I, p.10.

Sykes : op. cit., Vol. I, p. 26.

Art., Bahr Al Khazar, in Ency. of Islam, Vol. I, p.931.

الفصل الثانى

مملكة الخزر

وعلاقتها بالبيزنطيين فى القرنين

السابع والثامن الميلادى

- علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد
الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م).

- علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد
الإمبراطور جستنيان الثانى (٦٨٥ - ٦٩٥، ٧٠٥ -
٧١١).

- علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد
الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ - ٧٤١ م).
- علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد
الإمبراطور ثيوفيلوس (٨٢٩ - ٨٤٢ م).

علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور هرقل :

رأينا في الفصل السابق كيف كانت علاقة الخزر المبكرة بالبيزنطيين، على الرغم من أن تلك العلاقات لم تأت بصورة صريحة في المصادر البيزنطية، والواقع أن البداية الحقيقية لتلك العلاقات كانت على عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) وذلك أن المصادر البيزنطية والأرمنية تحدثت عن بداية تلك العلاقات في عهد هذا الإمبراطور بإفاضة.

فقد تولى الإمبراطور هرقل عرش الإمبراطورية في الخامس من أكتوبر سنة ٦١٠م، بموافقة الشعب والسناتو، وتم تتويجه في كنيسة القديس استيفانوس St. Stephanos^(١) وكانت هناك تركة مثقلة بالمشاكل تنتظر حلولاً حاسمة، فقد تسلم هرقل الإمبراطورية وهي في حالة شديدة من الفوضى والاضطراب، فقد ساءت أحوال البلاد الاقتصادية والمالية كما أصاب الشلل الإدارة الحكومية. أما النظام الحربى الذى كانت تتبعه بيزنطة والقائم على الاعتماد على المأجورين أضحى عديم الفائدة، فضلاً عن ذلك، فإن الخزانة العامة قد خلت من الأموال ولم يعد في استطاعة الدولة أن تتخذ جنودها من مصادرها القديمة، فالأقاليم الكبيرة الواقعة في وسط الإمبراطورية تعرضت لغارات العدو، إذ أخذ الصقالبة والآفار يستقرون في شبه جزيرة البلقان، بينما صار الفرس يوطدون مراكزهم في قلب آسيا الصغرى. ولم يكن ثمة من وسيلة لإنقاذ الإمبراطورية إلا إذا جرى في داخلها حركة تجديدية ناشطة^(٢).

^(١)Theophanis : Chronographia, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Vol. I, p. 461.

Cedrenus (G) : Historiarum Compendium, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonnae; 1811), Vol. I, p. 713.

^(٢) السيد الياز العرينى : الدولة البيزنطية، ص ١١٦.

جوزيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٠٠.

وكانت المشكلة الرئيسية التي واجهت الإمبراطور هي الفرس العدو التقليدي للإمبراطورية البيزنطية الذين أخذوا في التوسع على حساب بيزنطة التي كانت في حالة تدهور وانحلال. حيث استولى هؤلاء على أنطاكية سنة ٦١١ م وعلى دمشق سنة ٦١٣ م، وأخذت الجيوش الفارسية تتقدم شمالا إلى قليقية فاستولت على حصن طرسوس وطردها البيزنطيون من أرمينيا، كما تمكن الفرس من الاستيلاء على بيت المقدس سنة ٦١٤ وأسروا زكريا بطريرك بيت المقدس، وكان لذلك رد فعل خطير في بيزنطة، لا سيما أن الصليب المقدس (صليب الصلبوت) قد حملة الفرس معهم ونقلوه إلى عاصمتهم طيسفون (المدائن) Ctesiphon، كما لم تنجو مصر التي كانت المركز الرئيسي الذي يمد الإمبراطورية بالقمح حينذاك، إذ سقطت في أيديهم سنة ٦١٦ م^(٣).

والحقيقة أن ضياع الصليب المقدس نشر الذعر والغضب واليأس في القسطنطينية بل إن البيزنطيين تخيلوا أن يوم القيامة على وشك الحلول، ويقال أن كسرى رغبة منه في إذلال هرقل وجه رسالة إليه وقد جاء فيها: "من كسرى أعظم الآلهة وسيد العالم كله إلى هرقل عبده الفاجر عديم الإحساس، ألم أقض على الإغريق؟ إنك تقول إنك تثق في إلهك، فلماذا إذن لم يخلص من يدي قيسارية وبيت المقدس والإسكندرية؟ وهل أنا لن أخرب القسطنطينية أيضا؟ على أنني سأعفو لك جميع ذنوبك إذا قدمت إلي ومعك زوجتك وأطفالك وسأمنحك الأراضي والكروم وعروش الزيتون وسأنظر إليك نظرة رحيمة، لا تغش نفسك بأملك الخائب في ذلك المسيح الذي لم يستطع حتى أن ينقذ نفسه من اليهود الذين قتلوه وصلبوه"^(٤). والحقيقة أن ضياع الصليب المقدس والألفاظ المفزعة المتهمة التي

^(٣) Ostrogorsky Hist Of the Byzantine state.. p. 85

Diehl (C) Histoire De l' Empire Byzantine (Paris, 1920) p 49

(Cambridge History of Iran, (Cambridge, 1983), Vol. 3.p.523.

^(٤) Oman (C W) The Byzantine Empire (New York, 1892), pp. 132 3

وجهها كسرى لهرقل، كانت بالنسبة للبيزنطيين بمثابة كارثة دينية أكبر منها حربية والصليب المقدس كان أثمن المقدسات الدينية عند المسيحيين.

ويبدو أن المسألة لم تكن مسألة أملاك ضائعة من الإمبراطورية فحسب بل أنها كانت بالفعل مسألة دينية حيث قضى هرقل الذى لم يستسلم لتلك الظروف اثنتى عشر سنة فى تنظيم الإدارة الحكومية ومراقبة حركات أعدائه. وفى هذه الأثناء حصل على الأموال اللازمة من الكنيسة التى قدمت كنوزها ونفائسها من ذهب وفضة لتصهر وتسبك نقودا لمواجهة نفقات الحرب وعندئذ تيسر للإمبراطور هرقل استئجار الجند اللازمين لحربه مع الفرس^(٥). ولا شك أن الكنيسة البيزنطية أسهمت بدور كبير فى تلك الفترة إذ جعلت كل ما لديها من ثروة تحت تصرف الحكومة التى خوت خزائنها من المال وكانت تلك من أكبر المشاكل التى واجهت هرقل فى إصلاحاته.

ولكى يأمن هرقل ظهره من جانب الآفار ابرم معهم معاهدة قبل شروعه فى قتال الفرس واشترى مسالمتهم مقابل مقدار كبير من المال وأن يقوم الإمبراطور هرقل بإرسال رهائن عنده لهم^(٦). وكانت خطة هرقل تهدف إلى استعادة المناطق التى اغتصبها الفرس، فقام بما لا يقل عن ست حملات فى الفترة الواقعة بين سنتى ٦٢٢م و٦٢٨م وكان هرقل قد غادر العاصمة فى ٣ أبريل سنة ٦٢٢م بعد أن أدى القداس وعبر البوسفور إلى آسيا الصغرى، ثم شق طريقه إلى أرمينيا، حيث نشبت

= والترجمة العربية : أومان: الإمبراطورية البيزنطية. ص ١٠٣.

ترجمة : مصطفى طه بدر.

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى. ج ١، ص ١١١.

(٦) Vasiliev (A. A.): A History of the Byzantine Empire (Madison, 1958), Vol. I, p. 197.

Vasiliev (A. A.): Historie de L'Empire Byzantine (Paris, 1932), Tome. I, p. 260.

معركة كبيرة، وتمكن الجيش البيزنطي من إحراز نصر حاسم على الفرس بقيادة شهر باراز، ولم يكتف هرقل بهذا النصر بل استمر في قتال كسرى في بلاده وأحرر عدة انتصارات متوالية عليه^(٧). ولم يأت عام ٦٢٥ م إلا وكان هرقل قد استولى على أرمينيا الفارسية وأذربيجان وجزء من فارس، كما استولى على معسكرات الفرس الشتوية في إقليم فان. وعلى الرغم من أن الفرس نجحوا في منع البيزنطيين من التوغل وغزو بلاد فارس إلا أن ذلك كلفهم الكثير حيث دمر هرقل جيش القائد الفارسي شاهين وجزءا كبيرا من جيش شهر باراز وجيش سارا بلانجز Sarablanges. كما سقطت العديد من المناطق التي كانت تحت السيطرة الفارسية في يد البيزنطيين^(٨)، مثل بلاد الجزيرة فيما بين النهرين بما فيها من قلاع أميدا ودارا ومرتيرو بوليس Martyropolis^(٩).

على أن الفرس لم يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء ما حققه هرقل من انتصارات، إذ بحلول الشتاء عزم خسرو على القيام بمحاولة جريئة لسحق ذلك الخصم العنيد، حيث أرسل سفارة إلى الآفار الذين نقضوا المعاهدة السابقة مع الإمبراطور، ورتب معهم أمر غزو القسطنطينية بشرط أن يقوموا بغزوها من الشمال في حين يقوم الفرس بمهاجمتها من الجنوب، وحينئذ ترك خسرو جيشين عظيمين، أحدهما لشهر باراز تقدم به إلى خلقدونية لمعاونة الآفار في الهجوم على العاصمة، والآخر تحت قيادة شاهين تقدم به إلى هرقل الذي كان آنذاك ببلاد الجزيرة يواصل استعداداته للهجوم على الأراضي الفارسية^(١٠). وكان كسرى قبل أن يجهز تلك الجيوش قد

(٧) ليلي عبد الجواد: الدولة البيزنطية في عصر الإمبراطور هرقل، ص ٢٣٧-٢٤٨.

(٨) Brehier : Vie et Mort de Byzance., p. 51.

Stratos (A. N.): Byzantine in the Seventh Century (602-634), (Amsterdam, 1921), Vol. I, pp. 163-5.

(٩) Oman : op. Cit., p. 136.

(١٠) Robinson (S) : A Short History of Medieval People. (London), p. 543.

أرسل من يسلب كنوز جميع الكنائس الواقعة على تخومه، وأجبر جميع المسيحيين في تلك المنطقة على اعتناق مذهب النساطرة^(١١) وفي الوقت الذي فرض ضرائباً جديدة في دولته لكي يواجه نفقات حروبه مع هرقل^(١٢) ثم كون جيشاً من جميع الشعوب من الأجانب والمواطنين والعبيد ومن كل الأجناس والطبقات الذين تضمهم الإمبراطورية^(١٣) ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أنه قام بضم بعض القوات من رجاله إلى تلك الجيوش وأطلق عليها اسم كتائب الذهب Chrysolochas، وأطلق عليها أيضاً اسم حملة الرماح الذهبية، وذلك لأن رماحهم كانت مطلية ببلون الذهب^(١٤).

Levtchenko (M. V.): Byzance des Origines A 1453 (Paris, 1949), p. 121.

Vasiliev : Hist. De L'Empire Byzantine, Tome. I, pp. 260-1.

Diehl : op. Cit., p. 50.

(١١) النساطرة: أو النسطورية نسبة إلى رجل يدعى نسطوريوس من اصل فارسي وقد نشأ في مدينة جرمانيقة (مرعش في الوقت الحالي) في أواخر القرن الرابع، وكان أول من تولى نشر بدعة النسطورية بين الناس جهراً وتحمس لمناصرتها حتى اشتهرت باسمه. وأصبح نسطوريوس كاهناً على كنيسة أنطاكية، ثم أصبح بطريركاً على القسطنطينية في سنة ٤٢٧م في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الصغير.

انظر : ليلي عبد الجواد: المرجع السابق ص ١٧٦، حاشية رقم ٢.

(١٢) Theophanis : Chronographia, Vol. I, p. 484.

Gedrenus: Historiarum Compendium, Vol. I, p.727.

Finaly (G) : Hist. Of Greece (Oxford, 1877), Vol. I, p.344.

Lebeau: Historie du Bas-Empire. (Paris, 1930), Tome. Xi, pp. 111-12.

Stratos : op. Cit., Vol. I, p. 160.

(١٣) Theophanis : Chronographia, Vol. I, p. 484.

Gedrenus: Historiarum Compendium, Vol. I, p.727.

(١٤) Theophanis : op. Cit., Vol.i, pp. 484-5.

Cedrenus : op. Cit., Vol.i, pp. 272.

على أن الإمبراطور هرقل عندما علم بتحركات كسرى قسم جيشه إلى ثلاث فرق، الفرقة الأولى أرسلها لحماية عاصمته القسطنطينية من الهجوم الآفارى الفارسى، والفرقة الثانية عهد بها إلى ثيودور Theodoro وأمره بمهاجمة شاهين، أما الفرقة الثالثة فجعلها تحت قيادته وتحرك بها إلى منطقة لازيقا حيث مكث هناك مدة وسعى إلى التحالف مع هؤلاء الخزر القادمين من المشرق والذين كانوا يعرفون آنذاك باسم الأتراك^(١٥). وبعد أن تحالف معهم قدم له الخزر المساعدة فى حملته ضد فارس وأمدوه بقوات قوامها أربعين ألف محارب أعانته فى حربه معهم، كما قدم له المساعدة بعض الشعوب المسيحية فى منطقة القوقاز^(١٦). وهكذا كان هناك حلفان أحدهما بين الفرس والآفار والآخر بين البيزنطيين والخزر.

على أن التحالف الفارسى الآفارى أخفق فى السيطرة على العاصمة القسطنطينية واضطر المتحالفون مكرهين إلى رفع الحصار بعد أن قتل منهم الآلاف، ويرجع سبب ذلك إلى أنه كان يوجد بالعاصمة حامية قوية وأسطول حربى كبير، هذا بالإضافة إلى الشعور العدائى الذى استولى على أهل القسطنطينية ضد الفرس منذ ضياع بيت المقدس والصليب المقدس^(١٧).

ولكن ما يثير التساؤل، لماذا استعان الإمبراطور هرقل بالخزر، هل كان هو فى موقف يحتاج فعلا إلى المساعدة؟، ثم لماذا استعان بالخزر على وجه الخصوص؟ وما مدى أهمية الخزر فى ذلك الوقت حتى تستعين بهم الإمبراطورية البيزنطية؟

(15) Theophanis :op. Cit., Vol.i, p. 485.

(16) Art. Byzantine Empire. In the New Ency. Britt, Vol. 3,p556.
Grousset (R) : Historie de L'Armenie de Origines A 1071 (Paris, 1947), p. 200.

Allen (W. D.) : A History of the Georgian People, (London, 1939), p.79.

Levtchenko : op. Cit., p. 121.

(١٧) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٠٦.

يبدو أن القوات البيزنطية التي كانت تحت قيادة الإمبراطور هرقل غير كافية لهزيمة الفرس، كما أن تقسيم جيشه إلى ثلاثة أقسام جعل القوات البيزنطية عاجزة عن تحقيق أى انتصار على الفرس.

وهنا نلاحظ أن الخزر الذين كانوا لا يزالون تابعين آنذاك للأتراك الغربيين من الناحية الاسمية قد ساعدوا البيزنطيين في حروبهم ضد فارس بسبب عدائهم القديم للفرس من ناحية، ولما بلغوه من نفوذ واسع. جعل الإمبراطورية البيزنطية تستعين بهم من ناحية أخرى.

ويذكر أن المؤرخ الأرمني موسى أنه في العام السادس والثلاثين من عهد خسرو أى يونيه سنة ٦٢٥ م - يونيه ٦٢٦ م قام الخزر بغزو أرمينيا الفارسية، ونهبوا أذربيجان وحينما علم خسرو بهذا الغزو كتب إلى قادته شهريا راز وشاهين يستدعيهم بجيوشهم لكي يرسلهم لمعاقبة الخزر، وحينما علم الخزر بذلك أصابهم الفزع وارتدوا عن أرمينيا^(١٨). وقد ذكر المؤرخ اليونانى ثيوفانىس^(١٩) أن الخزر بقيادة ملكهم زيبيل Ziebelo اقتحموا مداخل قزوین وهاجموا فارس وتقدموا حتى ولاية أدروجام Adroegam وذلك قبل أن يلتقى الإمبراطور هرقل بزيبيل ملك الخزر، وعلى هذا فإن العلاقة بين الخزر والفرس فى تلك الفترة لم تكن ودية كما أشرنا إلى ذلك من قبل، مما أدى إلى أن الظروف كانت مهيأة تماما لإقامة تحالف بين الخزر والبيزنطيين ضد فارس.

وفى سنة ٦٢٧ م وحينما علم هرقل بالغزو الخزرى لأرمينيا الفارسية تحرك من طرابزون Trebizond على البحر الأسود وتوجه إلى لازيقا أملا فى لقاءهم عند عودتهم، ومن هناك أرسل هرقل البطريق أندرياس Andreas إلى حاكم الخزر زيبيل محملا بهدايا قيمة وطلب إليه أن يفاوضه فى إقامة تحالف بينه وبين بيزنطة.

(18) Stratos : op. Cit., Vol.i, p.199.

(19) Chronographia, vol.i, p. 486.

ورحب أمير الخزر بذلك وبعث بسفارة يصحبها ألف فارس كبعثة تأييد إلى منطقة لازيقا التي كان يقيم فيها الإمبراطور^(٢٠) ويشير المؤرخ ثيوفانيس^(٢١) إلى أنه بعد أن بعث حاكم الخزر بسفارة إلى الإمبراطور هرقل، قرر هرقل الذهاب للقائه شخصياً والتقى بزيل حاكم الخزر، وعندما رأى زيل الإمبراطور تقدم نحوه وعانقه ثم سجد أمامه، وسجد جميع جند الخزر وخروا على وجوههم، وكأنهم سقطوا من هيبة الإمبراطور، كما صعد القادة على الصخور وسجدوا له، ويروى أن زيل كان يصنى باهتمام بالغ لكلمات الإمبراطور، وأصابه الدهول من هيئته وحكمته، وكان لا يتعد عنه، ثم قدم له ابنه وكان في أول شبابه، ثم اختار زيل نخبة من نحو أربعين ألف رجل وجعلهم في صحبة الإمبراطور، ثم عاد إلى ذويه.

وقد تحدث مؤرخ يوناني آخر وهو كيدر ينوس^(٢٢) عن هذا اللقاء، ولكنه لم يرو ما حدث بالتفصيل بين هرقل وزيل كما رواه ثيوفانيس. أما ما رواه المؤرخ نيقفورس^(٢٣) عن هذا اللقاء والتحالف الذي جرى بين الطرفين فقد ذكر أن

(20) Nicepharius : *Breviarium Historicum De Rebus Gestis Post Imperium Mauricii*; (Paris, 1860), Tomus, C., p. 902, in *Patrologia Graeca*.

Baynes (N) : *the Successor of Justinian*, (cambridge, 1980) Vol. ii, p.297, in *Cambridge Medieval History*.

Lebeau : op. Cit., Tom. Xi, pp. 117-118.

Stratos :op. Cit., Vol. I,pp. 199-200.

(21) *Chronographia*, Vol.i, p. 486.

Ostrogorsky (G) : *The Byzantine Empire in the world of the Seventh Century*, (1959), p. 18, in *Dumbarton Oaks papers*.

(22) *Historiarum Compendium*, Vol. I, p. 728

(23) *Breviarium Historicum de Rebus Gestis Post imperium Mauricii*, T, C., pp. 902-903.

Ostrogorski : op. Cit., (1959), p.18.

Stratos: op.cit., Vol. I, pp. 201-202.

الإمبراطور هرقل كان ينتظر زيبيل عند أسوار تفليس^(٢٤) وكان ممتطيا جواده ومرتديا رداء أرجوانيا وعلى رأسه تاج رائع مرصع بالماس، وكان ينتعل بصندل أرجوانى فى قدميه ومن حوله حراسه وبلاطه، وبقي ساكنا حتى قدم عليه زيبيل الذى ما أن رآه حتى ترجل من على فرسه وسجد أمام الإمبراطور مقدما فروض الطاعة والولاء، وترجل الإمبراطور أيضا، وعانق كلاهما الآخر ثم قام زيبيل بتقبيل الإمبراطور هرقل، الذى ما لبث أن خلع تاجه من على رأسه ووضع على رأس زيبيل، كما خلع عليه خلعة ملكية، ومنحه أقرطا محلاه باللؤلؤ، ومنح الأمراء الذين كانوا معه أقرطا وهدايا أخرى، وأراد هرقل أن يربط زيبيل بروابط الصداقة فوعده بتزويجه من ابنته ايدوكسيا Eudoxia التى كانت فى نضارة عمرها وما إن وقعت عينا زيبيل على صورتها حتى انبهر بجمالها وهام بها حبا.

وهنا نلاحظ أن روايتا ثيوفانيس ونيقفورس قد أشادتا بعظمة الإمبراطور هرقل ومكانته وهيبته، وأوضحتا تقاليد قبائل الإستبس التى ينتمى إليها الخزر، عندما التقى هرقل بزيبيل، ومظاهر الترحيب التى أبدتها البلاط الخزرى للإمبراطور، ودقة الفن البيزنطى الذى يتجلى فيه براعة الفنان الذى صور إيدوكسيا تصويرا دقيقا ابرز فيه جمالها، مما جعل زيبيل ينبهر به.

ومما يجدر ذكره أن المؤرخ جيون^(٢٥) قدم لنا وصفا بديعا لاستقبال الخزر للإمبراطور هرقل، وقد اعتمد فى هذا الوصف على رواية المؤرخ ثيوفانيس. وثمة مصدران هامان ذكرا موضوع التحالف بين هرقل والخزر أولهما ميخائيل

(٢٤) تفليس : قيل تفليس ونواحيها هى أرمينية الصغرى.

انظر : ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٢٠٤.

(٢٥) The Decline and Fall of the Roman Empire., (London, 1952)
Vol.ii,130.

السرياني^(٢٦) الذي تحدث عن طلب هرقل المعونة من خاقان الخزر وكيف وافق وأمدّه بأربعين ألفاً من الرجال على أن يزوجه من ابنته ايدوكسيا. أما المصدر الثاني لمحبوب المنبجي^(٢٧) فقد أشار إلى نفس الموضوع، وإن كان اسم زيبيل لم يرد في المصدرين.

وبعد أن تعرضنا للمصادر اليونانية والسريانية، يبقى بين أيدينا المصادر الأرمينية، فقد ذكر المؤرخ الأرميني موسى، أنه في سنة ٦٢٥م غزا الخزر أرمينيا وأوغلوا فيها واستولوا على العديد من الأسلاب والغنائم، وأتلفوا أذربيجان، ثم قفلوا راجعين إلى بلادهم عن طريق الدربند دون أن يصادفوا أية مقاومة من الفرس. وكان أن قرر ملك الخزر في العام التالي (٦٢٦م) أن يخرج بنفسه للاستيلاء على هذه الأماكن، وأصدر أوامره لكل من هو في نطاق سلطته من "القبائل والناس وسكان الجبال والسهول الذين يعيشون تحت السقوف أو تحت السماء المكشوفة، وأولئك الذين يخلقون رؤوسهم أو من لهم شعور طويلة أن يكونوا مستعدين للغزو"^(٢٨).

وفي عام ٦٢٦م تحرك الخزر وكرروا غزوهم بشكل أوسع على أراضي فارس وتمكنوا من تحطيم القلاع المنتشرة بجبال القوقاز وقلاع تريزور Tresor (دربند) وأوغلوا ناحية الجنوب وأمعنوا في قتل السكان ونهب الثروات حتى وصلوا إلى تفليس، وهناك التقى هرقل بالخزر، بزعامة جيبو خاقان Deshebou Khakan، وقام الفريقان بحصار تفليس حتى كادت أن تقع في أيديهما، لولا أن نجح الفرس في إرسال فرقة قوية من ألف فارس على رأسها شهر براز تمكنت من دخول المدينة

(26) Chronique De Michel Le Syrien., T. ii, p.409.

(٢٧) "كتاب العنوان" المنشور في مجموعة أعمال الآباء الشرقيين.

Patrologia Orientalis (Paris, 1911), Tomus. Viii; pp. 462-3.

(28) Patkanian (M.K.) : Essai s'un Histoire de La Dynastie des sassanides. (1866), Toms. Viii,p.5. dans Journal Asiatique Serie.

Chavannes : Documents sur les Turcs Occidentaux, p. 252.

ومنعت سقوطها وعندئذ قرر الحلفاء التراجع مؤملين العودة فى العام الثانى كقوة واحدة، وتمضى الرواية الأرمنية فتذكر أنه بعد ذلك أرسل الإمبراطور هرقل أحد كبار أمرائه ويدعى أندرياس بهدايا قيمة ليفاوض الخزر على ترتيبات الغزو فى سنة ٦٢٦م، فرحب جيبو خاقان بالرسول وأرسل فرقة من جيشه تقدر بنحو ألف فارس إلى القسطنطينية لمساندة الإمبراطور من جهة، والتفاوض على اتفاق مرض للطرفين بشأن الغزو عن جهة أخرى^(٢٩).

وفى العام الثانى (٦٢٧م) أرسل ملك الشمال (خاقان الخزر فى نص ثيوفانو) القوات التى وعد بها تحت قيادة ابن أخيه شاث Shath أو شاد Shad فأغارت على أران وأذربيجان، وفى العام التالى (طبقا لهذه الرواية) سنة ٦٢٨م دخل الخزر أران واستولوا على برزعة^(٣٠) Bardhaah، ثم بعد ذلك اتجهوا ناحية الغرب تجاه تفليس تحت قيادة جيبو خاقان وابنه، وحاصروا المدينة الجورجانية، وما لبث أن التحق بهم الإمبراطور هرقل على رأس جيشه القوى بعد أن حقق النصر على الفرس، غير أن الحليفين اضطرا إلى التراجع، نظرا لأن المدينة قد أبدت مقاومة شديدة، بعد ذلك استولى الخزر تحت قيادة جيبو خاقان وابنه شاث على تفليس على أن الخزر قاموا بإحضار اثنين من كبار رجال حاميتها ومثلا أمام الخاقان، فعاملهما بقسوة شنيعة، وأمر بسمل أعينهما وتعذيبهما تعديبا شديدا، وتعليقهما على أسوار المدينة^(٣١).

وتضيف الرواية الأرمنية أن ملك الشمال (ملك الخزر) قد أخذ إتاوة من الذهب والفضة ومعادن أخرى كالحديد، واستولى أيضا على ثروات الصيادين على

(29) Patkanian: op. Cit., Vol. vii, pp. 607.
Chavannes: op. Cit., pp. 252-3.

(30) برزعة : بلد فى أقصى أذربيجان.. انظر ياقوت: ح-٢، ص ١١٩.

(31) Dunlop: Hist. Of the Jewish Khazars, pp. 29-30.

نهر كروفي سنتي ٦٢٩ م و ٦٣٠ م أعد ملك الخزر عدته لغزو شامل فأرسل فرقة تتكون من نحو ثلاثين ألف فارس يقودهم خوربان طرخان Charpan Tarkhan، استطاع أن يلحق الهزيمة بعشر آلاف من الفرس، ثم أغار على أرمينيا وجورجيا وأران^(٣٢).

والحقيقة أن الروايتين اليونانية والأرمينية لم تتفقا فيما يتعلق بتفاصيل الأحداث التي تناولت العلاقات البيزنطية الخزرية على عهد الإمبراطور هرقل، ومما يدل على ذلك أن الرواية الأرمينية جعلت الإمبراطور البيزنطي هرقل وملك الخزر يلتقيان مرتين أمام تفليس الأولى سنة ٦٢٦ م والثانية سنة ٦٢٨ م في حين جعلت الرواية اليونانية اللقاء مرة واحدة سنة ٦٢٧ م، كما أن الرواية الأرمينية لم يأت فيها اسم زيبيل (ملك الخزر) إطلاقاً، بل وجدنا ثلاث مسميات خلت منها الرواية اليونانية وهي ملك الشمال (خاقات الخزر) وجيبوخاقان وشاد أو شاث، كما أن الروايتين اختلفتا فيما يختص بالأف فارس الذي أرسلهم ملك الخزر إلى هرقل إذ ذكرت الرواية الأرمينية أنه أرسلهم إلى عاصمة بلاده القسطنطينية، بينما ذكرت الرواية اليونانية أنه أرسلهم إلى لازيقا، حيث كان الإمبراطور هرقل يقيم هناك، ونجد أيضاً الرواية الأرمينية قد أومأت إلى أن الخزر هم وحدهم الذين استولوا على تفليس بعد انصراف هرقل عنهم.

ولنسترجع ما ذكره المؤرخ ثيوفانيس^(٣٣) في روايته اليونانية التي ذكر فيها أن: "هرقل ذهب للتحالف مع أولئك الأتراك القادمين من الشرق المدعويين الخزر"، وفي موضع آخر يذكر أن: "هرقل التقى بزيبيل وهو الثاني بعد الخاقان"، ثم أن زيبيل قدم ابنه الأمرد لهرقل. أما الرواية الأرمينية فقد أوردت أن "ملك الشمال أرسل قوات تحت قيادة ابن أخيه الذي يسمى شاد أو شاث" وفي موضع

(32) Dunlop: op. Cit., p.30.

Patkanian: op. Cit., Vol. vii, p. 8.

(33) Chronographia, Vol. I, p. 485-6.

آخر من الرواية أوردت أن "جيوخاقان وابنه شاد غزو جورجيا وأران" وفوق ذلك "التقى هرقل بالخزر ورئيسهم جيوخاقان" (٣٤).

وقبل محاولة جلاء الغموض بين الروائيتين نود القول أن بعض الباحثين المحدثين يرون أن هناك دوافع تشير إلى أن زيبيل يقابل لقب جيبو Jebu، وهذا اللقب هو نفسه لقب يابغو Yabgu، وهو لقب تركي كان يمنح للإخوة وأبناء الحاكم التركي، وهو نفسه أيضا لقبى T'ung-ye-Hu, Ye-hu Khagani (٣٥) وعلى هذا الأساس يمكن المقابلة بين الروائيتين اليونانية والأرمينية، فملك الشمال الذى جاء ذكره فى الرواية الأرمينية هو ملك الخزر (رئيس الخزر الأعظم)، أما جيوخاقان فى الرواية الأرمينية هو زيبيل فى الرواية اليونانية والذى كان يحتل المرتبة الثانية فى دولة الخزر، ولم يكن قد اتخذ لقب خاقان بعد كما ذهبت الرواية اليونانية، أما ابن زيبيل الأمرد (صغير السن) الذى قدمه زيبيل للإمبراطور هرقل فى الرواية اليونانية هو شاد أو شاث بن جيوخاقان فى الرواية الأرمينية، ويبدو أن لقب يابغو (جيبو) كان يمنح للرجل الثانى فى دولة الخزر.

وجدير بالملاحظة أن المؤرخ بيورى قد تشكك فى دقة ما أورده البطريك نيقفورس فى روايته اليونانية بشأن اللقاء الذى جرى بين هرقل وزيبيل (ملك الخزر)، ويعتبر هذا اللقاء أسطورة، ولم يجر بالمرة. وفى هذا الصدد عقب ستراتوس على ما ذكره بيورى قائلا: أن نيقفورس لم يكن المؤرخ الإغريقى الوحيد الذى أشار إلى هذا اللقاء بل هناك مؤرخين بيزنطيين آخرين تعرضوا لهذا اللقاء (٣٦).

(٣٤) Patkanian: op. Cit., Vol. vii, pp. 5-8.

(٣٥) Art. Khazar, in Ency. Judaica, vol. x, p. 944.

Chavannes: op. Cit., p. 47.

Dunlop : op. Cit., p. 30.

(٣٦) Stratos: op. Cit., Vol.i, p. 202.

والحقيقة أن الأبحاث الحديثة التي تناولت العلاقة بين الخزر والبيزنطيين سواء بتعمق أو بشكل سريع خاطف اعتمد معظمها اعتمادا كلياً على الروايات اليونانية، وتناولت المساعدة التي قدمها الخزر للإمبراطور هرقل، ولكنها لم تتطرق لما جاء بالرواية الأرمنية^(٣٧) ولكن يبدو أن البعض اعتمد على الرواية الأرمنية وذكر أن خاقان الأتراك الغربيين T'ong Yabghu هو الذي أعان الإمبراطور هرقل ضد الفرس^(٣٨) وكان ذلك صدى لما كان يربط الخزر بالأتراك الغربيين، إذ كان الخزر تحت سيطرة الأتراك الغربيين من الناحية الاسمية فقط، ومن المعروف أن إمبراطورية الأتراك الغربيين قد تحطمت على يد الصينيين سنة ٦٥٩م، وبذلك يتأكد لنا أن الخزر هم الذين قدموا مساعدتهم للإمبراطور هرقل دون أن يكون للأتراك الغربيين دور في ذلك.

وفي أثناء حصار الخزر لتفليس، سخر سكانها من رئيس الترك (الخزر) برسم صورته على لوحة ضخمة، وأظهروا وجهه دون عينية، على اعتبار أنه من خلاصة المغول، وعلقوا هذه اللوحة على سن أحد الرماح وأخذوا يضربون عليها بالسهام. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها ستيفن قائد حامية المدينة لمنعها من السقوط في أيدي الخزر، إلا أنها سقطت في النهاية بعد حصار طويل^(٣٩).

(37) Franzius (E): History of the Byzantine Empire (New York, 1961), p. 117.

Koestler! Op. Cit., p. 25.

السيد الباز العربي : المرجع السابق، ص ١٢٧.

ليلى عبد الجواد : المرجع السابق، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(38) Pritsak : Art. Khazar, in Dictionary of the Middle Ages, Vol. 7, p. 240.

(39) Stratos: op. Cit., Vol.i, p. 202.

Bayness: op. Cit., Vol. ii, p. 297.

غير ان المدينة فى النهاية سقطت لطول الحصار، وتمكن خاقان الخزر من القبض على ستيفن الذى كان يؤثر جانب الفرس بالرغم من كونه مسيحيا أرثوذكسيا، فقتله وأرسل برأسه إلى الإمبراطور هرقل^(٤٠).

أما بشأن تفاصيل المعارك الفارسية البيزنطية التى خاضها هرقل نلاحظ أنه كان على رأس عشرين ألف من اليونانيين وحلفائه من الإيبيريين وأهل لازيقا، وبصاحبه أربعون ألف فارس من الخزر، وسار متجها إلى طيسقون (المدائن) عاصمة الفرس بعد أن تأكد من ضعف الفرس^(٤١)، وفى أثناء زحفه على رأس جموعه أخذ يحرق وينهب المدن والقرى الواقعة فى طريقه^(٤٢).

ولما وصلت إمدادات أخرى إلى الإمبراطور هرقل، توغل فى الأراضى الفارسية، ولكن الخزر بدأوا فى الانسحاب والتراجع تدريجيا عن جيش هرقل. ويذكر ثيوفانيس أن الخزر انشقوا عن البيزنطيين قبل عبورهم جبال كوردش Kurdish حتى أن الإمبراطور هرقل خطب فى رجاله بأنه لم يعد له حلفاء تعينه على تحقيق النصر، وعلى الرغم من قلة عدد جيشه بعد انسحاب الخزر، فإنه سيواصل زحفه على بلاد فارس بمعاونة السيد المسيح عليه السلام والسيدة مريم^(٤٣) وفعلا تقدم هرقل على رأس جيشه وأحرز نصرا باهرا على كسرى الثانى (٥٩٠-٦٢٨م) فى ديسمبر سنة ٦٢٧م قرب أطلال نينوى وألحق بالجيش الفارسى خسائر فادحة، وصمم الإمبراطور على مواصلة زحفه إلى المدائن عاصمة الفرس، ولكن الأمر انتهى بقيام ثورة فى فارس راح ضحيتها كسرى الثانى، كما أن خليفته الذى تولى من بعده عقد

(٤٠) Grousset: Hist. De Armenie des Originies, p. 275.
Allen: op. Cit., p.79.

(٤١) Stratos: op. Cit., vol.i, p. 205.

(٤٢) Cedrenus: Historiarum Compendium, vol. I,p.730.

(٤٣) Stratos: op. Cit., vol.i, p. 209.
Camb. Hist. Of Iran, Vol., 3, p. 170.

صلحا مع هرقل بمقتضاه وافق الفرس على إخلاء جميع الأراضي التي انتزعوها من الإمبراطورية البيزنطية^(٤٤) وبذلك تكون الحروب الفارسية مع الإمبراطورية الرومانية قد انتهت إلى الأبد.

والواقع أن انفصال الجيش الخزرى عن هرقل كان مثيرا للدهشة، فلم تذكر المصادر شيئا جوهريا عن الأسباب التي دفعت الخزر إلى الانفصال. ويذكر المؤرخ دنلوب^(٤٥) أن المساعدة التي قدمها الخزر إلى هرقل أغرته بالتوغل فى أراضي الفرس ومحاولة إنهاء الحرب لصالحه، غير أنه تمالى فى زحفه إلى أن اقترب فصل الشتاء، وفى الوقت الذى أخذت هجمات الفرس تزداد عمقا، كل ذلك أدى إلى نفاذ صبر الخزر من ناحية، ولم تعجبهم الطريقة التى عالج بها البيزنطيون الحرب من ناحية أخرى، فى حين يذكر غيره أن الخزر انفصلوا لأنه لم يكن فى مقدورهم أن يصبروا على مشقة الحملة وقسوتها فعادوا إلى بلادهم^(٤٦) ويذكر البعض أيضا أن الخزر لم يكن عندهم القدرة على الاستمرار مع الإمبراطور وإن لم يتخلوا عنه فى ذلك الوقت فإنهم سوف يفعلون ذلك فى وقت آخر^(٤٧)، والواقع أن جميع هذه الآراء تتفق على عدم قدرة الخزر على مواصلة الحرب لنفاذ صبرهم.

وعلى الرغم من انسحاب الخزر من حملة هرقل على فارس فإنه أوفى بوعدته بتزويج ابنته أيدوكسيا The Augusta of the Roman Eudocia من زيبيل ملك الخزر^(٤٨) - كما سبق أن ذكرنا - فجهز ابنته وبعث بها إلى بلاد الخزر،

(٤٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص ١١-١١٢.

(٤٥) The Hist. Of the Jewish Khazars, p. 28.

(٤٦) Ostrogorski: Hist. Of the Byzantine state, p. 93.

(٤٧) Stratos: op. Cit., Vol, I, p.207.

(٤٨) Ostrogorski: The Byzantine Empire in the world of the Seventh Century, p. 18.

وبينما هي في طريقها هي وحاشيتها شاعت أنباء عن مقتل زيبيل، فجاءت الأوامر لعودتها إلى القسطنطينية^(٤٩).

ومنا يجدر ذكره أن التحالف الذي جرى بين البيزنطيين والخزر في تلك الفترة أصبح عاملاً هاماً في السياسة البيزنطية. فقد أضحت التفاهم بين الطرفين عن أهم خصائص الدبلوماسية البيزنطية في الشرق^(٥٠).

وعلى الرغم مما حققه الإمبراطور هرقل من انتصار مؤزر على الفرس واسترجاع ممتلكاته، إلا أنه قبل أن يموت بسنوات قليلة، شاهد تخوم إمبراطوريته الجنوبية والشرقية تتعرض لخطر جديد هو خطر العرب المسلمين الذين استولوا على معظم الممتلكات البيزنطية^(٥١). وهكذا تعتبر تلك الفترة الواقعة في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي حلقة هامة في تاريخ العلاقات بين البيزنطيين والخزر.

علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطورية جستنيان الثاني:

لم تجدد الصلات بين الخزر والبيزنطيين مرة أخرى إلا على عهد الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني الذي تولى العرش مرتين الأولى (٦٨٥-٦٩٥م) والثانية (٧٠٥-٧١١م). ومما يبعث على الدهشة أن المؤرخين البيزنطيين وغيرهم قد صمتوا عن الإشارة إلى أي جديد في مصير العلاقات بين الطرفين حتى اعتلاء هذا الإمبراطور في أواخر القرن السابع، فجاءت هذه الفترة الطويلة التي تقرب من ثلثي القرن من الزمان فجوة هائلة فيما يتعلق بالعلاقات بينهم. وكانت بحق فترة شاغرة

(٤٩) Koestler: op.cit., p. 26.

Stratos: op. Cit., Vol. I, p. 202.

(٥٠) Ostrogorski: op. Cit., p. 18.

(٥١) The Times Atlas of world History, (New Jersey, 1985), p.112.

ويبدو أن السبب في ذلك يرجع إلى انشغال البيزنطيين في التصدي لخطر خارجي جديد غير خطر الفرس وهو خطر الجيوش الإسلامية الفتية التي بدأت توجه إليها أشد الضربات، فقد نجح المسلمون في تحطيم مملكة فارس لتصبح جزءاً من الدولة العربية الإسلامية، ونجحوا أيضاً في تقليص أظفار الإمبراطورية البيزنطية منذ أواخر عهد هرقل (٦٤١م) وما نتج عنها من ضياع أملاك بيزنطة في الشرق، وبذلك تكون تلك الفترة السابقة فترة توقف مؤقت في مجال العلاقات بين الخزر والبيزنطيين.

مات قسطنطين الرابع في سبتمبر سنة ٦٨٥م وهو في الثالثة والثلاثين من عمره فخلفه على الحكم ابنه جستنيان الثاني من زوجته الإمبراطورية أُنستاسيا Anastasia وقد اعتلى جستنيان الثاني العرش ولم يتجاوز السادسة عشر من عمره^(٥٢). وكان شاباً جسوراً مجازفاً قاسى القلب طموحاً ذا عزيمة تساعد على إثبات شخصيته وسلوك الطريق الذي يرضيه^(٥٣). ولكنه كان مجرداً مما يتصف به السياسي الماهر من سداد الرأي والرزانة، إذ ورث عن جده هرقل شدة العاطفة وسرعة التأثر^(٥٤) ولقد وصفه المؤرخ جيبون^(٥٥) بالقول: "أن انفعاله وغضبه كان سريعاً، وفي فهمه للأمور سخيلاً، ثملاً يملأه الغرور والكبرياء الأحمق".

وعند اعتلاء هذا الإمبراطور كان قد دخل في حرب مع البلغاريين حيث نقض اتفاقية السلام معهم، وهى المعاهدة التى أبرمها والده من قبل^(٥٦) مع أسباروخ خان البلغار سنة ٦٨٠م، وفى سنة ٦٨٩م قام بغزو أقاليم بلغاريا التى تطلق عليها الحوليات الإمبراطورية (Sclavinia and Bulgaria) سكلفينيا وبلغاريا، وأنزل

(52) Head (C): Imperial Byzantine Portraits, (New York, 1982), p. 46.

(53) Oman: op. Cit., p. 173.

(٥٤) السيد الباز العرينى: المرجع السابق، ص ١٥٦.

(55) Op. Cit., Vol.ii, p.166.

(56) Constantine Porphyrogenitus: De Administrando Imperio, trans by Jenkins, p. 93.

بأهلها عدة هزائم وأسر منهم ثلاثين ألف أسير وأجبرهم على أن يقاتلوا المسلمين تحت راياته^(٥٧) ولقد لقي جستنيان الثاني الهزيمة في حربه مع المسلمين التي دارت سنة ٦٩١-٦٩٢ م بعد أن غادره البلغار وتخلوا عنه^(٥٨).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل شرع جستنيان في جمع الأموال بطريق المصادرة، وقد استخدم وزيرين لا ضمير لهما وهما ثيودوتس Theodotus وستيفانوس Stephanos، وكان كل منهما عنيفا قاسيا، انتهجوا طريق المصادرة والخروج على القانون في جمع الأموال، ويقال أن ثيودوتس كان يعلق الذين يمتنعون عن دفع الضرائب بالحبال فوق نيران ذوات دخان، حتى يكادون يموتون خنقا، وكان ستيفانوس يجلد ويرجم كل من يقع في يديه^(٥٩).

وبعد هزيمة جستنيان الثاني من المسلمين أخذ يقتل ضباطه ويحبسهم، على أنه في سنة ٦٩٥ م عين ضابطا يدعى ليونتيوس Lontuis قائدا للجند، فامتلأت نفسه رعبا وخوفا وكان على وشك السير لتسلم منصبه في القيادة، وحينما كان يودع أصدقائه كان يقول أن أيامه أصبحت معدودة وأنه يجب عليه أن ينتظر وصول الأمر بإعدامه في أية لحظة. وعندئذ وقف راهب يدعى بول Boul ودعاه إلى إنقاذ نفسه وذلك بأن يضرب ضربة جريئة، وقال له بأنه إذا أراد أن يضرب جستنيان فإنه سوف يجد الأهالي والجيش على استعداد للسير وراءه^(٦٠).

= والترجمة العربية: محمود سعيد عمران، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ص ٨٥-٨٦.
(57) Runciman : A Hist. Of the Bulgarian Empire, p. 30.
(58) السيد البار عريفي: المرجع السابق، ص ١٥٩-١٦٠.
(59) Oman: The Byzantine Empire, p. 174.
والترجمة العربية: أومان: الإمبراطورية البيزنطية. ص ١٣٨.

(60) Ibid: p. 175.

وبالفعل نشبت ثورة ضد جستنيان سنة ٦٩٥م، وتمكن لونتوريوس ونفر من أصدقائه من الاستيلاء على سجن الدولة وفتح أبوابه وإطلاق سراح المئات من المسجونين الذين سجنوا في بعض القضايا السياسية، كما استولى على كاتدرائية سانت صوفيا، ثم بعد ذلك توجه إلى القصر واستولى عليه ولم يجد مقاومة حيث تخلى الجميع عن جستنيان ورفضوا الحرب معه، وأمر لونتوريوس بإلقاء القبض على جستنيان ووزيريه، وكان عقابه لجستنيان جدد أنفه وقطع لسانه ونفيه إلى خرسون في شبه جزيرة القرم وهي أبعد مرفأ على البحر الأسود^(٦١).

هكذا تولى لونتوريوس عرش الإمبراطورية البيزنطية (٦٩٥-٦٩٨م) أما جستنيان فقد أقام في خرسون سنوات في هدوء، ولكنه في أثناء وجوده في خرسون كان ما يزال يتحدث عن استعادة عرشه، وأحدث الفزع والخوف حينما أعلن عزمه على ذلك، فخشى أهل تلك البلاد وعقدوا النية على تسليمه إلى أبسيماروس Apsimaros أو قتله، وعندما ما علم جستنيان بذلك، هرب إلى قلعة تسمى دوروس Doros وهي عاصمة شبه جزيرة القرم التي تقع على تخوم جوثيا Gothia^(٦٢).

(61) Theopphanis : op. Cit., Vol, I, p. 566.

Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 938.

Glubb (S. J): The Empiro of the Arabs, (London, 1963), p. 149.

Miller : The Byzantine tradition, p. 14.

Ostrogorsky: op. Cit., pp. 123-4.

Dunlop : op. Cit., p. 171.

Head : op. Cit., p. 49.

فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكار الحربي والاتصال الحضارى،
ج ٢، ص ٧٦.

(62) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 942.

Theopphanis : op. Cit., Vol, I, p. 571.

Brooks (W.E) : The Sussessors of Heraclius. , to 717.

In camb. Med. Hist. (Cambridg, 1980), Vol.2, p411.

Koestler : op. Cit., p. 32.

Gibbon : op. Cit., Vol., ii, p. 166.

ولا شك أن ما دفع جستنيان وشجعه على الانتقال إلى دوروس هو التغيرات التي طرأت في بيزنطة، حيث جرى طرد الإمبراطور ليونتيوس سنة ٦٩٨ م، فضلا عما ساوره من شكوك من أن السلطات المحلية بخرسون عزمت على تسليمه إلى حكومة القسطنطينية، وقد أخذ بحذره من ذلك في الوقت المناسب^(٦٣). وفي القسطنطينية لم يكن الإمبراطور ليونتيوس كفؤا وجديرا بالعرش، فقد احتفظ به ثلاث سنوات، كانت مليئة بالثورات الداخلية والهزائم الخارجية، وبعد سقوط قرطاجنة^(٦٤) في يد المسلمين سنة ٦٩٨ م، دبر القادة المنسحبون مؤامرة لخلع ليونتيوس ونادوا بابسيماز قائد الأسطول Drungarius إمبراطورا تحت اسم تيبوريوس Tiberius، ونجحت المؤامرة واستولى تيبوريوس على القسطنطينية (٦٩٨ - ٧٠٥ م) وقبض على منافسه لونتيسوس وقام بجذع أنفه وأرسله إلى أحد الأديرة^(٦٥)، وهو نفس العقاب الذي تعرض له جستنيان الثاني الذي لم يمض على عزله ثلاث سنوات.

وبعد أن انتقل جستنيان من خرسون إلى دوروس طلب مقابلة خاقان الخزر والتحدث إليه ومفاوضته، فاستجاب لطلبه واستقبله ببالغ الحفاوة، ونشأت بينهم صداقة وزوجه الخاقان من أخته^(٦٦) وقد سميت شقيقة الخاقان باسم ثيودورا^(٦٧) عند

(63) Ostrogorski: Hist. Of the Byzantine State, p. 125.

(٦٤) قرطاجنة: بلد قديم من نواحي إفريقيا،

انظر: ياقوت: معجم البلدان، ح-٧، ص ٥٢.

(65) Brooks : op. Cit., Vol. ii, p. 410.

Oman: op. Cit., p. 179.

فتحى عثمان: المرجع السابق، ح-٢، ص ٧٦.

(66) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 942.

Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 571.

Lewis (A.R) : Naval Power and Trade in the mediteranean A.D 500-1100 (New Jersey, 1951), pp. 84-5.

Franzius : op. Cit., p. 139.

Brehier : op. Cit., p. 70.

Vasiliev : Hist. Of the Byzantine Empire, p. 194.

زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ١٧.

(٦٧) التيس الأمر على محرر مادة خزر بدائرة المعارف اليهودية، حيث ذكر أن جستنيان الثاني تزوج

شقيقة خاقان الخزر واسمها ايرين، وايرين في الحقيقة هي الزوجة الخزرية التي تزوجها الإمبراطور

قسطنطين الخامس (٧٤٠-٧٧٥ م)، انظر: Rosenthal: Art. Chazar., Vol. iv, p.

زواجها من جستنيان الثانى، وليس هناك دليل على أنها كانت مسيحية قبل زواجها بل على الأرجح أنها عمدت واعتنقت المسيحية عند زواجها أو عند عودة زوجها إلى العرش، وقد اختار لها جستنيان الثانى هذا الاسم الذى كانت تسمى به زوجة جستنيان الأول^(٦٨)، وتشير بعض الروايات إلى أن اسم هذا الخاقان كان بوزير Busir^(٦٩).

على أن جستنيان بعد وقت وجيز من زواجه من ثيودورا استأذن الخاقان، واتجه إلى فانا جوريا Phanagoria (طامان الحالية Taman) ومكث فيها هو وزوجته^(٧٠). ويبدو أن القلق قد استبد بإمبراطور القسطنطينية تيبريوس آسيما روس من جراء تحركات جستنيان، لذا بادر بإرسال سفارة إلى خاقان الخزر وطلب بإلحاح، أن يسلمه جستنيان حيا أو ميتا، ووعدته بمغريات كثيرة، فاستجاب الخاقان لطلبات آسيما روس الملحة، ووعدته بأن يستجيب لطلبه^(٧١) ويبدو أن الخاقان لم يكن راغبا فى تعريض علاقته بالإمبراطورية البيزنطية للخطر، خاصة وأن علاقته بالمسلمين، فى ذلك الوقت كانت متوترة، أما بخصوص المغريات التى عرضها تيبريوس على الخاقان فيبدو أنها لم تكن دافعا قويا، للإطاحة بزواج شقيقته إذا ما قورنت بالدافع الأول.

وفى ذلك الوقت كان الخاقان يدبر الخطط لتنفيذ ما وعد به، حيث أرسل إلى جستنيان حراسا لحمايته مدعيا أن هناك من يتآمرون عليه، وفى نفس الوقت كلف اثنين من رجاله وهم الخزريان باباترس Papatzes وبالجيترس Balgitzes

(68) Dunlop : op. Cit., pp. 171 - 172.

Head: op. Cit., p. 48.

(69) Koestler: op. Cit., p.32.

(70) Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 571.

Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 942.

Gibbon: op. Cit., Vol. 1,p.166.

(71) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 942.

Ostrogorski: op. Cit., p. 125.

Gibbon: op. Cit., p.149.

كلف اثنين من رجاله وهم الخزيان باباتزس Papatzes وبالجيتزس Balgitzes حاكم البسفور، وأمرهم أن يقضيا على جستنيان عند تلقى الأمر^(٧٢) غير أن ثيودورا زوجته وقفت على ذلك وعلمت من خادم والدها الخاقان، فسارعت بكشف هذه المؤامرة لزوجها في الحال، وعندما علم جستنيان بذلك، طلب مقابلة أحد الاثنين، وكان في حاشيته ومن المقرين إليه، وبعد أن أبعد الحرس واصبحا وحيدين، أنقض عليه وخنقه وفعل نفس الشيء مع حاكم البسفور، وقتله أيضا، ثم أعاد ثيودورا إلى والدها^(٧٣) والحقيقة أن ما بدر من جستنيان قد أدهش معاصريه، فهذا الموقف إن دل على شيء فإنما يدل على الجرأة الرعناء.

وبعد أن أعاد جستنيان ثيودورا إلى الخزر، اتخذ طريقه إلى خرسون في قارب من قوارب الصيد وجده بالصدفة، فاستقله وعبر نهر أسادوم Asadom ونزل في سيمبولم Symbolum بالقرب من خرسون^(٧٤). ووصل جستنيان إلى خرسون بعد مشقة وعناء، ومن هناك أرسل أحد رجاله ويدعى استيفانوس إلى تربل Terbel^(٧٥) ملك البلغار وطلب منه مساعدته في العودة إلى السلطة، ووعده بأموال ومغريات كثيرة وتزويجه من أخته، فلما علم ملك البلغار استجاب لكل طلبات جستنيان واستقبله بأعظم الحفاوة، وعندئذ اتجه إلى العاصمة القسطنطينية بكل ما لديه من مسلحين، يصاحبه تربل على رأس جيش من البلغار والسلاف وحاصرها لمدة

(٧٢) Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 571.

Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 942.

Brooks: op. Cit., vol,ii, p.411.

(٧٣) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 942.

Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 571.

Koestler: op. Cit., p. 32.

(٧٤) Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 571-2.

(٧٥) مات أوسباروخ سنة ٧٠١ بعد مرور ثمان وخمسون عاما على انفصاله من إخوته، وقد خلفه

الملك تربل من بيت دولو Dulo، وربما كان تربل ابنه أو حفيده. أنظر:

Runciman : Hist. Of the First Bulgarian Empire, p. 30.

ثلاث أيام، بعد أن عسكر بالقرب من بلاخرناى Blacherni، واستقبله الشعب بالسب والإهانات والخزى والعار، لكنه فى النهاية استطاع أن يدخل القسطنطينية ويسترد عرشه^(٧٦).

وهكذا استرد جستنيان عرشه وعزل تيبيريوس الذى كان يحاول الفرار إلى آسيا وأرسل فى طلب ليونتيوس من ديريه وأمر بالطواف بهما حول المدينة مصفيين بالأغلال ثم أقام حفلا فى الإستاد، وأحضرهما فجعل أحدهما على يمينه والآخر على يساره، وجعل جسديهما الممدودين موضعا لقدمه، وبعد هذا الاستعراض العجيب أمر بقطع رأسيهما فى المسرح^(٧٧) وهكذا انتقم جستنيان أشد انتقام من منافسيه ونكل بهما.

ومن الطبيعى ألا ينسى جستنيان روح الغدر والخيانة التى لقيها من خاقان الخزر، لذا فإنه فى سنة ٦٩٨م أرسل أسطولا كبيرا إلى بلاد الخزر لإحضار زوجته، ولكن الأسطول غرق بكل من عليه من الرجال^(٧٨) فلما بلغ خاقان الخزر ذلك كتب إلى جستنيان كتابا يقول فيه: "يا ناقص الرأى ألم يكن الواجب عليك أن توجه إلى

-
- ^(٧٦) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 943.
Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 572.
Michel Le Syrien: op. Cit., T.ii, p. 478.
Grousset : L'Empire Des Steppes, p. 232.
Brehier : Vie et Mart de Byzance, p. 70.
Diehl: Histore De L'Empire Eyzantine, p. 63.
Halphen: Le Barnares, p. 174.
Lewis : op. Cit., p. 63.
Runciman: op. Cit., pp. 30-31.
Koestler: op. Cit., pp. 32-33.
Gibbon: op. Cit., Vol. ii, pp. 166-167.
Glubb: The Empire of the Arabs, p. 149.
^(٧٧) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 943.
Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 574.
Oman: op. Cit., p. 179.
^(٧٨) Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 575.
Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 943.

بمن تثق به حتى أوجه إليك بزواجك وولدتك الذى ولد لك منها، وكان ذلك أصلح من قتل هؤلاء الخلق كلهم الذين غرقوا، أو لعلك ظننت أنى لم أكن أوجه بها إليك إلا بحرب أو قتال أو أبخل عليك، أو أمنعك منها، فإن كنت تريدها وولدها فأرسل فنسلمها^(٧٩). وبادر الخاقان بإرسال أخته إلى زوجها معززة مكرمة، وأرسل معها حاجبه ثيوفيلاكطوس Theophylactos وابنه نيبوريوس فتوج كليهما بتاج الملك وجلسا معه على العرش^(٨٠)، وبذلك يكون خاقان الخزر قد أبدى رغبة صادقة فى نسيان ما فعله مع الإمبراطور من قبل من ناحية، وفتح صفحة جديدة فى العلاقات بين مملكته وبيزنطة من ناحية أخرى.

وهكذا تولى جستنيان العرش للمرة الثانية (٧٠٥-٧١١م) ونظرا لما تميز به حكمه القديم من استبداد خلال فترة اعتلائه للعرش فى المرة الأولى (٦٨٥-٦٩٥م) فقد قابله أهالى الإمبراطورية بالكراهية والعداء، ويقال أنه كان يخفى التشويه^(٨١). الذى حدث له بارتداء أنف صناعية، كما كانت زوجته ثيودورا الخزيرية أول إمبراطورة بيزنطية يعود أصلها إلى هذه القبيلة البربرية التى تقع فيما وراء تخوم الإمبراطورية كما كانت بزواجها من الإمبراطور جستنيان الثانى محطمة للتقاليد البيزنطية^(٨٢).

(٧٩) محبوب المنجى: كتاب العنوان، المنشور فى مجموعة أعمال الآباء الشرقيين.

Patrologia Oriental., Vol. viii, pp. 497-8.

(٨٠) Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 575.

Dunlop : op. Cit., pp. 172-3.

زبيدة عطا : المرجع السابق، ص ١٧.

(٨١) قدمت العملات الخاصة بهذا الإمبراطور الشكل الباهى لوجهة الرفيع وذقنه البارز الشبيه، ومن الجدير بالإشارة هنا أن العملات الخاصة بفترة اعتلائه الثانية لم تظهر أى تلميح أو إيماء عن تشويه أنفه. وذلك لأن رسم تشويه الإمبراطور على العملات، لم يكن يتفق مع مثاليات

ومبادئ الفن البيزنطى. انظر: Head: Imperial Byzantine Portraits, p.49.

(٨٢) Ibid: p. 48.

ولكن يبدو - كما سنرى - أن جستنيان كان ناقما على أهالي شبه جزيرة القرم، خاصة أهالي مدينة خرسون وهى المدينة التى نفى فيها ومدينة البسفور، ولم يكن راغبا فى نسيان الماضى خاصة ما عاناه من تجربة الإذلال التى عاشها أثناء نفيه، ففى سنة ٧١٠م قرر الانتقام من أهل خرسون فجمع سفنا من كل صنف ولوازما ومعدات أعدها لهذا الغرض، كما جمع إعانات وضرائب خاصة من جميع أهالي العاصمة^(٨٣) وأعد أسطولا ضخما يحمل نحو مائة ألف من الرجال، وكانوا من العسكريين والمدنيين والفلاحين وأصحاب المهن الأخرى وآخرون من رتبة الشيوخ، وجعل هؤلاء جميعا تحت قيادة البطريك أستيفانوس (الملقب اسمكتس Asmictus)^(٨٤) وأمره أن يضع السيف فى جميع سكان خرسون والبسفور والمناطق المجاورة، كما أرسل معه اثنين من كبار القادة وهما الياس Elias الذى طلب جستنيان تنصيبه حاكما على خرسون بعد خلع حاكمها. والثانى هو المدعو باردانس Bardanes الأرمني الذى كان منفيًا هناك من قبل وأعادَه جستنيان إلى العاصمة^(٨٥).

والواقع أن جستنيان كان راغبا فى تحقيق أهداف أخرى من هذه الحملة لا تستطيع المصادر المتاحة بين أيدينا أن تلم بها إلما ما كافيًا. إذ ليس من المعقول أن يرسل جستنيان مثل هذه الحملة الضخمة لمجرد الإنتقام من سكان تلك المناطق وخلع حاكم خرسون وتنصيب حاكم آخر، فهذه الأمور كلها كان يمكن أن تتحقق بقوة أصغر من ذلك بكثير، وقد أثارت هذه الحملة الضخمة دهشة المؤرخين وجعلتهم يتساءلون: هل كان هناك تهديد خطير فى ذلك الوقت من جانب الخزر؟ أم أراد جستنيان استرجاع الممتلكات البيزنطية التى استولى عليها الخزر؟ أم أنه

(83) Brooks: op. Cit., Vol. ii, p. 412.

(84) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 946.

Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 578.

(85) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 946.

كان يخشى أن يمد الخزر نفوذهم إلى مناطق تهدد الإمبراطورية، أم أنه أراد أن يضع الخزر في وضعهم وحجمهم الطبيعي ولو اضطر لخوض حرب ضدهم^(٨٦).

من المعروف أن بيزنطة منذ زمن بعيد قد أظهرت اهتمامها بالشواغل الشمالية للبحر الأسود ومارست نوعاً من السيادة على ثغر خرسون الاستراتيجي الواقع في القرم، خاصة أن تلك المنطقة تتميز بأهمية اقتصادية وسياسية ودينية جدية بالاعتبار^(٨٧)، وفي فترة سابقة تمكن الأتراك من تطويق مدينة البسفور والاستيلاء عليها، غير أن بيزنطة تمكنت من استردادها مرة أخرى سنة ٥٩٠ م^(٨٨)، وفي نفس العام وضعت بيزنطة سياسة صداقة ثابتة مع دولة الخزر التركية، وظلت هذه السياسة حجر الزاوية في سياسة بيزنطة^(٨٩)، ومن جهة أخرى فإن جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥ م) عمل دائماً هو وخلفاؤه على تحصين مدينتي خرسون والبسفور للمحافظة عليهما ضد هجمات الخزر وكانت هاتين المدينتين على جانب كبير من الأهمية والرخاء باعتبارهما محطات نهائية لتجارة الفراء من جهة ونهايات لطرق تجارة الحرير الآتية من الشمال من جهة أخرى^(٩٠).

مما سبق يتضح لنا أن النزاع القديم على خرسون والقرم بين بيزنطة والخزر، يرجع إلى أهمية تلك المنطقة، ويبدو أن الظروف التي مرت بها بيزنطة في هذه الفترة زادت من نفوذ الخزر، وفي هذا الصدد أشارت الروايات البيزنطية إلى الوجود الخزري والموظفين الخزريين الذين يمثلون الخاقان في فاناغوريا التابعة

(86) Dunlop: op. Cit., p. 174.

(87) Hussey (J.M): The Byzantine World (New York, 1961), p. 41.

والترجمة العربية: هسي: العالم البيزنطي، ص ١٥١.

ترجمة: رأفت عبد الحميد.

(88) Barthold: Four studies on the Hist. Of central Asia, Vol. 3, p.86.

(89) Lewis: op. Cit., p.33.

(90) Ibid: p. 42.

لاملاك بيزنطة والبسفور، كما كان للخزر حاكم فى خرسون يسمى تودون Tudun^(٩١)، ولا شك أن مملكة الخزر أرسلت ذلك الحاكم بعد خروج جستنيان الثانى من تلك المدينة وعودته مرة أخرى للعرش، ربما فى سنة ٧٠٤م، وبهذا الإجراء زاد نفوذ الخزر فى تلك المنطقة، ووقعت فى أيديهم أملاك بيزنطة، كما أن الأحوال السيئة التى مرت بها بيزنطة فى الفترة الأخيرة تركت لهم الجبل على الغارب لمد نفوذهم إلى أبعد مما كانوا يأملون.

ولهذا فإن من المؤكد أن حملة جستنيان الثانى على شبه جزيرة القرم لم تكن هدفها الجوهري الانتقام من سكانها فقط - كما ذكرت المصادر المتأخرة التى بين أيدينا - ولكنها كانت تهدف فى المرتبة الأولى إلى استعادة الممتلكات البيزنطية التى استولى عليها الخزر من ناحية، وتأمين الممتلكات البيزنطية التى كانت مهدده بالضياع^(٩٢).

وكيفما كان الأمر فبعد أن تلقت الحملة أوامرها كما ذكرنا آنفا انطلقت بقيادة ستيفانوس إلى تلك المناطق، ونجحت القوات الحربية البيزنطية فى الاستيلاء على خرسون دون مقاومة، كما نجحت فى أسر التودون الحاكم الخزرى وزوبليس Zoilus قاضى المدينة وحوالى ثلاثين آخرين من أعيانهم، وتم إرسالهم مكبلين بالأغلال مع زوجاتهم وأبنائهم، وقد أمر جستنيان بربط أمراء خرسون على عروق خشبية وسياخ ثم شويهم. كما أن زعماء آخرين من مدن مجاورة بلغ عددهم نحو عشرين تم وضعهم فى أجولة وربطها بحجارة ثقيلة وألقى بهم فى البحر^(٩٣).

(٩١) Theophanis : op. Cit., Vol. I, p. 578.

ذكر نيقفورس أن اسم هذا الحاكم الخزرى دونس Duns انظر :

Nicephorius : op. Cit., Tomus. C, p. 946.

(٩٢) Dunlop: op. Cit., p. 174.

(٩٣) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 946-7.

Theophanis : op. Cit., Vol. 1, p. 578-9.

Brooks: op. Cit., Vol. ii, p. 413.

وكان أن أصدرت الأوامر للحملة بالعودة فوراً إلى بيزنطة محملة بالأسرى، ولا توجد أسباب دفعت جستينيان إلى إصدار أمره بعودة الحملة على وجه السرعة سوى أنه استاء من ستيفانوس حيث إنه أبقى العديد من الشبان على قيد الحياة ولم يتعرض لهم بالقسوة. وعلى الرغم من أن الوقت كان غير مناسب للإبحار بهذا العدد الكبير من الأسرى والرجال، إلا أن قادة الحملة لم يكن أمامهم إلا الطاعة للإمبراطور، فما كادوا يبحرون حتى صادفتهم عاصفة هائلة حطمت معظم سفن الأسطول، وراح ضحيتها ثلاث وسبعين ألفاً من الأنفس - طبقاً لما ورد في المصادر - ، وطفت جثثهم على المياه في المنطقة الممتدة بين أماستريد Amastride وهرقليا، وحينما علم جستينيان بذلك لم يأسف، بل شعر بفرح عظيم! وشرع في إعداد أسطول آخر ليسوى خرسون بالأرض^(٩٤).

أما بالنسبة لأهالي خرسون وبعد الكارثة والمأساة التي ألمت بهم وبرجال الحملة وأهالي البلاد المجاورة لشبه جزيرة القرم، قرر هؤلاء حينما علموا عزم جستينيان الثاني إرسال حملة أخرى. قرروا الاجتماع بخصونهم، وتقوية دفاعاتهم وعزموا على المقاومة، وأرسلوا وفداً إلى الخزر طالبين النجدة وتحالفوا ضد الإمبراطور جستينيان الثاني وأعلنوا الثورة، وتبعهم الجيش والأسطول على رأسهم رجلى الإمبراطور اللذين أرسلهما وهما الياس وباردانس^(٩٥) ولا شك أن ما دفع قادة الحملة إلى هذا التصرف يرجع إلى ما أبداه جستينيان الثاني من تبلد تجاه الكارثة التي ألمت برجال الحملة.

Oman: op. Cit., p. 180.

^(٩٤) Nicephorius : Breviarium Historicum De Rebus Gestis Post Imperium Mauricii., in Patrologia Graec., Tomus. C, p. 947.

^(٩٥) Theophanis : Chronographia, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Vol. I, p. 579.

Nicephorius : op. cit., Tomus. C, p. 947.

Ostrogorski: op. Cit., p. 127.

وحينما وصلت هذه الأخبار إلى العاصمة، قرر جستنيان تغيير موقفه وبادر بإرسال بعثة على رأسها البطريرك جريجوريوس ويوحنا وإلى المدينة وبعض الأمراء الآخرين ونحو ثلاثمائة رجل وكلفهم بمهمة إعادة حاكم الخزر التودون وزويلس لمنصبهما، والعودة بالياس وباردانس، والناجين الباقين على قيد الحياة من رجاله^(٩٦). ولا شك أن تغير موقف جستنيان إزاء الخزر إنما يرجع بالضرورة إلى إدارته خطورة الموقف، وأن الصدام مع خاقان الخزر في تلك الظروف أصبح وشيكاً، وإن حدث سوف يعود على الإمبراطورية بأوخم العواقب، كما أن موافقته على إعادة الحاكم الخزري إلى منصبه إنما هو ترجمة لمحاولة إعادة العلاقات الطيبة مع الخزر واعتذار مقنع من جستنيان للخزر ورغبة أكيدة في كسب ود وعطف الخاقان، أما فيما يختص بمهمة إعادة الياس وباردانس إلى الإمبراطورية إنما يرجع إلى سخط الإمبراطور الشديد عليهما حينما قررا طرح طاعته وأعلننا مناوئته والثورة عليه مع أهل شبه جزيرة القرم.

وعندما وصلت البعثة إلى مدينة خرسون، رفض أهالي تلك المدينة الاستماع إليها، ثم ما لبث الأهالي أن فتحوا الأبواب وسمحوا بدخول جريجوريوس ويوحنا وأغلقوا الأبواب ولقى الاثنين حتفهم، في حين أرسلوا الباقين وكانوا نحو ثلاثمائة إلى خاقان الخزر ومعهم حاكم الخزر على خرسون التودون ومعه زويلس، ولكن حاكم الخزر مات أثناء الطريق. ولما وصل الباقون إلى الخاقان أقام حفلاً جنازياً للتودون، وقتل الثلاثمائة انتقاماً لأجله^(٩٧).

(٩٦) Nicephorius : op. cit., Tomus. C, p. 947.

Theophanis: op. cit., Vol. I, p. 580.

Dunlop: op. Cit., p. 175.

(٩٧) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, 947.

Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 580.

Brooks: op. Cit., Vol. ii, p. 413.

وبعد قتل سفراء جستنيان الثاني، خطت الثورة في شبه جزيرة القرم خطوة أخرى على جانب كبير من الخطورة، إذ لم يكتفى المتمردون من رجال البعثة البيزنطية بالثورة على جستنيان الثاني وتوجيه لعناتهم إليه، بل قرروا المناداة بإمبراطور موال لهم من بينهم، ووقع اختيارهم على باردانس الأرمني الأصل وبايعوه إمبراطورا واتخذ لقب فيليبكوس Philippicus (٧١١-٧١٣م) في ظل حماية الخزر^(٩٨).

ونتيجة لذلك اشتد سخط جستنيان الثاني بعد هذه الخطوة وأمن في الانتقام من أسرة قائده الياس في بيزنطة، حيث أخذ أطفاله الرضع من أمهم وعذبهم عذابا شديدا وقتلهم، ثم جاء بأحد الطهاة وكان من الهنود المشوهة أعضاء جسمه وألزم زوجة الياس بالزواج منه^(٩٩)، وتشير بعض الروايات إلى أن جستنيان أمره بالاعتداء عليها. كما ارتكب جستنيان عددا من الجرائم ضد العديد من الأبرياء في العاصمة وشرع في تجهيز حملة ضخمة زودها بكل أدوات التدمير والحصار وجعلها تحت قيادة البطريك ماروس Maurus. وأمره أن يدمر خرسون عن آخرها، وإتعاء النفوذ الخزري في شبه جزيرة القرم، وفعلا عبرت الحملة البحر الأسود واستولت على قلعة سونا جروس وحاصرت خرسون سنة ٧١٠م وأخذت تقذف أبراجها ودفاعاتها الرئيسية إلا أن عنف المقاومة ووصول نجدة خزرية إلى المدينة أوقف أعمال التدمير^(١٠٠).

^(٩٨) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, 947.

Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 580.

Head: op. Cit., p. 52.

Brehier: op. Cit., p. 71.

Gibbon: op. Cit.; Vol. ii, p. 167.

^(٩٩) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, 947.

Dunlop: op. Cit., p. 176.

^(١٠٠) Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 581.

Brooks: op. Cit., Vol. ii, p. 413.

Obolensky: op. Cit., p. 171.

وفي القتال الذي دار بين أهالي خرسون والخزر وبين الحملة البيزنطية الأخيرة التي أرسلها جستنيان الثاني لتأديب أهالي خرسون، أحس باردانس فيليكوس الثائر على الإمبراطور البيزنطي بحرج موقفه، فانسحب هاربا إلى بلاد الخزر^(١٠١) غير أن الأوضاع ما لبثت أن صارت في اتجاه آخر فقد أحس البطريرك ماروس بعجزه عن مواصلة حصار المدينة والاستيلاء عليها نظرا لوصول النجدة الخزرية التي أنقذتها من هلاك محقق، في الوقت الذي لا يستطيع العودة إلى سيده الإمبراطور خائبا خشية أن يناله العقاب والتنكيل، ولذلك قام ماروس بخطوة على جانب كبير من الأهمية إذ قرر التصالح مع أهل خرسون وشاركهم في الخروج على طاعة جستنيان ولم يكتف بذلك، بل اعترف هو وجنوده بفيليكوس إمبراطورا^(١٠٢).

بعد ذلك تقدم القائد البيزنطي ماروس وجيشه إلى خاقان الخزر وأعرب عن ترحيبه بالإمبراطور الجديد فيليكوس وطلب من خاقان الخزر أن يرافقه فيليكوس إلى العاصمة ليتسلم العرش البيزنطي، إلا أن الخاقان رفض تسليم ضيفه إلى مواطنيه إلا بعد أن يتعهدوا بعدم اغتياله، ويؤدوا يمينا بأن لا يمس بسوء، ويدفعوا مبلغا من المال^(١٠٣). ضمانا لسلامته ولم يجد البيزنطيون غضاضة في ذلك فبادروا بدفع المبلغ المطلوب وتسلموا الإمبراطور الجديد وجرى استقباله استقبالا حافلا من قبل رعاياه^(١٠٤).

= Dunlop: op. Cit., p. 176.

(101) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, 947.

Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 581.

Rosenthal: Art. Chazar, Vol. iv, p.5.

(102) Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 581.

Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 947.

Head: op. Cit., p. 52.

(103) يذكر نيقفورس أن خاقان الخزر تسلم منهم مائة درهم ذهبية، بينما ذكر نظيره اليوناني ثيوفانيس أن الخاقان أخذ درهما عن كل رجل.

(104) Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 581-582. =

ويبدو أن خبر تلك الأحداث وصل سريعا إلى جستنيان، فطلب المساعدة مرة أخرى من تربل ملك البلغار، ولكن الوقت قد فات حيث تمكن فيليبكوس من الوثوب إلى القسطنطينية دون أدنى مقاومة. بينما كان جستنيان خارجها وقطع القائد البيزنطي ماروس رأس تمبر يوس الصغير - ابن جستنيان - وعلقه على أحد البوابات المركزية في المدينة، وأرسل الياس للقبض على جستنيان على رأس قوة صغيرة، وتمكن الياس من القبض عليه وقطع رأسه بعد أن تخلى عنه جنوده وأرسلها إلى فيليبكوس الذي أرسلها بدوره إلى روما وفيينا إمعانا في التشفي منه.^(١٠٥) وبذلك تكون العقوبة التي جرى اتخاذها في القرن السابع وهي عقوبة جددع الأنف Rhinotmetus، لم تعد لها أهمية، ولم يجر تنفيذها مستقبلا على الملوك المعتصبين أو المخلوعين^(١٠٦). وبذلك تكون أسرة هرقل قد انتهت، كما انتهت حلقة هامة من حلقات الصراع بين البيزنطيين والخزر.

والحقيقة أن البعض يعتبر أن قسوة جستنيان وعنفه في الانتقام من خرسون قد رمت بالممتلكات البيزنطية في شبه جزيرة القرم في أيدي الخزر^(١٠٧). غير أنه ينبغي ألا ننسى، أن خاقان الخزر كان يلعب دورا كبيرا على مسرح الأحداث بشبه جزيرة القرم. كما أن سلطته كانت آخذة في الازدياد شيئا فشيئا، وليس أدل على ذلك من أن الخاقان حينما تخلى عن جستنيان الثاني جعل سقوطه أمرا مؤكدا في حين أن فيليبكوس لم يكن يستطيع البقاء دون معاونته. وليس من المبالغة القول أنه

= Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 947.

Dunlop: The History of the Jewish Khazars, p. 176.

Brooks: The Successors of Heraclius to 717 in Cambridge Medieval History, Vol.ii, p. 413.

(105) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 947-950.

Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 583.

(106) Ostrogorski: op. Cit., p. 126.

Head: op. Cit., p. 53.

(107) Obolensky: The Byzantine Commonwealth, p. 171.

كان بوسع خاقان الخزر في تلك الحقبة أن يرفع حاكما جديدا في بيزنطة، ويمنح البيزنطيين إمبراطورا جديدا، بعد أن أصبح للخزر في سنة ٧١١م (٩٢هـ) وجود فعلى على سواحل البحر الأسود، وكان نفوذهم قد تطرق إلى هذه الجهات قبل ذلك بعقود عديدة^(١٠٨).

ولم تكن العلاقات البيزنطية الخزرية آنذاك قاصرة على النواحي السياسية فحسب، بل تعدت ذلك بكثير لا سيما فيما يختص بالنواحي الدينية. وكانت بيزنطة ترقب ما يجرى بدولة الخزر من تغييرات دينية، خاصة أن فترة القرنين السابع والثامن الميلاديين، كانت فترة تنافس بين الديانات السماوية اليهودية والمسيحية والإسلام للانتشار بين الخزر، ويبدو أن مملكة الخزر كانت تفضل اليهودية من فترة سابقة، لذا فقد بادر جستنيان الثاني سنة ٦٩٢م بعقد مجمع ترولان الديني Trullan لمعالجة قضية اليهودية، وصدر عن هذا المجمع بيان يدعو إلى استئصال شأفة اليهودية^(١٠٩). وقد كان ذلك صدى لما يجرى بدولة الخزر من انتشار اليهودية، وستعرض لهذا الموضوع فيما بعد.

– علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور ليو الثالث الأسيورى:

كانت هجمات العرب قد زادت على القسطنطينية، وكان على عرش الإمبراطورية البيزنطية في ذلك الوقت الإمبراطور ليو الثالث الأسيورى (٧١٧-٧٤١م) الذى تميز بشخصيته القوية وكفاءته العسكرية، وكان المسلمون يفكرون فى الاستيلاء على القسطنطينية، حيث كان لذلك ضرورة سياسية وحربية، ونجح المسلمون سنة ٧١٧م (٩٩هـ) فى حصارها بقيادة مسلمة بن عبد الملك لمدة سنة

(108) Dunlop: op. Cit., p. 174.

(109) Ibid: p. 177.

كاملة، ارتدوا بعدها سنة ٧١٨م دون أن يحققوا غرضهم، بفضل مهارة الإمبراطور ليو ومناعة العاصمة وظروف أخرى حالت دون سقوطها^(١١٠).

وفى تلك الأثناء تجدد الصدام بين الخزر وجيوش الخلافة الأموية، وهو الصدام الذى أسهبت فى ذكره المصادر العربية، وعرف باسم الحرب العربية الخزرية الثانية، وعلى الرغم من الهزيمة التى حاقّت بخاقان الخزر فى هذه الحرب، إلا أن الجيوش الإسلامية لم تستطع التوغل فى أراضي الخزر، وبعد سنوات من ذلك الصدام أقيم تحالف بين البيزنطيين والخزر، كان فى صورة زواج، حيث أقدم الإمبراطور ليو على اختيار أميرة خزرية زوجة لابنه قسطنطين وزوجه بها سنة ٧٣٢م (١١٤هـ)، مقيما بذلك حلفا مع الخزر ضد المسلمين، وكانت هذه الأميرة ابنة خاقان الخزر^(١١١) واسمها شيشاك Chichak، وجرى تسميدها عقب زواجها، وأطلق عليها إيرين Iren حيث لم تكن مسيحية، ويذكر ثيوفانيس أن هذه الأميرة قد تعلمت الرسالة المقدسة، وعرفت بالصلاح والتقوى^(١١٢) ولا بد أنه يقصد بالرسائل المقدسة التوراة العبرية التى يعتقد أنها تعلمتها فى بلاد الخزر^(١١٣).

على أن المسلمين لم يلبثوا أن واصلوا حروبهم فى آسيا الصغرى، ولكن الإمبراطور ليو الثالث نجح فى إنزال هزيمة بوية بالجيوش الإسلامية، التى حاولت

^(١١٠) السيد الباز العربى: الدولة البيزنطية، ص ١٨٨.

^(١١١) Nicephorius: op. Cit., Tomus. C, p. 966.

Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 630.

Hussy: op. Cit., p. 28.

Brehier: Vie et Mort de Byzance, p. 76.

Vasilive: History of the Byzantine Empire, Vol. ii, p. 338.

Bernard: A History of Russia, p. 41.

Franzius: hist. Of the Bazantine Empire, p. 14.

Koestler : The Thirteenth Tribe the Khazar Empire and its Heritage, p. 14.

Sinor: Art. , Khazar in the New Ency. Britanica, Vol. v, p. 788.

^(١١٢) Theophanis: op. Cit., Vol. I, p. 631.

^(١١٣) Dunlop : op. Cit., p. 177.

غزو آسيا الصغرى سنة ٧٤١م (١٢٢هـ)، وقد ساعدت ليو الأيسورى على تحقيق هذا الانتصار المساعدة الكبيرة التى تلقاها من مملكة الخزر^(١١٤) وبذلك يكون الإمبراطور ليو الأيسورى قد حصد ثمرة تحالفه مع الخزر.

ولقد ذكر المؤرخ اليونانى زوناروس^(١١٥) Zonaros عن الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٨٥م) الذى تولى عرش الإمبراطورية خلفا لوالده (بأنه لم يكن مسيحيا ولا هيلينيا (وثنيا) ولا يهوديا خالصا ولكنه كان مزيجا من الإلحاد وعدم التقوى، "ويذكر أيضا زوناروس أن قسطنطين قد تأثر بأفكار زوجته الخزرية، فأصبح يهوديا إلى حد ما". ولعل كل هذه الدلائل تشير إلى وجود اليهودية بين الخزر فى وقت زواج قسطنطين من تلك الأميرة الخزرية.

وقد أحدثت الأميرة الخزرية زوجة قسطنطين فى البلاط البيزنطى زيا جديدا، حينما قدمت ردائها العالمى الذى كان يطلق عليه تريززاكيون Tzitzakion^(١١٦). وثمة رمز حتى لوضع ونفوذ الخزر فى الإمبراطورية البيزنطية تمثل فى الإمبراطور ليو الرابع، ثمرة زواج إيرين من قسطنطين وقد لقب بليو الخزرى نسبة إلى أمه^(١١٧) التى ورث منها الرفعة والأدب والاعتدال^(١١٨) على أن إيرين ابنه خاقان الخزر قد توفيت، وظل قسطنطين ثلاثة أعوام دون زواج، وحاول بعض الدهاة أن يعزلوه، وأشاروا عليه على سبيل التجامل أن يتزوج، فقال لهم وهو عارف

(١١٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا فى العصور الوسطى، ص ١١٤-١١٥.

(١١٥) Epitomae Histariarum, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonnae, 1797), T. 3, p. 265.

(١١٦) Costantine Porphyrogenitus: De Cerimoniis Aulæ Byzantinae., in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (Bonnae, 1829), Vol. I, p.22.

(١١٧) Runciman : Byzantine Civilization, p. 44.

والترجمة العربية: رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص ٤٣.

ترجمة: عبد العزيز جاويد

بغدرهم "أن شريعة الروم غير خافية عني، واعتقد أن الملك خليق بأن لا تستعبده الشهوة، ومع هذا فإنني ممثّل مشورتكم إن رأيتم ذلك فرضاً واجباً بشرط أن تنادوا بابني إمبراطوراً"⁽¹¹⁸⁾ وفعلاً كان الإمبراطور القادم هو ليو الخزري الذي حكم الإمبراطورية البيزنطية من سنة ٧٢٥ إلى ٧٨٠ م.

ولكن الشيء الذي يدعو إلى الدهشة ما وجدناه في إحدى مؤلفات المؤرخ البيزنطي قسطنطين بورفيروجينيوس، الذي يتحدث عن أحد الأباطرة البيزنطيين ويدعى ليو الذي تزوج بأمرأة من الخزر، وفي مكان آخر كرر ما ذكره آنفاً حيث تحدث عن إمبراطور يدعى ليو خالف تعاليم الرب والكنيسة حين عقد تحالف مع خاقان الخزر وتزوج ابنته⁽¹¹⁹⁾ والحقيقة أن ما أورده ليس صحيحاً، حيث لا يوجد إمبراطور باسم ليو تزوج من أميرة خزرية، ولكن هناك ليو الثالث الذي زوج ابنه قسطنطين الخامس من تلك الأميرة المذكورة، وهناك أيضاً ليو الرابع المعروف باسم ليو الخزري نسبة إلى والدته الخزرية الأصل، وليست زوجته، أما ليو الثالث الأيسوري فقد تزوج من امرأة أثينية. وخلاصة القول أنه ليس هناك شك في أن قسطنطين الخامس هو الذي تزوج أميرة خزرية، أنجبت له ليو الرابع الذي عرف بالخزري نسبة إلى والدته. وقد أوقعت هذه الروايات الغير دقيقة المؤرخ الشهير جيبون في الخطأ

⁽¹¹⁸⁾ Rosenthal: op. Cit., Vol. iv, p. 5.

⁽¹¹⁹⁾ Bar Hebraeus : The Chronography of Gregory Abul Farai (trans by Budge). p; 113.

والترجمة العربية: ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٨.

ترجمة : اسحق أرملة.

⁽¹²⁰⁾ De Administrando Imperio, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, p. 83-87. and trans. By Junkins. p. 69-73.

والترجمة العربية لعمود سعيد عمران: إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ص ٦٧-٧٠.

فيما يختص بزواج أحد الأباطرة البيزنطيين من "زوجة بربرية" حيث ذكر أنه ليو، وأحيانا ذكر أنه قسطنطين الرابع (الذى لا بد وأن يكون الخامس)^(١٢١).

وعلى أية حال، فقد ظلت العلاقات البيزنطية الخزرية بقية القرن الثامن تتسم بالمودّة وحسن الجوار، حيث لم تشر المصادر إلى ما يعكّر صفو العلاقات بين الطرفين. ويبدو أن انشغال الخزر بحروبهم ضد المسلمين كان العامل الأكبر في بقاء جسور الصلات بينهم قوية، فضلا عن حرص الطرفين على أن يسود الوثام بينهما أمام عدو مشترك.

ومما يذكر أن القرم والبسفور وخرسون كانت ملجأ للهربان والمضطهدين في الإمبراطورية البيزنطية، كما أن قوط القرم كانوا خاضعين لسلطان الخزر، وفي النصف الثاني من القرن الثامن نظم أسقفهم القديس يوحنا St. John أبرز وأشهر أيقونى ثورة فاشلة ضد الخزر انتهت بحبسه، ثم هرب عن طريق البحر إلى أماستريا Amastris حيث مات هناك. ولقد استولى الخزر على العاصمة القوطية دوروس في فترة تعود إلى ما قبل سنة ٧٨٧م بقليل^(١٢٢) إلا أن الخزر لم يحتفظوا طويلا بها، فبعد سنوات قليلة وقعت تلك العاصمة في أيدي البيزنطيين^(١٢٣).

وتشير الروايات التاريخية أيضا إلى واحدة من المرات القليلة التي وقف فيها الخزر موقف العدو وليس الصديق تجاه الإمبراطورية البيزنطية، كما كانوا طوال الفترة الأخيرة لا سيما قرب أواخر القرن الثامن الميلادي حيث كان الخزر حلفاء للأبخاز وكان أحد ملوكهم ويدعى ليو الثاني قد تزوج من أميرة خزرية، واستطاع الأبخاز الاستقلال عن بيزنطة بمساعدة الخزر حيث قدموا لهم العون والتأييد^(١٢٤).

(121) Gibbon : op. Cit., Vol. ii, p. 534.

Dunlop : op. Cit., p. 178, n. 34.

(122) Obolensky: op. Cit., p. 174.

Bury: op. Cit., p. 409.

(123) Dunlop: op. Cit., p. 183.

(124) Barthold: Art. , Abkhaz, in Ency. of Islam, Vol. i. =

ولكن السلام ظل بين البيزنطيين والخزر، ذلك أن المبدأ الأول الذى ارتكزت عليه سياسة الإمبراطورية كان يقوم على تدعيم السلام مع الخزر، وكان هذا هو النتيجة المباشرة لموقع إمبراطورية الخزر الجغرافى الفريد بين الدنيبير والقوقاز. حيث كانت تقترب من تخوم البلغار والمسلمين^(١٢٥). وعلى الرغم من ذلك فإن نذر الحرب بين البيزنطيين والخزر كانت قائمة، لأن روح العصر كان يغلب عليه المصالح الخاصة وليست علاقات المودة والتفاهم، لذا فإن المؤرخ البيزنطى قسطنطين بروفيروجيتوس، يلخص لنا الدبلوماسية البيزنطية فى كبج جماع الخزر إذا ما تطلب الأمر، حيث يذكر أن الأتراك الغز يستطيعون مهاجمة الخزر لأنهم مجاورون لهم، ويستطيع أيضا الآن أن يلحقوا بالخزر الدمار، إذا ما فكروا فى الهجوم على أملاك الدولة البيزنطية^(١٢٦) ويؤكد ذلك أن هناك وثيقة بالعبرية تفيد بهجوم شنه الآن على بلاد الخزر بتحريض من البيزنطيين^(١٢٧).

علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور ثيوفيلوس:

ويبدو أن السلام كان يخيم على العلاقات البيزنطية الخزرية حيث تشير الروايات البيزنطية عن سفارة أرسلها خاقان الخزر سنة ٨٣٣م (٢١٨هـ) إلى الإمبراطور البيزنطى ثيوفيلوس Theophilus (٨٢٩-٨٤٢م) يطلب المساعدة لتشييد قلعة ساركل Sarkel الخزرية ولبنى الإمبراطور نداءهم وأرسل إليهم مهندسين وأرباب حرف مهرة على رأسهم السباتاروكانديدات Spatharocandidate وبتروناس كاماتيروس Patronas Camaterus الذى أشرف على بنائها على نهر

= Shirin Akiner : Islamic people of the Soviet Union, (London, 1983), p. 221.

(125) Bury: op. Cit., p. 414.

(126) Constantine Porphirogenitus: op. Cit., p. 80 – and trans by Junkins, pp. 63-5.

(127) Koestler: op. Cit., pp. 76-77.

الدون^(١٢٨). ويبدو أن هذا الطلب الخزرى من الإمبراطور البيزنطية كان طلبا استراتيجيا بحتا، ولكن الشيء الجدير بالملاحظة أنه ليس من المعروف بالضبط العدو الرئيسى الذى أقيمت من أجله هذه القلعة التى من شأنها صده وإيقافه، ويختلف المؤرخون المحدثون فى تحديد العدو الرئيسى، فبعضهم يجعل ذلك العدو أولئك القادمون الجدد على مسرح الأحداث، أعنى بذلك قراصنة الشمال الذين أطلق عليهم الروس، والبعض الآخر يشير إلى أنها أقيمت للدفاع ضد البجناك (البشناق) حيث خشى الإمبراطور البيزنطى على أمن التجارة البيزنطية فى تلك المنطقة، والبعض يرى أنها أقيمت للدفاع ضد المجر. ومهما يكن من أمر، فإن الاختلاف بين المؤرخين حول السبب الذى من أجله أقيمت قلعة ساركل، فليس من المبالغة إذا قلنا إن تلك القلعة أقيمت لصد خطر هذه الشعوب جميعا.

استمرت العلاقات البيزنطية الخزرية قائمة، إلا أن ظهور الروس كان يشكل خطرا جسيما على الإمبراطورية البيزنطية والخزر معا، وكانت قوة الخزر قد بدأ يعتريها الضعف، ولقد قام الأمير الروسى سفياتوسلاف (٩٦٢-٩٧٢م) سنة ٩٦٥م بحملة على الخزر وتمكن من هزيمتهم والاستيلاء على قلعة ساركل

(128) Constantinus Porphirogenitus: op. Cit., p. 177.

And trans by Junkins, pp. 183-5.

Cedrenus : op. Cit., Vol. ii, p. 528.

Mavor : An Economic History of Russia, (London, 1925), Vol. I, p. 14.

Art. Khazar, in Chambers's Ency. (London, 1973), Vol. vii.

Art. Khazar, in Harmswarth Ency. (London, 1906), Vol. vi.

Brutskus: op. Cit., p. 109.

Bury : A History of the Eastern Roman Empire, p. 416.

Greusset: L'Empire Des stepps, p. 236.

Ostrogorski: History of the Byzantine state, p. 184-185.

Macarthey : The Magyars in the ninth Century, p. 74.

Rosenthal : Art., Chazar in Jewish Ency., Vol. iv, p.5.

Klaproth : Memorie sur les Khazar, T. 3, in Journal Asiatique, p.

الخزرية^(١٢٦). وأغلب المؤرخين أشاروا إلى أن هذه الحملة كان فيها نهاية الخزر، والحقيقة أن تحطيم ساركل كان إيذانا بنهاية الخزر، وبدخولنا في القرن الحادي عشر تتغير المصالح والأهداف حيث كان التحالف البيزنطي الروسي ضد الخزر والذي تمثل في الأسطول الذي أرسله الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م) سنة ١٠١٦م إلى بلاد الخزر يعضده أسطول روسي، وكان على رأس هذا الأسطول القائد البيزنطي سفنكوس Sfengos، وتمكن الفريقان من السيطرة على إقليم خزريا والقبض على جورجيوس Georgios خان الخزر^(١٢٧) والحقيقة أن هذه الحملة جاءت نهاية لاستقلال الخزر بعد أن فقدت معظم أملاكها فأخذت تختفى رويدا رويدا من صفحات التاريخ.

ولم نسمع بعد ذلك إلا بإشارات بسيطة عن مملكة الخزر، حيث كانوا جيران لامارة طموطرخان، وتدخلوا في الفتن التي حدثت في تلك الإمارة سنة ١٠٨٣م^(١٢٨). كما أن المصادر الإسلامية لم تذكر شيئا عن الخزر واضمحلالهم، باستثناء ابن الأثير الذي ذكرهم في حوادث سنة ٤٢١هـ (١٠٣٠م) حين أغار القائد فضلون الكردي والى كنجة على الخزر الذين كمنوا له وباغتوه في طريق رجوعه وقتلوه^(١٢٩). وإن كان البعض يذكر أن الإغارة على الخزر من ناحية كنجة أمرا بعيد

(129) Machenzie & Curran : op. Cit., p. 33.

Summer : op. Cit., p. 35.

Weinryb (B. P.) : The Jews of Poland, (Philadelphia, 1973), p.21.

Hodgson (G. S): The Venture of Islam, (Chicago, 1974), p. 414.

Abnour: Histore Abreege Des Peuples De la Russie (Paris, 1909)p.29.

The Times Atlas of World History, p. 114.

Art. Khazars, in the standard Jewish Ency. (Jrusalem, 1958).

Art. Khazar, in the Ency. Americana (1829), Vol. 16.

(130) Cedrenus: op. Cit., Vol. ii, p. 464.

Grousset: L'Empire des steppes, p. 237.

Art. Chazar, in Chamber's Ency. (1923), Vol.3.

(131) Dunlop: op. Cit., p. 252.

الاحتمال لأسباب جغرافية، والأرجح أن الخزر قد ورد ذكرهم في هذا الموضع خطأ والمقصود هم أهل الكرج أو الأبخاز^(١٣٣). وبدخلونا في القرن الثالث عشر تجف موارد مصادرننا، ولم نسمع شيئا عن الخزر، وإن كان هناك بقية من بقايا الخزر، فقد اختفوا بظهور المغول واكتساحهم آسيا وأوروبا وإقامتهم لأكبر إمبراطورية بدوية رآها العالم والتي امتدت من الصين إلى هنغاريا.

(133) Barthold & Golden: Art. Khazar, in Ency. of Islam.

الفصل الثالث

مملكة الخزر

وعلاقتها بالمسلمين في القرنين السابع

والثامن الميلادى

- علاقة الخزر بالمسلمين في صدر الإسلام.
- علاقة الخزر بالمسلمين في عهد الدولة الأموية.
- علاقة الخزر بالمسلمين في عهد الدولة العباسية.

انتهت الحروب بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية بضعفهما وإنهك قواهما على أيدي جيوش كل منهما. وفي الصلح الذي تم بين القوتين سنة ٦٢٨م، انتهت مرحلة من الصراع المبرر بين الشرق والغرب.

وفي ذلك الحين - أي في أوائل القرن السابع الميلادي - وقعت في شبه الجزيرة العربية أحداث كان لها أهميتها العالمية وآثارها البعيدة، إذ ظهر محمد ﷺ نبي الإسلام في مكة، يدعوا الناس إلى وحدانية الله.

ولقد هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة سنة ٦٢٢م، فوجد أحزابا غير متجانسة، فعمل على توحيدها ووضع أسس وقواعد الدولة العربية الجديدة، فأخى بين المهاجرين والأنصار، ثم اتخذ النبي للدين الإسلامي مسجدا للصلاة ووضع نظاما للحياة الاجتماعية في المدينة، ثم شرع الجهاد في سبيل الله عندما وقف منه المكيون موقفا مضادا.

وكان لتشريع الجهاد أثر كبير بالنسبة للمسلمين بالمدينة، فقد أعطاهم صفة سياسية لم يتمتعوا بها من قبل. ذلك أنهم أصبحوا نواة الأمة العربية الإسلامية، عليهم أن يجاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الإسلام وجمع شتات العرب. ولتحقيق هذا الهدف السامي خاضوا غمار كثير من المعارك الحربية بقيادة النبي ﷺ، وهى ما عرفت بالغزوات.

ولقد نجح الإسلام في شبه الجزيرة العربية في أن يجمع القبائل العربية في صعيد واحد، حيث ألف بين قلوبهم وقضى على العصبية الجاهلية، وأنهى حالة الفوضى والتفكك السياسى، كما نجح في القضاء على النزاع القبلى، فزالت الحزازات القديمة، وأصبح للمسلمين في شبه الجزيرة العربية حكومة واحدة يدينون لها بالطاعة والخضوع، ويدينون بدين واحد، شعاره لا إله إلا الله محمد رسول الله،

بعد أن كانوا يدينون لرؤساء متفرقين، وبذلك قامت في بلاد العرب حكومة مركزية قوية في إيمانها وشخصيتها، وأصبحت القبائل العربية ترى في الإسلام رمز وحدتها وشعار مجدها وأمل مستقبلها.

ولما لم تكن الرسالة المحمدية موجهة للعرب وحدهم لأن الله أرسل محمدا شاهدا ومبشرا ونذيرا ليهدى الناس كافة عامة إلى دين الحق كما جاء في قوله تعالى: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون"^(١) وكما قال تعالى: "إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا"^(٢)، فقد كان الرسول ﷺ بعد أن اطمأن لانتشار الإسلام داخل شبه الجزيرة العربية، أن يدعو الأمم المجاورة لاعتناق هذا الدين الحنيف.

لذا فإنه في سنة ٦٢٨ م (٧هـ) بادر بإرسال كتب بأيدي سفراء ورسول إلى البلاد المجاورة. ولكن بعض هذه الأمم لم تعن بالرسالة الموجهة إليهم. ويبدو أن بعض الرسل الذين أوفدهم النبي ﷺ إلى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا إعراضا وامتهانا، مما دفع النبي إلى أن يعد العدة للغزو والجهاد. ومن ثم بدأت موجة الفتوح العربية.

ولم يتوقع البيزنطيون أو الفرس أن تخرج من شبه الجزيرة العربية جيوش فتية تهدد كيانهم وتبتلع أجزاء واسعة من العالم. وقد خرجت تلك الجيوش لنشر الإسلام والدفاع عن كيانه وتأمينه من أخطار الشعوب التي تحيط به.

على أن موجة الفتوح العربية لم تتخذ شكلها الكبير إلا عقب وفاة الرسول

ﷺ سنة ٦٣٢ م (١١هـ). وكان أبو بكر الصديق (٦٣٢-٦٣٤ م / ١١-١٣هـ) خليفة رسول

(١) القرآن الكريم: سورة سبأ، آية، ٢٨.

(٢) القرآن الكريم: سورة الفتح، آية ٨-٩.

الله قد بدأ عهده بمشكلة كبرى كادت تعصف بحكومته وتتسبب في انهيار الوحدة العربية والتي تمثلت في حركة الردة، ولكن المسلمين نجحوا في قمع هذه الحركة والقضاء عليها قضاء مبرما، وبسط المسلمون نفوذهم على سائر شبه الجزيرة العربية، واسترجعوا وحدتهم السياسية والدينية، واستعادت الدولة العربية الإسلامية قوتها التي تصدعت بعد وفاة الرسول ﷺ.

وبعد أن تم القضاء على حركة الردة، كان من الطبيعي أن يستشعر المسلمون كيانهم وقوتهم، فبدأوا يتطلعون إلى العالم المحيط بهم خارج نطاق شبه الجزيرة العربية، بغية نشر الإسلام ورفع رايته، ولقد بدأ الخليفة أبو بكر الصديق بالفعل في توجيه أنظار المسلمين إلى الفتح الخارجي حيث وجه الجيوش الإسلامية إلى كل من العراق والشام لتخليصها من يد الفرس والروم.

وبينما كانت الجيوش الإسلامية تخوض أشرس المعارك مع إمبراطوريتي الفرس والروم خشي الخليفة أبو بكر الصديق أن يختلف المسلمون لو تركهم بلا خلافة كما حدث بعد وفاة الرسول ﷺ، ولهذا أوصى بانتخاب عمر بن الخطاب خليفة له بعد استشارة وموافقة كبار الصحابة.

علاقة الخزر بالمسلمين في صدر الإسلام:

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤م / ١٣-٢٣هـ) استمرت الفتوحات الإسلامية العظيمة خارج شبه الجزيرة العربية، واتسعت الدولة العربية الإسلامية بعد الانتصارات الحاسمة التي حققتها الجيوش العربية الإسلامية على الفرس والروم.

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب أيضا وجه المسلمون أنظارهم إلى بلاد القوقاز، وكان بكير بن عبد الله الليثي أول من وصل إلى دربند الخزر وذلك في سنة

٦٤١م (٢١هـ)، حيث أفلح في فتح العديد من المدن والحصون بباب البواب، وأصطلح مع أهل دربند على مال يدفعونه للمسلمين^(٣).

وفي سنة ٦٤٢م (٢٢هـ) أمر الخليفة عمر بن الخطاب سراقه بن عمرو وكان يدعى ذا النور بالمسير على رأس جيش من المسلمين إلى بلاد الباب - المعروفة بالدربند -، وجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وكان يدعى أيضا ذا النور وجعل على أحد مجنبيه حذيفة بن سعيد الغفاري، وعلى الأخرى بكير بن عبد الله الليثي الذي كان قد سبقهم إلى الباب، وجعل على المقاسم سلمان بن ربيعة الباهلي، وتقدموا بناء على أوامر الخليفة إلى الباب^(٤).

ولما وطئت أقدام عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي أراضي الباب، طلب شهربراز ملك هذه البلاد مقابلة عبد الرحمن وقال له: "إنى بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة، لا ينسبون إلى أحساب، وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء، ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول، وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان، ولست من القبيح^(٥) فى شيء، ولا من الأرمن، وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى، فأنا اليوم منكم ويدى مع أيديكم وصغوى (ميلي) معكم، وبارك الله لنا ولكم، وجزيتنا إليكم النصر لكم، والقيام بما تحبون، فلا تذلونا بالجزية

(٣) حمد الله قزويني: تايخ كذيدة، ح-١، ص ١٨٠.

(٤) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ح-٤، ص ١٥٥.

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ح-٣، ص ١٤.

ابن الكثير: البداية والنهاية، ح-٧، ص ١٣٥.

دحلان: الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية، ح-١، ص ١٠٧.

Dunlop: The History of the Jewish khazars, p. 47.

(٥) القبيح: يقال القبيح والقبيح والقبيح، وهو عبارة عن جبل متصل بباب الأبواب وبلاد السان، وهو آخر حدود أرمينيا وكان له نحو اثنان وسبعون لسان، لا يعرف كل إنسان لغة صاحبه إلا بترجمان: انظر ياقوت: معجم البلدان، ح-٧، ص ٢٧.

فتوهنونا لعدوكم". وقرر القادة بعد أن عبر شهربراز عما يمكنه من سخط وكراهية الأمم القاطنة حوله، وعن نياته الحسنة تجاه المسلمين إعفائه من الجزية التي كان يرى فيها ما يشعره بالذلة بعد موافقة الخليفة على أن يعاون المسلمين^(١).

وفيما بعد جهز سراقه بن عمرو أربعة جيوش استهدف من ورائها فتح البلاد المحيطة بأرمينيا وهي اللان وتفليس وموقان^(٢)، ولما فتحها كتب إلى عمر بن الخطاب يبشره بالفتح. وفي غضون ذلك مات سراقه دون أن يهناً بفتوحه، وخلفه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، ولما علم الخليفة أقره على ذلك وأمره بغزو الترك^(٣).

وكان أول احتكاك فعلي بين المسلمين والخزر، عندما خرج عبد الرحمن بن ربيعة في سنة ٦٤٢م (٢٢هـ) على رأس المسلمين تنفيذاً لأوامر الخليفة، فقطع الباب وقابله هناك شهربراز حيث قال له: "ما تريد أن تصنع؟ أريد بلنجر، قال: إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب. قال: لكننا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم، وتالله إن معنا لأقوام لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغت بهم الروم. قال وما هم؟ قال أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الأمر بنية كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية، فازداد حياؤهم وتكرمهم، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم،

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، حـ٤، ص ١٥٦.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حـ٣، ص ١٤.

النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، حـ١٩، ص ٢٦٨.

(٢) موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعى، فأكثر أهلها منهم.

انظر - ياقوت: معجم البلدان، حـ٨، ص ١٩٩.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، حـ٤، ص ١٥٧-١٥٨.

النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، حـ١٩، ص ٢٦٩.

ابن كثير: البداية والنهاية، حـ٧، ص ١٣٥.

دحلان: الفتوحات الإسلامية، حـ١، ص ١٠٨.

ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلِبهم، وحتى يلقِثوا عن حالهم بمن غيرهم." وتمكن المسلمون بقيادة عبد الرحمن بن ربيعة من الوصول إلى بلنجر وغزوها حتى بلغت خيلهم مدينة البيضاء^(٩) على بعد مائتي فرسخ من بلنجر، وعاد السلمون دون أن يقتل منهم أحدا^(١٠). ومما يجدر ذكره أن المسعودي^(١١) قد ذكر أن بلنجر هي العاصمة الأولى للخزر.

وقد استمر عبد الرحمن بن ربيعة في قيادة العمليات الحربية الموجهة لبلاد الخزر، وبدأ القيام بسلسلة طويلة من الحملات شنها على الخزر والترك أدت إلى فرارهم إلى المناطق الشمالية من بلاد الخزر، ذلك أنهم أجبروا على التخلي عن مواقعهم، ولم يستطيعوا المقاومة والتصدي للجيش الإسلامي، حتى قالوا: "ما اجتراً علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت" وعاد عبد الرحمن مظفراً ومحملاً بالغنائم^(١٢).

(٩) البيضاء : مدينة بلاد الخزر خلف باب الأبواب.

انظر ، ياقوت: معجم البلدان، حـ٢، ص٣٣٦.

(١٠) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، حـ٤، ص١٥٨.

ابن الأثير : الكامل في التاريخ، حـ٣، ص ١٤-١٥.

النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، حـ١٩، ص ٢٦٩-٢٧٠.

ابن كثير: البداية والنهاية، حـ٧، ص١٣٦.

دحلان : الفتوحات الإسلامية، حـ١، ص١٠٨.

Dunlop: op. Cit., pp.49-50.

(١١) التنبيه والأشراف، ص ٦٣.

(١٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، حـ٤، ص١٥٨.

ابن الأثير : الكامل في التاريخ، حـ٣، ص ١٥.

ابن كثير: البداية والنهاية، حـ٧، ص١٣٦.

وفى شبه الجزيرة العربية وبعد وفاة عمر بن الخطاب سنة ٦٤٤م (٢٣هـ) تولى الخلافة عثمان بن عفان (٦٤٤-٦٥٦م / ٢٣-٣٥هـ)، وقد عمل الخليفة الراشد على توطيد نفوذ العرب فى كثير من البلاد التى تم فتحها، كما لم تنقطع سلسلة الفتوح التى بدأها المسلمون من قبل، بل تقدمت الجيوش فى عهده شرقا إلى فارس وغربا فى المغرب وجنوبا إلى النوبة وشمالا إلى أرمينيا.

وفى بلاد القوقاز كان عبد الرحمن بن ربيعة يواصل شن الهجمات على مدينة بلنجر الخزرية، ولم يترك الخزر ينعمون بالاستقرار لحظة، وكانت هجمات المسلمين تنزل وجودهم، وكتب إليه الخليفة عثمان وهو على الباب يأمره بعدم التوغل بجيش المسلمين ويبدو أن الخليفة خشى على المسلمين، وكره أن يخاطر عبد الرحمن بن ربيعة بالمسلمين فى منطقة لا يعرف طرقها ومسالكها، إلا أن ذلك لم يجعل عبد الرحمن يعرض عن غايته، ففى سنة ٦٥٢ / (٣٢هـ) تقدم على رأس جيشه حتى وصل بلنجر، وقام بحصارها ونصب عليها المجانيق والعرادات وقضى على كل من تعرض للمسلمين من الخزر. وكان قد شاع بين الخزر أن المسلمين قوم لا يقتلون على أساس أن المسلمين قد غزوه من قبل فلم يقتل منهم أحد، ولهذا ظنوا أنهم لا يموتون وقالوا: "كنا أمة لا يقرن لنا أحد حتى جاءت هذه الأمة القليلة فصرنا لا نقوم لها" (١٣).

(١٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ٤، ص ٣٠٤-٣٠٥.
وقد ذكر ابن أعم، أن قادة هذه الحملة سلمان بن ربيعة وليس عبد الرحمن بن ربيعة، أنظر:
ابن أعم : كتاب الفتوح، حـ٢، ص ١١١-١١٤.
كما ذكر أيضا البلاذرى، أن قائد هذه الحملة سلمان بن ربيعة ولم يذكر شيئا بشأن عبد الرحمن بن ربيعة. انظر:
البلاذرى : فتوح البلدان، ص ٢٠٦.
فى حين أن ياقوت لم يستطع أن يقرر من هو قائد هذه الحملة هل هو سلمان بن ربيعة أم أخيه عبد الرحمن بن ربيعة.
ياقوت: معجم البلدان، حـ٢، ص ٢٧٨.

ويروى أن خاقان الخزر حينما سأل عن عجز ثلاثمائة ألف خزرى من هزيمة عشرة آلاف مسلم قال: "أنه قد بلغنى عن هؤلاء القوم أنهم نزلوا من السماء وأن السلاح لا يعمل فيهم" وكان المسلمون قد تجمعوا عند أحد الأنهار لكى ينظموا صفوفهم استعدادا لهجوم على الخزر، وأقبل عليهم رجل خزرى يتجسس على جيش المسلمين، ووقع بصره على أحد المسلمين يغتسل وأحب أن يجرب السلاح أيعمل فيه أم لا، فرماه بسهم أرداه قتيلا فى الحال، فأحتر رأسه وجرده من ثيابه وجاء به أمام خاقان الخزر، وأقنعه بإمكان هزيمة المسلمين^(١٤). ولا شك أن الذى دفع الخزر إلى الاعتقاد بعد التغلب على المسلمين هو قوة المسلمين وعقيدتهم الراسخة التى تشكل لديهم الإرادة القتالية التى لا تقهر، عقيدة الجهاد فى سبيل الله للدفاع عن الدين وإعلاء كلمة الله.

وكان أن جمع خاقان الخزر قواته للقيام بحملة انتقامية من المسلمين، وتم اللقاء بين قواته وقوات المسلمين ونشب القتال بين الفريقين، وبلغ القتال أشده، فاخذت صفوف المسلمين وانهارت مقاومتهم وتشتت شملهم، وقتل عبد الرحمن بن ربيعة، وانهزم المسلمون وسقط عدد كبير منهم صرعى. ولم يستطع من بقى من المسلمين مواصلة القتال فانسحبوا من ميدان القتال، وتفرقوا فرقتين، فرقة اتجهت نحو الباب حيث التقوا بسلمان بن ربيعة الذى سيره سعيد بن العاص ليمد يد العون للمسلمين بناء على أوامر الخليفة عثمان، وفرقة اتجهت ناحية جيلان^(١٥) وجرجان^(١٦) وكان بها سلمان الفارسى وأبو هريرة^(١٧).

(١٤) ابن أعمش: كتاب الفتوح، حـ ٢، ص ١١٣-١١٤.

(١٥) جيلان: اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان.

انظر : ياقوت : معجم البلدان، حـ ٣، ص ٧٥.

(١٦) جرجان : مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان.

انظر : ياقوت : معجم البلدان، حـ ٣، ص ١٩٤.

(١٧) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ ٤، ص ٣٠٤-٣٠٥.

وقد بلغ عدد من قتل في تلك الواقعة أربعة آلاف مسلم، وفي ذلك يقول ابن جمانه الباهلي:

وإن لنا قبرين قبر بلنجر وقبر بصين استان يالك من قبر
فذاك الذي بالصين عمت فتوحه وهذا الذي يسقى به سبل القطر^(١٨)
ويذكر ياقوت الحموي^(١٩) أن الخزر لما قتلوا عبد الرحمن بن ربيعة
وأصحابه كانوا ينظرون في كل ليلة نورا على مصارعهم، فأخذوا جسد عبد الرحمن
ووضعوه في تابوت، "فهم يستسقون به إذا أصابهم القحط ويستنصرون به"، أما الذي
بالصين فهو قتيبة بن مسلم الباهلي.

وبعد تلك الهزيمة القاسية التي نزلت بالمسلمين أخذ سلمان بن ربيعة أخو
عبد الرحمن الراية، وحينما علم الخليفة عثمان بما حل بالمسلمين، أقلقته ذلك فبادر
بإرسال مدد للمسلمين، وكان على رأسهم حبيب بن مسلمة^(٢٠).

ولا شك أن الهزيمة التي لحقت بعبد الرحمن بن ربيعة وأدت إلى مقتله
ترجع إلى أنه خاطر بقواته دون أن يستعد الاستعداد الكافي، وقد سبق أن رأينا أن

= ابن الأثير : الكامل في التاريخ، حـ ٣، ص ٦٦.

النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، حـ ١٩، ص ٢٧٠.

ابن كثير : البداية والنهاية، حـ ٧، ص ١٣٦.

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، حـ ٤، ص ١٣٩.

Becker (C.H): The Expansion of the Saracense., in Cambridge Medieval History., (Cambridge,1980) Vol. ii, p.353.

Koestler : The Thirteenth Tribe the Khazar Empire and its Heritage., p.27.

(١٨) البلاذري : فوح البلدان، ص ٢٠٦.

(١٩) ياقوت : معجم البلدان، حـ ٢، ص ٢٧٨.

(٢٠) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، حـ ٤، ص ٣٠٥.

دحلان: الفتوحات الإسلامية، حـ ١، ص ١٠٩.

الخليفة عثمان بن عفان أشار عليه بعدم التوغل في بلاد الخزر قبل أن تصله الإمدادات العسكرية.

ومهما يكن من أمر، فإن الصراع الذي خاضه المسلمون مع الخزر في منطقة القوقاز والذي انتهى بهزيمتهم ومقتل قائدهم وفشلهم في الاستيلاء على بلنجر التي هاجموها مرارا، يعتبر نهاية أول احتكاك فعلي بين المسلمين والخزر^(٢١). وعلى الرغم من انتصار الخزر إلا أن المسلمين أرغموهم على الهجرة من دربند سنة ٦٦١م (٤١هـ) ونقل مركزا إمبراطوريتهم نحو الشمال^(٢٢) ويشير المسعودي إلى أن الخزر انتقلوا من سمندر عاصمتهم التي افتتحها المسلمون إلى مدينة آتل^(٢٣). ويرجع السبب في ذلك إلى إحساس الخزر بخطورة المد الإسلامي الأمر الذي دفعهم إلى البحث عن مكان أكثر أمنا، ولم يكن يتسنى ذلك إلا بالانتقال شمالا.

وقد عرفت الحروب السابقة التي دارت بين المسلمين والخزر عند المؤرخين المحدثين بالحرب العربية الخزرية الأولى (٦٤٢-٦٥٢م / ٢٢-٣٢هـ) وهي تعتبر حلقة هامة من حلقات الصراع بين مملكة الخزر والخلافة الإسلامية.

وفي الفترة التالية خيم السلام على القوقاز ما يقرب من ثلاثين عاما، لم يحدث فيها احتكاك بين المسلمين والخزر، حيث صمتت المصادر الإسلامية عن الإشارة إلى ذلك، ولم نسمع بحملة قام بها المسلمون ضد الخزر، ويرجع السبب في ذلك إلى الاضطرابات التي شغلت الخلافة الإسلامية بعد وفاة الخليفة عثمان بن عفان ٦٥٦م (٣٥هـ)، إذ حولت أفكار الفاتحين بعيدا عن تلك البلاد.

(21) Art. Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p.945.

(22) Sinor: Art. Khazar in the New Ency. Britt, Vol. v, 788.

(23) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ص ١٥٣.

علاقة الخزر بالمسلمين في عهد الدولة الأموية:

لقد حدثت فتنة في أواخر عهد عثمان ومات بسببها ثالث الخلفاء الراشدين، ولم تخدم نار الفتنة في عهد الخليفة الراشد على بن أبي طالب الذي تولى الخلافة سنة ٦٥٦م (٣٥هـ) وفي النزاع الذي دار بين على معاوية بن أبي سفيان حول الخلافة، انتهى الأمر بقيام الدولة الأموية سنة ٦٦١م (٤١هـ). وصار معاوية خليفة للمسلمين (٦٦١-٦٨٠م / ٤١-٦٠هـ) واتخذ دمشق مقراً له. وفي عهده استؤنفت الفتوحات الإسلامية. ولكنها لم تكن موجهة إلى بلاد القوقاز، بل عاود المسلمون مهاجمة القسطنطينية موطن قوة الدولة البيزنطية.

وهنا نلاحظ أن العلاقات البيزنطية الخزرية في ذلك الوقت كان يغلب عليها المودة وحسن الجوار، ففي عهد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٥م) بدأ معاوية يوجه أقوى الضربات للإمبراطورية البيزنطية، حيث انطلق في سنة ٦٧٢م (٥٣هـ) أسطول ضخم وجيش كبير من بلاد الشام ومصر وحاصر القسطنطينية عدة سنوات (٦٧٣-٦٧٩ // ٥٣-٥٩هـ)، ولم ينقذها من السقوط في أيدي المسلمين سوى النار الإغريقية التي اخترعها المهندس السوري الأصل كالينقوس Callinicus والتي أنزلت بالمسلمين خسائر جمة^(٢٤). وكان هذا الانتصار الذي حققه البيزنطيون على المسلمين أهمية كبيرة وآثاراً بعيدة المدى، فقد انتشر

(24) Lewis : Naval power and Trade in the Mediteranean AD 500-1100.? P.16.

Ostrogorski: History of the Byzantine state., p. 111.

Vasiliev : A History of the Byzantine Empire., Vol. I, p. 214.

Oman : The Byzantine Empire., pp. 170-171.

Diehl: Historie De L'Empire Byzantine., p. 53.

Vasiliev: Histoire De L'Empire Byzantine, T. 1, p. 283.

سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى. ص ١٣٣.

خبر انتصار قسطنطين في جميع أنحاء العالم وأرسل خاقان الآفار ورؤساء القبائل الصقلية في شبه جزيرة البلقان سفرائهم إلى القسطنطينية وطلبوا إقامة علاقات مودة وسلام بعد أن أعلنوا ولائهم للإمبراطور البيزنطي^(٢٥) كما أتى أيضا رسل من الفرنجة البعيدين والخزر لتهنئة الإمبراطور قسطنطين على هذا الانتصار الذين اعتبروه قد أنقذ العالم المسيحي في الشرق من العرب^(٢٦).

ومن جهة أخرى، فقد عمل معاوية على أن تنحصر الخلافة في بني أمية، لذا فإنه حمل الناس على مبايعة ابنه يزيد بالخلافة، وبهذا تحولت الدولة من مبدأ الشورى إلى مبدأ الملكية الوراثية. وبعد وفاة معاوية سنة ٦٨٠ م (٦٠ هـ) تولى يزيد الخلافة (٦٨٠-٦٨٣ م/٦٠-٦٤ هـ) وانقسم المسلمون على أنفسهم لمعارضتهم فكرة التوريث، وما لبثت تلك المعارضة أن انقلبت إلى مقاومة وثورة، وقاد الثورة الحسين بن علي، ثم عبد الله بن الزبير. وكان طبيعيا ألا يوجه المسلمون أنظارهم إلى الفتح الخارجي في بلاد القوقاز.

ولم تستقر الأمور للأمويين إلا في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥ م/٦٥-٨٦ هـ) الذي استطاع التخلص من عبد الله بن الزبير سنة ٦٩٤ (٧٣ هـ). وفي السنوات الأولى من عهده تمكن الخزر من غزو أراضي جورجيا وأرمينيا وألبانيا، في الوقت الذي كان الجزء الجنوبي من القوقاز واقع تحت سيطرة المسلمين، وتمكن الخزر من إيقاع الهزيمة بأهل جورجيا وقتل أميرهم، كما تمكنوا من قتل جريجور ماميكونيان Grigor Mamikonian أمير أرمينيا دون أن يصادفوا أية مقاومة^(٢٧) الأمر الذي سبب للمسلمين صعوبات جمة في أرمينيا والقوقاز^(٢٨) ولا شك

(25) Vasiliev : A History of the Byzantine Empire., Vol. I, p. 215.

Ostrogorski: op. Cit., p. 112.

(26) Oman : The Byzantine Empire., pp. 170-171.

والترجمة العربية أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٣٤.

(27) Dunlop: The History of the Jewish Khazars., pp. 59-60.

=

أن الدولة البيزنطية قد استفادت من الغزوات التي قام بها الخزر ضد أرمينيا. فهم الذين كانوا يحرضون الخزر ضد المسلمين في أرمينيا، كما كانوا يحرضون البربر وغيرهم في إفريقيا والشام ضد المسلمين.

ونتيجة لذلك فقد قام عبد الملك بن مروان بتولية أخيه محمد بن مروان الجزيرة وبلاد أرمينيا وأذربيجان، فأعد محمد بن مروان جيشا قوامه عشرة آلاف من أهل الشام، وعهد به إلى عبيد الله بن أبي عدي، أحد قواده، وكلفه بقتال الخزر في أرمينيا. وبالفعل اشتبك المسلمون في أرمينيا، وفي هذه المرة كان الهجوم عنيفا قويا من جانب الخزر، فقد فيه المسلمون الكثير من الأموال والأنفس، وكان تلك الهزيمة بالغ الأثر على المسلمين^(٢٩).

وإزاء تلك الهزيمة قام محمد بن مروان بإعداد جيش آخر أسند قيادته إلى ابن أخيه مسلمة بن عبد الملك وأمره بالتوجه إلى مدينة الباب لقتال الخزر، وكان بها أكثر من ثمانين ألف من الخزر، وحاول المسلمون اقتحام المدينة بعد قتال استمر عدة أيام إلا أن محاولتهم باءت بالفشل لحصانة المدينة، ويروى أن أحد رجال الخزر الخائف على نفسه وأهله بعد أن أسلم دل المسلمين على موضع تمكن المسلمين من خلاله النفاذ إلى المدينة، ودار قتال عنيف انتهى إلى هزيمة ساحقة للخزر وفراهم خارج المدينة التي سقطت في يد المسلمين. على أن تلك المدينة لم تلبث أن وقعت فيما بعد مرة أخرى في أيدي الخزر بعد أن تركها المسلمون عائدين إلى أرمينيا محملين بالغنائم^(٣٠).

= Art. Caliphat, in New Ency. Britt., Vol.3, p. 699.

(28) Ostrogorsky: op. Cit., p. 139.

(29) ابن أعمش: كتاب الفتوح، ج ٦، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(30) ابن أعمش: كتاب الفتوح، ج ٦، ص ٢٩٥-٢٩٧.

وفى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٥ م / ٨٦-٩٦ هـ) لم تنقطع سلسلة الغارات التى كان أخوه مسلمة بن عبد الملك يشنها على الخزر حيث غزاهم فى سنة ٧٠٧ م (٨٩ هـ) حتى بلغ الدربند وتمكن من فتح العديد من الحصون والمدائن^(٣١). وتكرر ذلك مرة أخرى سنة ٧٠٩ م (٩١ هـ)^(٣٢).

وفى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠ / ٩٩ - ١٠١ هـ) أغار الخزر على أذربيجان سنة ٧١٧ م (٩٩ هـ) وأسفر ذلك عن مقتل كثير من المسلمين، فبادر الخليفة بإرسال حاتم بن النعمان الباهلى لصد الخزر، فتمكن من هزيمتهم والعودة بخمسين أسيرا^(٣٣).

(٣١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، حـ ٦، ص ٤٤١.

Dunlop : op. Cit., p. 60.

(٣٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ ٦، ص ٤٥٤.

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حـ ٤، ص ١١٩.

ابن كثير: البداية والنهاية، حـ ٩، ص ٨٩.

الذهبي : دولة الإسلام، حـ ١، ص ٦٣.

(٣٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، حـ ٦، ص ٤٥٤.

Dunlop : op. Cit., p. 60-61.

فى إحدى المناسبات جاء ذكر أحد هؤلاء الأسرى الخزريون الذين اندرجوا فى الدولة الإسلامية وهو إسحاق بن كنداجيق فى إحدى قصائد البحترى، يمدحه حين توج وقلد السيفين قائلاً:

شرف تزيد بالعراق إلى الذى عهدوه بالبيضاء أو ببلنجرا

وإسحاق بن كنداجيق وقيل كنداج اصله من بلاد الخزر، وهو من أشهر القواد الذين اعتمدت عليهم الدولة العباسية فى عهد الخليفة المعتمد (٨٧٠-٨٩٢ م / ٢٥٦-٢٧٩ هـ).

انظر البحترى: ديوان البحترى، حـ ٢، ص ٩٧٨.

وفى الوقت الذى كان المسلمون يقاتلون الخزر فى بلاد القوقاز، كانوا أيضا يحاربون البيزنطيين، ففي سنة ٧١٧م (٩٩هـ) فرضوا على القسطنطينية الحصار^(٣٣) وكان ذلك سببا فى إيجاد نوع من التقارب بين البيزنطيين والخزر لمواجهة عدو مشترك وهو المسلمون.

وعلى عهد الخليفة يزيد الثانى بن عبد الملك (٧٢٠-٧٢٤/١٠١-١٠٥هـ) قام المسلمون بقيادة ثبيت النهراى بغزو بلاد الخزر وأرمينيا، ودار قتال مرير انتهى بهزيمة ساحقة للقوات الإسلامية واستولى الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه، وعادت قلوب المسلمين متسترة حتى أقبلت الخليفة بالشام الذى أحزنه ما حل بهم، ووبخهم على هزيمتهم، وعاتب النهراى على تقصيره وهزيمته أمام الخزر، فقال النهراى: "والله يا أمير المؤمنين ما جئنا ولا نكبت عن لقاء أعداء الله، وقد لصقت الخيل بالخيول والرجل بالرجل ولقد طاعت حتى انقصف رمحى، وضاربت حتى انكسر سيفى، غير أن الله عز وجل يعمل ما يشاء ويحكم ما يريد"^(٣٤).

(33) Lewis: op. Cit., p.66.

Ostrogorski : op. Cit., p. 138.

Vasiliev: op. Cit., vol. I,p.236.

(٣٤) ابن الأعمى: كتاب الفتوح، حـ، ص ٢٨-٢٩.

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ، ص ١٨٦.

النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ، ص ٣٨١.

ابن خلدون: العبر وديوانل المتأدب والخبر، حـ، ص ١٨٠.

Shaban (M.A): Islamic History (London, 1984), Vol. I, p. 144.

جدير بالملاحظة أن كلا من ابن الأثير والنويرى وابن خلدون، قد ذكروا فى تلك انواقعة السابقة أن القفجاق ساعدوا الخزر فى الانتصار على المسلمين، ويبدو أن القفجاق جاء ذكرهم خطأ فى هذا الموضع وذلك أن القفجاق هم الكومان، أحد العناصر التركية التى نزحت من أواسط آسيا واقامت فى سهوب روسيا الجنوبية بعد البجناك والغز، ولم يظهروا إلا بعد القرن لعاشر الميلادى وقد عرفوا فى اللغة اليونانية باسم Koumanoi, Komanoi وفى اللاتينية Cumani, Comani وأطلق عليهم انجريون اسم Kun، بينما اشتهروا فى الحوليات الروسية باسم بولفتسى Polovtsy انظر:

Art. Cumans, in the New Ency. Britt., Vol . iii, p. 289.

Buss: Art. Cumans, in Lexicon Universal Ency., Vol. 5, p. 386.

والواقع أن المسلمين لم يأثروا جهداً في محاربة الخزر والوقوف أمامهم بشجاعة بغية نشر الدين الإسلامي في بلادهم. وقد نبهت تلك الهزائم المسلمين إلى شدة خطر الخزر وقوة بأسهم.

ونتيجة للهزيمة التي لحقت بالمسلمين في عهد يزيد الثاني بن عبد الملك طمع الخزر في البلاد الإسلامية، الأمر الذي جعل الخليفة يولي الجراح بن عبد الله الحكمي على أرمينيا، ويأمره بقتال الخزر^(٣٥). وأمدّه الخليفة بجيش ضخم فتقدم متوغلاً حتى وصل إلى مدينة بردعة^(٣٦) ثم عبر نهر الكر^(٣٧) وهناك علم الجراح أن بعض من دانوا له بالطاعة من أهل تلك الجبال هو أرييس بن بسباس ملك بلاد الكر قد كاتب ملك الخزر يخبره بتحركات المسلمين، فأمر الجراح مناديه أن ينادى "أن الأمير مقيم ها هنا ثلاثة أيام فاستكثروا من الزاد والعلف والحطب وما تحتاجون إليه"، فكتب أرييس إلى ملك الخزر بذلك وأشار عليه بالأيبرح موضعه، فلما جن الليل تحرك الجراح بجيش المسلمين متستراً تحت جناح الظلام، وتوجه إلى مدينة الباب حيث تجمع الخزر، وحينما وصل جيش المسلمين، لن تقع عيونهم على الخزر، إذ رحلوا عنها، فبث الجراح سراياه في البلاد والمناطق المجاورة فظفر بالغنائم^(٣٨).

(٣٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٠٨.

اليعقوبي: تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٣١٣.

دجلان: الفتوحات الإسلامية، ج ١، ص ١٧١.

(٣٦) بردعة: بلد في أقصى أذربيجان. انظر ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ١١٩.

(٣٧) الكر: نهر بين أرمينيا وأران يشق مدينة تفليس وبينه وبين بردعة فرسخان.

انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٧، ص ٢٣٧.

(٣٨) ابن أعمش: كتاب الفتوح، ج ٨، ص ٢٩-٣١.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ١٨٦-١٨٧.

التويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢١، ص ٣٨٢-٣٨٣.

وبعد ذلك عسكر الجراح بجيشه على مقربة من الران^(٣٩)، وعلمت الخزر بذلك فحشدت جموعاً ضخمة تولى قيادتها نارستيك بن خاقان الخزر، وتقاتل الفريقان قتالاً عنيفاً أسفر عن هزيمة ساحقة للخزر، وفرت فلولهم وتبعهم المسلمون يأسرون ويقتلون، وفي طريقهم أذعنت لهم كل مدينة وحصن بالطاعة^(٤٠).

ووصل المسلمون إلى بلنجر أقوى حصون الخزر والتي حصنها تحصيناً جيداً، حيث شددوا ما يزيد على ثلاثمائة عجلة^(٤١) بعضها على بعض حول حصنهم، وكانت تلك العجل أشد خطراً على المسلمين، حيث حاصروها دون جدوى، فوهب نفر من المسلمين أنفسهم وتعاهدوا على الموت، وتقدموا نحو تلك العجل، ووابل من سهام الخزر ترشقهم من فوق السور، حتى إذا اقتربوا من العجل تمكنوا من قطع الجبال التي تشدها، فانحدرت وتبعها سائر العجل، ودخل الجانبان في قتال مرير أحرز المسلمون خلاله انتصاراً رائعاً على الخزر وسقط الحصن في أيديهم وجميع ما فيه من غنائم^(٤٢).

= دحلان: الفتوحات الإسلامية، جـ ١، ص ١٧١.

(٣٩) الران : الران وأران واحد وهي ولاية واسعة من نواحي أرمينية، انظر: ياقوت: معجم البلدان، جـ ٤، ص ٢١٣.

(٤٠) ابن أعتم: كتاب الفتوح، جـ ٨، ص ٣١.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٤، ص ١٨٧.

(٤١) عجلة: بالتحريك، التي يجرها الثور، والجمع عجل وأعجال.

انظر: ابن منظور: لسان العرب، جـ ٤، ص ٢٨٢٣.

كما كان لملك الخزر حرية يطلقون عليها الجداة، انظر: ابن أعتم: كتاب الفتوح.

جـ ٨، ص ٦٧.

(٤٢) ابن أعتم: كتاب الفتوح، جـ ٨، ص ٣١.

دحلان : الفتوحات الإسلامية، جـ ١، ص ١٧١.

ويستفاد من الأرقام التي أوردها المؤرخون عن كميات الغنائم التي وزعت بعد انتصار المسلمين على الخزر وهي ثلاثمائة دينار لكل فارس في جيش كان قوامه بضعة وثلاثون ألفا من المسلمين، أن مدينة بلنجر كانت في وقت سقوطها في يد المسلمين بلدا واسع الثروة^(٤٣).

على أنه بعد هروب فلول الخزر أعاد الجراح إلى صاحب بلنجر أهله وماله وحصنه وكان الجراح يرمى من وراء ذلك اتخاذ عينا للمسلمين يخبرهم بتحركات الخزر والشعوب القاطنة في تلك المنطقة، ثم توجه بجيش المسلمين إلى حصن الوبندر^(٤٤)، فأذعنوا له بالطاعة. ومما يجدر ذكره أن صاحب بلنجر رغب في مكافأة الجراح على فعله الجميل، فأخبره بأن الخزر حشدت للمسلمين حشودا لا طاقة لهم بها يعاونهم أهل تلك الجبال الذين عزموا على محاربة المسلمين. فعاد الجراح إلى رستان شكى^(٤٥). ومن هناك كتب إلى الخليفة يزيد يخبره بما فتح الله عليه، ويسأله المدد، غير أن الأخبار جاءت بوفاة الخليفة سنة ٢٢٤م (١٠٥هـ)، وتولية أخيه هشام

(٤٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حـ٤، ص ١٨٧.

النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، حـ٢١، ص ٣٨٣.

ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، حـ٥، ص ١٨١.

دحلان: الفتوحات الإسلامية، حـ١، ص ١٧١.

(٤٤) من المحتمل أن يكون هذا الحصن هو حصن تابع لشعب البلغار،

انظر: الفصل الأول الكتاب.

(٤٥) شكى: عند ابن الأثير رستاق ملي.

— انظر: الكامل في التاريخ، حـ٤، ص ١٨٧.

شكى: "يفتح وتشديد ثانيه.. ولاية بأرمينيا"

— انظر ياقوت: معجم البلدان/ حـ٥، ص ٢٨٦.

بن عبد الملك الخلافة (٧٢٤-٧٤٣م / ١٠٥-١٢٥هـ) الذى أقر الجراح على عمله ووعده بإتقاد جيش لمحاربة الخزر^(٤٦).

وفى تلك الأثناء فرغ الجراح من أمر اللان حيث نجح فى سنة ٧٢٤م (١٠٥هـ) فى شن هجوم كبير عليهم، استطاع من خلاله فتح حصون وبقاع متسعة حتى تعدى بلنجر^(٤٧).

غير أن الخليفة فى تلك الظروف المواتية للجيوش الإسلامية عزل الجراح عن أرمينيا وأذربيجان سنة ٧٢٦م ((١٠٧هـ) وولى أخاه مسلمة بن عبد الملك^(٤٨). وينبغى ألا ننفل أن هذه الولاية الثانية لمسلمة التى استمرت فى السنوات (٧٢٦-٧٢٩م / ١٠٧-١١١هـ)، أما الولاية الأولى فقد كانت بين سنتى (٧٠٥-٧٢٤م / ٩١-١٠٤هـ).

على أن الخزر فى سنة ٧٢٧م (١٠٨هـ) ساروا إلى أذربيجان بقيادة خاقان الخزر فحاصر بعض مدنها. ولكن الحارث بن عمرو الطائى أحد قواد المسلمين استطاع أن يهزمهم بعد قتال شديد وطاردهم، كما استطاع المسلمون هزيمتهم مرة أخرى، بعد أن عادوا مرة أخرى على رأسهم ابن الخاقان^(٤٩).

^(٤٦) ابن أئتم: كتاب الفتوح، حـ ٨، ص ٣٤-٣٥.

النورى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، ح ٢١، ص ٣٨٣.

حمد الله قزوينى: تاريخ كذيلة، حـ ١، ص ٢٨١.

^(٤٧) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، حـ ٧، ص ٢١.

ابن كثير: البداية والنهاية، حـ ٩، ص ٢٥٩.

دحلان: الفتوحات الإسلامية، حـ ١، ص ١٧٢.

^(٤٨) الذهبي: دول الإسلام، حـ ١، ص ٧٥.

^(٤٩) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ ٤، ص ١٩٩.

وفى سنة ٧٢٨م (١١٠هـ) اشتبك مسلمة مع جموع الخزر عند باب اللان، وبعد قتال طويل استمر ما يقرب من شهر انتصر المسلمون عليهم انتصارا كبيرا وانصرف الفريقان نظرا لسقوط مطر شديد^(٥٠).

وفى العام التالى (٧٢٩م/١١١هـ) اجتاح الخزر أراضي أذربيجان إلا أن الحارث بن عمرو الطائى تمكن من صدّهم وهزيمتهم، وفى العام ذاته عزل هشام أخاه مسلمة بن عبد الملك وأعاد الجراح بن عبد الله الحكمى لحكم أرمينيا بعد غياب عدة سنوات^(٥١).

وكان أن زحف الجراح بجيشه حتى وصل إلى بلاد الخزر من ناحية تفلّيس، وتمكن من فتح مدينة البيضاء، ثم انصرف عنها محملا بالغنائم^(٥٢) وكان لذلك رد فعله على الخزر حيث بعث ملكهم إلى البلاد التى تدّعن له بالطاعة ليعاونوه صد المسلمين، وجمع جيشا قوامه ثلاثمائة ألف واسند قيادته لابنه نارستيك، فأخذت

(٥٠) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، حـ٧، ص ٥٤.

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص ٢٠٥.

ذكر المنبجى، أنه فى السنة الخامسة لهشام (٧٢٨م/١١٠هـ) غزا مسلمة الخزر فهزمه وقتلوا أكثر أصحابه، الأمر الذى يتعارض مع ما سبق
انظر : كتاب العنوان، المنشور فى مجموعة أعمال الآباء الشرقيين.

Patrologia Oriental., Vol. viii., p. 507.

(٥١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، حـ٧، ص ٦٧.

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص ٢٠٧.

Dunlop : op. Cit., , p. 68.

(٥٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص ٢٠٧.

فتحى عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية/ حـ٢، ص ١٠١.

جيوش الخزر تحرق وتنهب وتقتل كل من قابلهم من المسلمين، ويبدو أن الجراح شعر بحرج موقفه فكتب إلى الخليفة يسأله المدد، ولكن الخليفة تأخر في إرسائه^(٥٣). وتقابل المسلمون والخزر بمرج أردبيل ودار قتال عنيف أسفر عن هزيمة قاسية للمسلمين واستشهاد الجراح ومن معه من المسلمين^(٥٤) واستولى الخزر على ولايات الران وأذربيجان وتوغلوا في الأراضي الإسلامية^(٥٥) حتى قاربوا الموصل "وعظم الخطب على المسلمين"^(٥٦).

والواقع أن مقتل الجراح ومن معه من المسلمين كان له بالغ التأثير في نفس الخليفة هشام بن عبد الملك وخاف على البلاد الخاضعة للمسلمين من هجمات الخزر، وأخذ يستشير أصحابه في هذا الأمر، فأشار عليه أحدهم قائلا: "والله يا أمير المؤمنين إن دعائك أياي للمشورة أعظم عندي بما فعلت الخزر بالمسلمين" واستقر الخليفة في النهاية على اختيار سعيد بن عمرو الحرشي لخبرته في قتال الترك في خراسان وعهد له بمهمة قيادة الجيش لقتال الخزر^(٥٧).

(٥٣) ابن الأعم: كتاب الفتوح ، حـ٨ ، ص ٣٨-٤٠ .

(٥٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٠٨ .

اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، حـ٢ ، ص ٣١٣ .

الطبري: تاريخ الرسل والملوك، حـ٧ ، ص ٧٠ .

Glubb: The Empire of the Arabs, p. 183.

Pritsak: Art. Khazar, in Dictionary of the Middle Ages, Vol. 7, p.241.

Shaban: op. Cit., Vol. I, p.144.

Koestler: op. Cit., p. 29.

(٥٥) حمد الله قزويني: تاريخ كذيدة، حـ١ ، ص ٢٨٩ .

(٥٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حـ٤ ، ص ٢٠٧ .

ابن خلدون: العبر وديوان المتبدأ والخبر، حـ٥ ، ص ١٩٠-١٩١ .

الذهبي: دول الإسلام، حـ١ ، ص ٧٧-٧٨ .

(٥٧) ابن الأعم: كتاب الفتوح ، حـ٨ ، ص ٤٢-٤٤ .

وتقدم الحرشى فكان لا يمر بمدينة إلا ويستنهض أهلها لمحاربة الخزر حتى وصل إلى مدينة أرزن^(٥٨). حيث لقي عندها ممن نجى من فلول الجراح المنهزمة. وتقدم ونجح فى فتح خلاط^(٥٩) على الرغم من تحصينها المحكم، وتابع سيره وتمكن من فتح حصون وقلاع عديدة حتى وصل إلى بردعة^(٦٠) فى ذلك الوقت كان نارستيك بن خاقان الخزر بأذربيجان يقوم بأعمال السلب والنهب، فشرع الحرشى فى السير إليه حتى وصل إلى البيلقان^(٦١) حيث قابله أحد طراخنة الخزر وابنتين له فجردهما من ثيابهما وأمرهما أن تسقياه الخمر عريانتين، وطلب من الحرشى إنقاذهما، فاستجاب إلى طلبه وأنقذهما^(٦٢)، مما يدل على أن المسلمين كانوا أمناء على الأرواح حريصين على أعراض أهل البلاد المفتوحة. علم الحرشى أن الخزر تحاصر مدينة ورتان^(٦٣). فأرسل إليهم من يحملهم على الدفاع والصمود ضد الخزر ويخبرهم بقرب وصوله، ولما وصل المسلمون إلى تلك المدينة، انسحب الخزر بعد أن وصلتهم أخبار بتحركات المسلمين^(٦٤).

حمد الله قزوينى: تاريخ كذبذة، حـ ١، ص ٢٨١-٢٨٢.

(٥٨) أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط، ولها قلعة حصينة وكانت من أعمر نواحي أرمينيا.

انظر: ياقوت: معجم البلدان، حـ ١، ص ١٩٠.

(٥٩) خلاط: هى قصبة أرمينيا الوسطى.

انظر ياقوت: معجم البلدان، حـ ٢، ص ٣٤٠.

(٦٠) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ ٤، ص ٤٥٣.

(٦١) البيلقان: مدينة قرب الدربند الذى يقال له باب الأبواب.

انظر ياقوت: معجم البلدان، حـ ٢، ص ٣٤٠.

(٦٢) ابن أعمش: كتاب الفتوح، حـ ٨، ص ٤٦-٤٧.

(٦٣) ورتان : بلد آخر حدود أذربيجان، وبين ورتان وبيلقان سبع فراسخ.

انظر: ياقوت : معجم البلدان، حـ ٨، ص ٤١٣.

(٦٤) ابن خلدون: العبر وديوان المتدأ والخبر، حـ ٥، ص ١٩١.

النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ ٢١، ص ٤١٥-٤١٦.

ثم سار الحرشى بجيش المسلمين قاصدا أردبيل وعسكر عند حصن باجروان^(٩٥)، وأتى إليه فارس مجهول لم تبين المصادر هويته واسمه إلا أنه عبد من عباد الله، وكان عينا للمسلمين دلهم على مكان احتشاد الخزر، وبناء على ذلك سار الحرشى ليلا بجيش المسلمين وفاجأ الخزر بيجوم ساحق، نجح المسلمون من خلاله فى إنقاذ خمسة آلاف من المسلمين "أسارى وسبايا"^(٩٦). كما نجح الحرشى فى إنقاذ كثير من أموال المسلمين وأولاد الجراح وحرمه بعد أن دخل فى صراع مع الخزر على نهر الميمذ^(٩٧). وكان ذلك الفارس المجهول قد دله على مكان الخزر^(٩٨).

والحقيقة أن غارات المسلمين على الخزر صادفها النجاح وكانت بالغة التأثير، وعجز الخزر عن ردها إلى أن انتبه الخزر لهذا الوضع، فأخذ نارستيك بن خاقان الخزر يحشد قواته من نواحي أذربيجان لقتال المسلمين، فالتقى الفريقان بأرض برزند^(٩٩)، ودار قتال مرير كاد المسلمون ينهزمون فيه لولا شجاعة الحرشى الذى أخذ يستنهض جنوده حتى تم النصر، وطاردهم المسلمون حتى نهر الرى^(١٠٠).

(٩٥) باجروان: مدينة من نواحي باب الأبواب قرب شروان.

انظر: ياقوت: معجم البلدان، حـ٢، ص ٢٤.

(٩٦) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص ٢٠٨.

دحلان: الفتوحات الإسلامية، حـ١، ص ١٧٣.

(٩٧) الميمذ: اسم جبل، قال الأديبى: وفى الفتوح أن ميمذ مدينة بأذربيجان أو أران.

انظر: ياقوت: معجم البلدان، حـ٨، ص ٢٢٧.

(٩٨) ابن أعمش: كتاب الفتوح، حـ٨، ص ٤٦-٤٧.

(٩٩) برزند: بلد من نواحي تفليس من أعمال جرجان من أرمينية.

انظر: ياقوت: معجم البلدان، حـ٢، ص ١٢٤.

(١٠٠) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ٤، ص ٢٠٨.

وحدثت آخر واقعة بين الخزر والحرشى عند نهر البيلقان، وتذكر المصادر أن قوام جيشهم فى تلك المرة كان مائة وتسعين ألف، وأسفرت المعركة عن انتصار المسلمين وهزيمة قاسية للخزر، وكان ممن غرق أكثر ممن قتل من الخزر، ثم كتب الحرشى أخبار انتصاره إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، فكتب الخليفة إليه يشكره ويأمره بالعودة وولى أخاه مسلمة بن عبد الملك على أرمينيا وأذربيجان^(٣١) والحقيقة أن الحرشى يعتبر واحدا من القادة المسلمين العظماء الذين ابلوا بلاءا حسنا فى مواجهة الخزر.

على أن مسلمة بعد أن وصل ليتسلم مهام منصبه لام الحرشى على قتاله الخزر قبل قدومه، وكان قد أرسل إليه كتابا فى هذا الصدد، فبين الحرشى له أن كتابه لم يرد إلا بعد أن هزم الله الخزر، ولكن مسلمة غضب فقيده وسجبه إلى سجن بردعة، وعلم الخليفة هشام بما حدث، فغضب من أخيه وأمر على الفور بإخراجه^(٣٢). ولا شك أن ما حدث للحرشى لا يتكافأ مع ما قدمه من خدمات فى محاربة الخزر.

وبعد أن تولى مسلمة مهام عمله تقدم على رأس جيش من المسلمين متوجا إلى خزر، وكان الوقت شتاء شديدا البارد كثير المطر والثلج، حتى وصل إلى الباب فى آثارهم ثم استخلف عنه أميرا هناك^(٣٣). وفى سنة ٧٣١ م (١١٣ هـ) قام مسلمة بنشر

(٣١) ابن أعم: كتاب الفتوح، حـ، ٨، ص ٥٥-٥٧.

النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، حـ ٢١، ص ٤١٧.

(٣٢) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢٠٨-٢٠٩.

ابن أعم: كتاب الفتوح، حـ، ٨، ص ٥٨-٥٩.

(٣٣) الطبرى: تاريخ لرسل والملوك، حـ ٧، ص ٧١.

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حـ، ٤، ص ٢٠٨.

الجيوش الإسلامية في بلاد الخزر، وتمكنت تلك الجيوش من فتح مدائن وحصون كما قتل ابن الخاقان ودانت للمسلمين مناطق فيما وراء بلنجر^(٧٤).

والواقع أن الخزر لم يقفوا مكتوفي الأيدي، إذ تمكنوا من حشد جيوش ضخمة من الأمم القاطنة والمذعنة بالطاعة لهم. ووجد مسلمة أن جيشه لا طاقة بهم، فأمر بإيقاد النار، ثم تركوا خيامهم مضروبة في موضعها، "فقدم مسلمة الضعفاء وآخر الشجعان" حتى وصلوا إلى مدينة الباب، منهكين مجهدين^(٧٥).

بعد ذلك خندق مسلمة عند باب واق بالقرب من الباب وحصن المسلمون أنفسهم من ملوك الجبال، وأقبلت الخزر في جيوش ضخمة، والتحم الفريقان في قتال شديد، وأبلى المسلمون وعلى رأسهم مروان بن محمد - وهو الخليفة الأموي فيما بعد - بلاءً حسناً حيث أتى وأصحابه على كراديس^(٧٦) الخزر، وتمكن من قتل كثير منهم. وفي أثناء القتال أتى إلى مسلمة أحد عيونه ودله على مكان الخاقان، فأختار مسلمة ومروان، ثبيت النهراني، أحد أبطال المسلمين للنيل منه على رأس

(٧٤) الطبري : تاريخ لرسل والملوك، ح-٧، ص ٧١.

ابن كثير: البداية والنهاية، ح-٩، ص ٣٤٢.

حمد الله قزويني: تاريخ كذيدة، ح-١، ص ٢٨٢.

Glubb: op. Cit., p. 183.

ذكر ابن قتيبة أن مسلمة تقابل سنة ٧٣١ م (١١٣ هـ) مع خاقان ملك الترك فقتله وبني

الباب، أنظر: كتاب المعارف، ص ٣٦٥.

(٧٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ح-٤، ص ٢١٤.

التويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ح-٢١، ص ٤٢١.

Theophanis: chronographia in Corpus Scriptorum Historiae
Byzantinae, Vol., I, p. 626.

(٧٦) كراديس: ومفردها كردوس، وهو القطعة العظيمة من الخيل ويقال كردوس القائد خيليه أي

جعل الجيش على شكل كتائب، انظر

الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ح-٣، ص ٣٩٦، حاشية ٤.

ألف رجل، ووثب المسلمون على الخزر ودار قتال رهيب، انتهى بانتصار المسلمين وهروب الخاقان الذي كان على عجلة حربية يقال لها "الجدادة"، وجمع مسلمة الغنائم ثم وصل بالمسلمين إلى الباب^(٣٧).

وكان بمدينة الباب قلعة بها ألف بيت من الخزر، فحاول مسلمة اقتحامها دون فائدة فلجأ إلى وسيلة أخرى حيث ذبح الأبقار والأغنام وألقى بها في عين الماء التابعة للقلعة وجرى الدم مع الماء إلى صهاريجهم، ثم قطع الماء. فلم يمكث ماؤهم إلا ليلة حتى "دود وانتن وفسد" ولما جن الليل ولوا هارين، وأسكن مسلمة المسلمين في تلك القلعة^(٣٨).

على أن الخزر تمكنوا من استرداد المناطق التي وقعت تحت سيطرة المسلمين، الأمر الذي دفع مروان بن محمد إلى إعداد جيش من المسلمين قوامه أربعون ألفاً وتوجه به إلى بلاد الخزر فقتل منهم وسبى النساء حتى وصل إلى مدينة الباب، وكان ذلك في وقت الشتاء وسميت تلك الغزوة بغزوة الطين لكثرة الأمطار والوحل^(٣٩).

وفي سنة ٧٣٢م (١١٤هـ) ولي الخليفة هشام، مروان بن محمد على أرمينيا وأذربيجان والجزيرة وذلك بعد عودة مسلمة إلى الشام^(٤٠) وفي نفس العام وفي أثناء الصدام الذي كان يجري بين المسلمين والخزر، أقام الخزر والبيزنطيون حلفاً

(٣٧) ابن أعمش: كتاب الفتوح، حـ ٨، ص ٦٢-٦٨.

(٣٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٠٩.

(٣٩) ابن أعمش: كتاب الفتوح، حـ ٨، ص ٦٩-٧٠.

Dunlop : op. Cit., p. 80.

(٤٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، حـ ٧، ص ٩٠.

Grousset: Hist. De Amenie des Origines., p. 316.

Glubb: op. Cit., p. 201.

Shaban: op. Cit., Vol. i., p. 144.

سياسيا كان فى صورة زواج سياسى حيث اقدم الإمبراطور ليو الأيسورى (٧١٧-٧٤١م) على اختيار أميرة خزرية لابنه قسطنطين (الخامس)^(٨١) مقيما بذلك حلفا مع الخزر ضد المسلمين. وكان البيزنطيون والخزر بعد أن توحدت وتلاقت أهدافهم يأملون فى وقف خطر الجيوش الإسلامية وانقضاء عليها بشتى السبل.

وعلى أية حال سار مروان إلى أرمينيا على رأس جيش ضخم قوامه مائة وعشرون ألف لمحاربة الخزر، فأظهر أنه عازم على غزو اللان ثم توجه إليهم. وبعث ملك الخزر برسول يسأله الهدنة، فرفض مروان وأعلن الحرب على الخزر، فاستشار الخاقان أصحابه الذين أشاروا عليه بأن يتأخر إلى أقصى بلاده خشية إن لقيه على حاله هزمه وظفر به، فقبل رأيهم، وتوغل مروان فى بلاد الخزر، فغنم وأقام عدة أيام^(٨٢).

وفى سنة ٧٣٧م (١١٩هـ) غزا مروان أرمينيا ثم بلاد اللان حتى وصل إلى سمندر وانضم إليه جيش بلغ عدده مائة وخمسين ألف على رأسهم أسيد بن زافر السلمى وتوغل مروان فى بلادهم حتى وصل إلى مدينتهم البيضاء التى لاذ منها

(81) Bury : History of the Eastern Roman Empire, p. 407.

Ostrogski: op. Cit., p. 139.

انظر الفصل الثانى من الكتاب.

(٨٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ ٤، ص ٢١٦.

ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ ٥، ص ١٩٦.

النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ ٢١، ص ٤٢٢-٤٢٣.

الخاقان بالفرار^(٨٣) ثم أغار مروان على صقالبة كانوا بأرض الخزر فسبى الكثير منهم^(٨٤).

وبعد ذلك علم مروان أن خاقان الخزر وجه إليه طرخانا من طراخته يدعى هزار طرخان في أربعين ألفا، فأمر مروان أحد رجاله وهو الكوثر بن أسود العنبري بعبور نهر الصقالبة ليلا ليوافيه مروان في الصباح، ويقا تلا الخزر معا، وعند الفجر قابل الكوثر مجموعة يتصيدون، فقتلهم جميعا، ثم تقدم وتقاتل مع الخزر فسقط منهم عشرة آلاف وأسر سبعة آلاف، وهرب الباقون إلى الأودية والجبال، ثم علم الكوثر من الأسرى الخزر أنه قتل هزار طرخان حيث كان على رأس جماعة الصيد التي قابلها المسلمون كما أن مروان دخل في صراع كبير مع الخزر وعاد ورؤوس الخزر على أسنة الرماح^(٨٥) حيث تمكن من السيطرة على صحراء الخزر وجميع قلاع وجبال دربند من ناحية أذربيجان، وأصبح شعار الإسلام واضحا في تلك الممالك^(٨٦).

ومما يجدر ذكره أن الهزيمة التي منى بها الخزر على يد المسلمين بقيادة مروان بن محمد كانت سببا في إسلام الخاقان^(٨٧) وفي هذا الصدد يقول

(٨٣) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ ٨، ص ٧١.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حـ ٤، ص ٧١.

النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، حـ ٢١، ص ٤٢٦.

الذهبي: دول الإسلام، حـ ١، ص ٨١-٨٢.

Obolensky: The Byzantine Commonwealth., p. 172.

Glubb: op. Cit., p. 201.

Shaban: op. Cit., Vol. i., p. 147.

(٨٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢١١.

(٨٥) ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ ٨، ص ٧٢-٧٣.

(٨٦) حمد الله قزويني: تاريخ كذيبه، حـ ١، ص ٢٨٢.

(٨٧) Art. Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p.946.

Hudud Al Alam., p. 201.

Bury : op. Cit., p.407.

Glubb: op. Cit., p. 201.

البلاذري^(٨٨) ولما بلغ عظيم الخزر كثرة من وطىء به مروان بلاده من الرجال، وما هم عليه في عدتهم وقوتهم نخب ذلك قلبه وملأه رعباً، فلما دنا منه أرسل إليه رسولا يدعوهُ للإسلام أو الحرب فقال قد قبلت الإسلام، فأرسل إلى من يعرضه على. ففعل، فأظهر الإسلام ووادع مروان على أن أقره في مملكته وسار مروان معه بخلق من الخزر فأنزلهم ما بين السمرور والخابران^(٨٩) في سهل اللكر^(٩٠).

كما أورد ابن أعثم الكوفي^(٩١) خبر إسلام الخاقان تفصيلياً، فذكر أن الهزائم المتوالية التي لحقت بالخزر كانت سبباً في جزع الخاقان، فأرسل إلى مروان بن محمد يسأله عن مطالبه، فعرض عليه مروان الإسلام أو قتله وأخذ ملكه. فقبل الخاقان الإسلام وأرسل مروان رسولين هما نوح بن السائب الأسدي وعبد الرحمن الخولاني يعرضان عليه الإسلام، فطلب منهم أن يحلوا له الخمر والميتة، فرفض ذلك، وبينما له أنه ليس من شأنهم وليس في الإسلام أن يحل الحرام أو يحرم الحلال وأوضحا له ما تقره الشريعة الإسلامية. فأسلم الخاقان ومعه عدد من أهل بيته وبلده.

وتذكر المصادر الإسلامية دخول الخزر في الإسلام في مناسبات أخرى وبين أحداث عهود أخرى، فالمقدسي يشير إلى أنهم أسلموا نتيجة للغزوات التي قام بها المأمون من الجرجانية^(٩٢)، وليس المقصود هنا الخليفة العباسي المأمون (٨١٣-٨٣٢م / ١٩٨-٢١٨هـ) بل هو الأمير مأمون بن محمد والي جرجانية الذي أصبح

(٨٨) فتوح البلدان، ص ٢١٠.

(٨٩) شابران: مدينة من أعمال أران استحدثها أنوشروان.

انظر: ياقوت: معجم البلدان، حـ ٥، ص ٢٠٥.

(٩٠) اللكر: بليدة خلف الدربند تتاخم خزران.

انظر: ياقوت: معجم البلدان، حـ ٧، ص ٣٣٧.

(٩١) كتاب الفتوح، حـ ٨، ص ٧٣-٧٤.

(٩٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٦١.

فيما بعد سنة ٩٩٥م (٣٨٥هـ) واليا على خوارزم^(٩٣) ومن جهة أخرى فإن ابن الأثير^(٩٤) قد أكد خبر اعتناقهم للإسلام حينما أصبحوا مضطرين إلى الدفاع عن أنفسهم أمام هجمات أحد الأقوام التركية بمساعدة أهل خوارزم المسلمين، وذلك قرب منتصف القرن الرابع الهجري سنة ٩٦٥م (٣٥٤هـ). ويقصد هنا بأحد الأقوام التركية حملة سيفياتوسلاف الروسى على الخزر^(٩٥).

والحقيقة أن البعض يعتبر أن دخول الخزر في الإسلام كما صورتها المصادر الإسلامية كانت تعتمد على شائعات غير صحيحة لأن الخزر ظلوا على دينهم الذى اعتنقه الخاقان والطبقة الأرستقراطية فى القرن الثامن الميلادى وهو الدين اليهودى^(٩٦). والواقع أن اليهودية ظلت ديانة رسمية للخزر حتى انقراض دولتهم، بعد أن فشلت كل من الديانة المسيحية والإسلامية فى شق طريقهما بنجاح كالديانة اليهودية فى بلاد الخزر.

وفى خلال الفترة التى قضاها مروان بن محمد فى منطقة القوقاز وهى بين سنتى ٧٣٢م (١١٤هـ) و٧٤١م (١٢٣هـ) استطاع أن يغزو بلاد السريز وأهل تومان وأرض زريكراى وحميزين وسدان واللكز وشروان وغيرها من البلاد الواقعة فى تلك البقاع^(٩٧) وبانتهاء حكم مروان فى تلك البقاع تنتهى حلقة هامة من حلقات الصراع

^(٩٣) Barthold & Golden: Art. Khazar, in Ency. of Islam.

بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ص ٦٣.

^(٩٤) الكامل فى التاريخ، حـ ٧، ص ١٥.

^(٩٥) انظر الفصل الثانى من الكتاب.

^(٩٦) بارتولد: المرجع السابق، ص ٦٣.

^(٩٧) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢١٠-٢١١.

ابن أعثم: كتاب الفتوح/ حـ ٨، ص ٧٥-٨٢.

بين المسلمين والخرر وهى التى اصطلاح المؤرخون المحدثون بتسميتها بالحرب العربية الخزرية الثانية (٧٢٢-٧٣٧م / ١٠٣-١١٩هـ).

ولا شك أن المسلمين أسدوا خدمة لأرمينيا، فقد وضعوا على عاتقهم حمايتها من الخزر^(٩٨). ونجحوا فى تقليم أظافر الخزر فى تلك الفترة، حتى أن أحد المؤرخين المحدثين كان يشبههم فى اغاراتهم على أرمينيا والخزر بأنهم "كانوا خفاف كالحية الطائرة"^(٩٩).

ولكن بعد انتصار المسلمين على الخزر سنة ٧٣٧م (١١٩هـ) لم نسع شيئا بعد ذلك، فما إن حلت الفترة التى تلت الحرب العربية الخزرية الثانية حتى كان الحافز على الجهاد عند المسلمين قد تراخى وهزت الفتن دعائم الخلافة وارتد المسلمون عبر القوقاز من غير أن يثبتوا أقدامهم فى الشمال، فى حين اشتد بأس الخزر وازدادت قوتهم عما كانت^(١٠٠) وتشير بعض المراجع إلى تلك الأحداث بالقول: "إن تلك الأزمات التى تورط فيها المسلمون، أنقذت الخزر، ولو قدر لمروان بن محمد السيطرة على الأقاليم الخزرية بثبات لأصبح تاريخ أوروبا الشرقية مختلفا تماما عما نعرفه"^(١٠١) والشىء الجدير بالملاحظة أن كثير من المؤرخين المحدثين يحاولون فى كتاباتهم الربط بين ما قام به شارل مارتل ملك الفرنجة ضد قوات المسلمين الزاحفة عبر البرانس - حيث انتصر سنة ٧٣٢م (١١٤هـ) عليهم فى موقعة تور-بواتيه (بلاط الشهداء) - وبين ما قام به الخزر فى أقصى أطراف أوروبا الشرقية، ويذهبون إلى القول أنه فى الوقت الذى كان فيه فرنجة شارل مارتل قد تمكنوا من إيقاف مد الغزو الإسلامى على ساحة تور فى فرنسا، فإنه فى نفس الوقت تقريبا تمكن الخزر فى الشرق من إيقاف المد الإسلامى وصمدوا ضدهم باعتبارهم حماة

(٩٨) Grousset: Hist. De Armenie des origines A 1071., p. 315.

(٩٩) Ibid. p. 296

(١٠٠) Koestler: op. Cit., p. 14.

(١٠١) Art. Khazar, in Ency, Judaica, Vol., x, p. 946.

النصرانية فى هذه الجهات، إذ لم يكن التهديد لأوروبا من جهة الشرق بأقل خطورة من الغرب^(١٠٢).

ومنذ عهد الخليفة هشام بن عبد الملك حتى سقوط الدولة الأموية سنة ٧٥٠م (١٣٢هـ) صممت المصادر الإسلامية عن ذكر أى جديد فيما بين المسلمين والخزر، ويبدو أن الفتن والصراعات التى وقعت بين الأمويين والتى انتهت بتولى العباسيين مقاليد الحكم فى الدولة الإسلامية، قد شغل المسلمين عن توجيه أنظارهم ناحية الخزر، والحق أن الأحوال السياسية فى الدولة الأموية منذ بداية القرن الثانى لهجرى قد ساءت من جراء ثورات الخوارج والشيعة، فضلا عن ظهور العصية القبلية بعد وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك ظهورا واضحا، ولقد نجح العباسيون فى نشر دعوتهم فى الوقت الذى ضعف فيه الأمويين، وأنهك فيه العلويون أنفسهم بالثورات، وانتهى حكم البيت الأموى بمقتل مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين سنة ٧٥٠م (١٣٢هـ). وقامت الدولة العباسية التى كان أول خلفائها أبو العباس عبد الله الملقب بأبى عبد السفاح (٧٥٠-٧٥٤م / ١٣٢-١٣٦هـ).

– علاقة الخزر بالمسلمين فى عهد الدولة العباسية:

من المعروف أن رقعة الدولة الإسلامية لم تتسع فى العصر العباسى حيث إنهم ورثوا دولة إسلامية شاسعة الحدود، امتدت من حدود الصين شرقا حتى جبال البرانس والمحيط الأطلنطى غربا. ومن البحر العربى والصحراء الكبرى جنوبا حتى جبال طوروس وبحر قزوين (الخزر) شمالا. ولم يكن اهتمام العباسيين هو التوسع وزيادة رقعة الدولة بل كان جل اهتمامهم هو الحفاظ على حدود تلك الدولة وتأمينها.

(102) Dunlop: op. Cit., pp. Ix-x.
Obolonsky : op. CITT., p. 172.
Koestler: op. Cit., p. 35.

ومن المعروف أن العباسيين اتخذوا بغداد في العراق عاصمة لدولتهم وتركوا دمشق عاصمة الأمويين ببلاد الشام، وبذلك تكون المنطقة القريبة من الخزر قد فقدت جزءاً من الاهتمام والعناية التي كانت لها قبل سقوط الأمويين، فالأمويين باتخاذهم دمشق عاصمة لهم كانوا قريبين من آسيا الصغرى وبالتالي من الخزر وكان ذلك سبباً في زيادة الضغط الإسلامي على الخزر أما العباسيون باتخاذهم بغداد عاصمة لدولتهم فقد جعل مركزهم أكثر بعداً عن أراضي الخزر، ومن ثم قل الضغط الإسلامي على حدود هذه الدولة.

لذا فإن العلاقات بين المسلمين والخزر في عهد العباسيين سوف تأخذ شكلاً آخر، فقد ولي الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (٢٥٤-٢٧٥م / ١٣٦-١٥٨هـ) أسيد بن زافر السلمي أرمينيا وأمره بالتحالف مع الخزر والزواج منهم^(١٠٣) وقد دفع الخليفة إلى ذلك عدة عوامل أهمها خوفه على أرمينيا والمسلمين من خطر الخزر، فاستجاب له وأرسل يزيد إلى خاقان الخزر واسمه تعاظر، فخطب ابنته وكانت تدعى الخاتون، وزفت إليه من بلادها تحمل معها مظاهر العظمة والأبهة، وبقت معه سنتين وأربعة أشهر وولدت منه ولدين، ثم ماتت هي وولداها فحزن عليها يزيد^(١٠٤). ويبدو أن التحالف الذي سعى إليه المسلمون كان رداً على التحالف الذي عقده الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث (٧١٧-٧٤١م) مع الخزر بتزويج ابنه قسطنطين من أميرة خزرية سنة ٧٣٢م (١١٤هـ) مقيماً بذلك حلقاً مع الخزر ضد المسلمين.

(١٠٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢١١.

(١٠٤) ابن أعثم: كتاب الفتوح، ج ٨، ص ٢٢٩-٢٣٠.

ذكر البلاذري خبر وفاة هذه الأميرة قاتلاً: "وولدت منه أبناً فمات وماتت في نفاسها"

انظر: فتوح البلدان، ص ٢١١.

على أن موت الخاتون كان سببا في انتفاض الخزر ضد المسلمين، فقاموا بشن هجوم كبير على القوات الإسلامية بقيادة رأس طرخان، انتهى بهزيمة المسلمين الذي كان يقودهم يزيد بن أسيد السلمي - كما أن الجيش الذي وجهه الخليفة العباسي وعدده عشرون ألفا لصد الخزر بقيادة جبريل بن يحيى قد منى بهزيمة ساحقة^(١٠٤).

وفي سنة ٧٦٢م (١٤٥هـ) قام الخزر وبعض العناصر التركية بشن هجوم كبير من ناحية الباب والأبواب على المسلمين، وتمكنوا من قتل عدد كبير من المسلمين بأرمينيا^(١٠٥) حيث بلغ عددهم خمسين ألف نفس^(١٠٦).

^(١٠٤) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، جـ ٢ ، ص ٣٧١-٣٧٢.

ابن أئتم: كتاب الفتوح، جـ ٨، ص ٢٣١-٢٣٣.

ذكر اليعقوبي: "أن تلك الواقعة حدثت سنة ٧٥٨م (١٤١هـ)، كما أن الطبري: يتحدث عن تلك الواقعة سنة ٧٦٤م (١٤٧هـ)، وذكر أن استرخان الخوارزمي في جمع من الترك (الخزر) أغار على المسلمين في أرمينيا وأسر كثير من المسلمين وأهل الذمة حتى دخلوا مدينة تفليس، انظر: تاريخ الرسل والملوك، جـ ٨، ص ٧.

Hudud Al Alam, p. 451.

والحقيقة أن ما ذكره الطبري بشأن القائد الخوارزمي يتعارض مع ما ذكره المسعودي من أن بعض المسلمين من أهل خوارزم كانوا جنودا مرتزقة في خدمة الخزر وكانوا يحصلون عند التحاقهم بالخدمة على حق الحياذ إذا دخل الخزر في حرب مع المسلمين. انظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ ١، ص ١٣٥.

كما يربط المؤرخ الأرمني ليفوند Levond بين غزو الخزر لبلاد الكرج وأرمينيا (سنة ٧٦٤م / ١٤٧هـ) وبين وفاة الأميرة الخزرية، وذكر أن رج ترخان كان قائدا لهذه الحملة.

Barthold & Golden: Art. Khazar, in Ency. of Islam.

Dunlop: op. Cit., p. 180.

^(١٠٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ ٧، ص ١٤٩.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٥، ص ٢٠.

التويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ ٢٢، ص ٩٢.

ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٠، ص ٩٦.

⁽¹⁰⁶⁾ Bar Hebraeus: Syriac chronicle., p. 114.

المنبجي: كتاب العنوان، المنشور في مجموعة أعمال الآباء الشرقيين. =

كان من الطبيعي أن يشتد بأس الخزر في تلك الفترة ويستفحل أمرهم لأن العباسيين لم يحاكوا الأمويين في فتوحاتهم في القوقاز، حتى الحروب والمعارك التي كانت تقوم بينهم وبين البيزنطيين، مما كان يدفع العباسيون إلى شن الغارات لرد العدوان فقط ولإجبارهم على احترام المعاهدات واستمرار دفع الجزية. وهنا نلاحظ أن الغارات المتواصلة التي وجهها الخليفة العباسي المنصور ضد البيزنطيين لم تحقق النجاح الذي أصابته في عهد الأمويين، فضلا عن ذلك فإن الحملات التي وجهها المنصور ضد الأتراك الخزر في بلاد القبق (القوقاز) لم تؤد إلى توسع ملحوظ^(١٠٧).

وفي عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩م / ١٧٠-١٩٣هـ)، قام الخزر بهجوم كبير على أرمينيا، وتمكنوا من هزيمة المسلمين هزيمة قاسية. وكان على رأس المسلمين سعيد بن سلم الباهلي الذي وليه الرشيد على أرمينيا، وكان "ملك الخزر قد زحف في خلق عظيم فأغار على المسلمين، فقتل وسبى خلقا عظيما

= Patrologia Oriental., Vol viii, pp. 543-4.

^(١٠٧)Brocklman (C) : History of the Islamic People, (London, 1979), p. 111.

وحرق البلاد وقتل النساء والصبيان^(١٠٨)، الأمر الذي دفع الخليفة إلى إرسال خزيمة بن خازم، ويزيد بن مزيد الشيباني فأخرجوا الخزر بعد عناء شديد^(١٠٩).

وتوضح المصادر بواعث تلك الغارة التي شنّها الخزر على المسلمين حيث يذكر اليعقوبي^(١١٠) وابن أعثم^(١١١) أن الباعث عليها هو قيام سعيد بن سلم بقتل النجم بن هاشم صاحب الباب والأبواب، فأرسل ابنه حيون بن النجم إلى ملك الخزر بهدايا وطلب منه أن يصير إليه بجيشه حتى يغنمه من بلاد الإسلام. ويشترك معهم في ذكر هذا الباعث كل من الطبري^(١١٢) وابن الأثير^(١١٣) والنويري^(١١٤) وابن العبري^(١١٥) الذين يذكرون "أن الخزر انتهكوا أمرا عظيما لم يسمع في الإسلام بمثله"، إلا أنهم يزيدون على ذلك بذكر باعث آخر لتلك الغارة بالإضافة إلى الباعث الذي ذكرناه

(١٠٨) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، حـ ٢، ص ٤٢٧-٤٢٨.

ابن أعثم: كتاب الفتوح، حـ ٨، ص ٢٥٦-٢٥٩.

ابن كثير: البداية والنهاية، حـ ١٠، ص ١٨٣.

الذهبي: دول الإسلام: حـ ١، ص ١١٧.

فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية، ح ٢، ص ١٦٤.

Shaban: op. Cit., (Combridge, 1981), Vol. 2, p.34.

Glubb: op. Cit., p. 275.

Dunlop: op. Cit., p. 184.

Bury: op. Ciy., p. 408.

(١٠٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، حـ ٥، ص ١٠٧-١٠٨.

(١١٠) تاريخ اليعقوبي: حـ ٢، ص ٤٢٧.

(١١١) كتاب الفتوح: حـ ٨، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(١١٢) تاريخ الرسل والملوك، حـ ٨، ص ٢٧٠.

(١١٣) الكامل في التاريخ، حـ ٥، ص ١٠٧-١٠٨.

(١١٤) نهاية الأرب في فنون الأدب، حـ ٢٢، ص ١٣٣.

(١١٥) تاريخ مختصر الدول، ص ٢٥٣.

أنفا وهو فشل المحاولة التي رمت إلى تحالف الدولتين بزواج الفضل بن يحيى البرمكى من أبنه ملك الخزر حيث حملت بنت خاقان الخزر سنة ٧٩٨م (١٨٢هـ) إلى الفضل فماتت ببرذعة، فرجع من جاء معها إلى أبيها، فأخبروه أنها قتلت غيلة وفى العام التالى كانت غارة الخزر على المسلمين.

ومهما يكن من أمر فإن ذلك كله كان فى مصلحة الإمبراطورية البيزنطية التى كانت بعيدة النظر حينما أقامت تحالفا مع الخزر. بعد ذلك لم نسمع عن أية علاقات بين المسلمين والخزر إلا فى الرحلة الشهيرة التى قام بها سلام الترجمان إلى الأصقاع الشمالية، وقد رواها الجغرافيون المتقدمون والمتأخرون^(١١٦). وكان الدافع لهذه الرحلة دافعا خياليا بحتا، إذ يروى أن الخليفة العباسى الواثق بالله (٨٤٢-٨٤٧/٢٢٧-٢٣٢هـ)، قد تراءى له فى المنام كأنما انفتح السد الذى بناه الإسكندر ذو القرنين، الذى يقع بين ديار المسلمين وديار يأجوج ومأجوج. فأرعبه هذا المنام، فأمر سلاما بأن يرحل ليتفقد السد، ولعل الشائعات قد سببت هذا الحلم المزعج، عن تحرك القبائل التركية فى أواسط آسيا، والحقيقة أننا لسنا هنا بصدد عرض الرحلة وتفاصيلها ولكن ما يهمنا أن سلاما فى خط سيره - مر على بلاد الخزر وأقام عند ملك الخزر يوما وليلة، حتى وجه معه خمسة أدلاء ليكملوا رحلتهم.

ومن عجيب ما طالعه عند القزوينى^(١١٧) ما ذكره أبو حامد الأندلسى فى "كتاب العجائب" عن سلام الترجمان أنه قال: "أقمت عند ملك الخزر أياما، ورأيت أنهم اصطادوا سمكة عظيمة جدا وجذبوها بالحبال، فانفتحت أذن السمكة

(١١٦) ابن خرد ذابة: المسالك والممالك، ص ١٦٢-١٦٥.

المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم. ص ٣٦١-٣٦٤.

ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب. ص ٢٧٠-٢٧٨.

(١١٧) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص ١١٢.

وخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر حسنة الصورة، فأخرجوها إلى البر. وهى تضرب وجهها وتنتف شعرها، وتصرخ، وقد خلق الله تعالى فى وسطها غشاء كالثوب الصفيق من سرتها إلى ركبته كأنه إزار مشدود على وسطها، فامسكوها حتى ماتت".

وقد تساءل حسين فوزى فى كتابه "حديث السندباد القديم"^(١١٨) عن تفسير ما رأى سلام الترجمان عند ملك الخزر وكتب فى هذا الصدد يقول: "أىكون الملك قد عرض على خليفة المسلمين منظرا تمثيلىا من نوع "البانتوميم" احتفاء به واحتفالا بقدومه، وفهمه هذا الساذج على أنه حقيقة؟ أو أن ملك الخزر كان ماجنا مهزارا لا يرى عيبا أن يسخر من ضيفه فيدخل عليه منظر الغانية التى تخرج من أذن سمكة عظيمة جدا فيبتلع سلام المنظر والغانية والسمكة الكبيرة؟".

ونستشف من تلك القصة الخيالية أن يكون سلاما قد نقل إلى الخليفة الروايات والمشاهدات المحلية التى سمعها فى الأماكن التى زارها، وربما يكون حديث تلك السمكة مشهورا عند عامة الناس فى بلاد الخزر، فسمعها سلام ونسبها إلى مشاهداته الخاصة لاعتقاده فى صحة هذه القصص التى حكيت له. وعلى أية حال فإن رحلة سلام واقعة تاريخية لا شك فيها، وقد اهتم بها العلماء اهتماما واسعا وهى إن دلت على شىء، فإنها تدل على أنها كانت دليلا على أن الخزر كانوا على صلات بالخلفاء المسلمين فى تلك الحقبة.

الفصل الرابع

المظاهر الحضارية بمملكة الخزر

- التنظيم السياسى.
- القضاء.
- الجيش.
- اللغة.
- المجتمع.
- النشاط الاقتصادى.
- الديانة.

اختلف الباحثون فى تاريخ دولة الخزر، على الرغم من قلة الدراسات فى هذا الموضوع فمنهم من عرفها بالمملكة. وغيرهم عرفها بالإمبراطورية أو الدولة القبيلة، ومنهم من وضع اسم الخزر فى صدر دراسته دون تحديدها بشكل معين. ومرجع ذلك إلى أن الأحداث التاريخية المتوفرة عن الخزر وتركيباتهم الاجتماعية والسياسية تطورت من فترة إلى أخرى على مراحل تاريخهم، ولم يأخذ شكلا محددا بصورة نهائية. وعندما تكاملت البنية الاجتماعية لشعب الخزر أخذت شكل الدولة بعد أن كانت مجموعة قبائل متفرقة، وأصبح للخزر مملكة نعمت بنعمة الاستقرار، على عكس بعض الشعوب الأوربية فى العصور الوسطى التى كانت صاحبة تجوال وترحال. ومع بداية القرن السابع الميلادى أو قبل ذلك بقليل عاش الخزر أزهى عصورهم حيث تغيرت أحوالهم وتحولوا إلى شعب حضارى، اشتهى حرفة التجارة واعتنق الديانة اليهودية، وكان لهم تنظيمهم السياسى المنفرد وجيشهم وقضائهم ولغتهم ومجتمعهم المتميز.

ومن ثم فنحن نقرأ فى مادة خزر^(١) Chazar بدائرة المعارف اليهودية عبارة تقول "لقد نعم الخزر بجميع امتيازات الأمم المتحضرة، تشريع متقن، حكومة متسامحة، تجارة منتعشة، وجيش مدرب على أهبة الاستعداد فى الوقت الذى ران فيه التعصب والجهل والفوضى على أوروبا الغربية. كان يحق لمملكة الخزر أن تفاخر بحكومتها العادلة الواسعة الأفق.

التنظيم السياسى:

قام التنظيم السياسى الخزرى أساسا على الملكية أو الخاقانية وقد بسط لنا الرحالة والجغرافيون هذا الأمر، فابن فضلان^(٢) يقول فى هذا الشأن: "فأما ملك الخزر، واسمه خاقان، فإنه لا يظهر إلا كل أربعة أشهر متنزها، ويقال له خاقان الكبير

(١) Rosenthal: The Jewish Ency., Vol.. iv, p.2.

(٢) رسالة ابن فضلان، ص ١٦٩.

ويقال لخليفته خاقان به وهو الذى يعود الحيوش ويسوسها ويدبر امر المملكة ويقوم بها ويظهر ويعرو وله ندعى الملوك الدبى بصاقبونه

اما ابن رسته فيقول "ان للحرر ملك يقال له ايشا والملك الاعظم اما هو حرر خاقان وليس له من طاعة الحرر الا الاسم. ومعدار الامر على ايشا. اد كان فى القيادة والحيوش بالموضع الذى لا يبالى معه واحد فوقه ورئيسهم الاعظم على ديس اليهودية وكذلك ايشا ومن يميل ميله من القواد والعظماء"

ويذكر المسعودى^(٤) قائلا: "وليس اخبارا عن ملك الخزر يريد به خاقان. وذلك ان للخزر ملكا يقال له خاقان، ورسمه ان يكون فى يدي ملك آخر هو وغيره فخاقان فى جوف قصر، لا يعرف الركوب ولا الظهور للخاصة ولا للعامة، ولا الخروج من مسكنه، معه حرمة لا يأمر ولا ينهى، ولا يدبر من أمر المملكة شيئا".

أما الأصبخري^(٥) وابن حوقل^(٦) فيقولان فى هذا الصدد: "وأما سياستهم وأمر المملكة بهم فإن عظيمهم يسمى خاقان خزر، وهو أجل من ملك الخزر إلا أن ملك الخزر هو الذى يقيمه" وفى موضع آخر يذكران "ملك الخزر يسمى بلسانهم بك ويسمى أيضا باك".^(٧)

(٣) الأغلان النفيسة، ص ١٣٩

Macarthy: The Magyars in the Ninth Century, p.198.

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر. ح ١، ص ١٣٦

(٥) المسالك والممالك ، ص ١٣١

(٦) المسالك والممالك ، ص ٢٨٣

صورة الأرض. ص ٣٩٠

(٧) الأصبخري : المسالك والممالك . ص ١٢٩

ابن حوقل المسالك والممالك . ص ٢٧٨

صوره الأرض. ص ٣٩٠

ناقوس معجم البلدان ح ٣ ص ٤٣٣

القزوينى . اثار البلاد واخبار العباد ص ٥٨٥

أما الكرديزي^(٨) فيقول: "أن للخزر ملك عظيم يسمى الشاد، كما أن لهم عظيماً آخر يسمى خاقان الخزر، وليس له إلا الاسم فقط، أما مدار شغل الولاية والحشم فهو على الشاد، وليس هناك إنسان أعظم منه مطلقاً".

وعند تقليب هذه الروايات على وجوهها نخلص منها إلى وجود شخصين في مملكة الخزر يقومان بأعباء الحكم^(٩) الأول الخاقان والثاني نائبه، ويتضح من تلك الروايات أيضاً أن نائبه كان صاحب السلطة العليا والفعلية في البلاد، وكانت له مقاليد التصرف المطلقة في كل ما يتعلق بالمملكة، كما كانت له السيادة والمهابة.

على أن هناك بعض الملاحظات على تلك الروايات السابقة، إذ نجد المصادر السابقة تختلف فيما بينهما بشأن لقب ملك الخزر ونائبه، فعلى سبيل المثال يطلق ابن فضلان على ملك الخزر لقب خاقان الكبير وعلى نائبه خاقان بك، في حين أن المسعودي يطلق عليه خاقان وعلى نائبه ملك، والأصطخري يطلق عليه خاقان خزر وعلى نائبه ملك الخزر كما يطلق عليه بك أو باك، أما ابن رسته فيطلق عليه خزر خاقان وعلى نائبه ايشا، والكرديزي يطلق عليه خاقان الخزر وعلى نائبه الشاد.

ويبدو أن كلمة شاد^(١٠) ليست تركية الأصل وهي إلى حد كبير وردت على الخزر من الخارج، فهذه الكلمة على ما يبدو هي الصورة القديمة لكلمة شاه الفارسية التي تعني الملك، وحرفت عندما استخدمها الخزر إلى هذا الشكل.

(٨) زين الأخبار، ج ٢، ص ٤٦٣.

Macarthy: op. Cit., pp. 197-9.

(٩) Hudud Al Alam., p. 451.

Koestler: op. Cit., p. 54.

(١٠) شاد : "هو لقب أعضاء أسرة الخان الذين يرأسون القبائل".

انظر، بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى. ص ٨.

ولكن الشيء المفروغ منه أن الحكم بمملكة الخزر كان يتقاسمه شخصان (عاهلان) وإن لم نلمس ذلك أو نجد دلالة واضحة عن ازدواجية الحكم فى استعراضنا للحروب الطويلة التى دارت بين الخزر والمسلمين.

على أن ظاهرة الشخصين اللذين يقومان بأعباء الحكم بمملكة الخزر أو العاهلين نلمسها بشكل واضح بين الشعوب التركية الأخرى كالفراخانية Qarakhanids وكذلك نجد لها نظائر فى اسبرطة الإغريقية قديما واليابان فى العصور الوسطى أيضا كان هناك فى الحكم الشوجن Shogun والميكادو Mikada^(١١) والحقيقة أن وجود شخصين على رأس الحكم بمملكة الخزر يدفعنا إلى القول أنه ربما كان للخزر عقلية تفرق بين الأمور الدينية والأمور الدنيوية.

أما عن العلاقة بين ملك الخزر ونائبه وعن مراسم الخاقان فقد كان هذا النائب "يدخل فى كل يوم إلى خاقان الكبير متواضعا يظهر الإخبات"^(١٢) والسكينة ولا يدخل عليه إلا حافيا وبيده حطب، فإذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب، فإذا فرغ من الوقود، جلس مع الملك على سريره عن يمينه، ويخلف هذا أيضا رجل يقال له جاوشينغر"^(١٣) كما أن هذا الملك (الخابان) يعظم ويسجد له كل من يدخل عليه "ولا يصل إليه أحد إلا نفر يسير مثل الملك (نائبه) ومن فى طبقتة ولا يدخل عليه الملك إلا لحادثه، فإذا دخل عليه تمرغ فى التراب وسجد وقام من بعد، حتى ياذن له بالتقرب، وإذا حزبهم حزب عظيم أخرج فيه خاقان، فلا يراه أحد من الأتراك ومن يصاقبهم من أصناف الكفر إلا انصرف ولم يقاتله تعظيما له".^(١٤) وكان

^(١١) Art, Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p. 946.
Rosenthal: Art. Chazar, in the Jewish Ency., vol. iv, p.4.
Bury: A History of the Eastern Roman Empire, p. 404.
Koestler: op. Cit., 54.

^(١٢) الإخبات : الخشوع والتواضع، "أحببت إلى ربه أى اطمأن إليه وفيه خبته أى تواضع"، انظر

ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ١٠٨٧.

^(١٣) ابن فضال: رسالة ابن فضال، ص ١٦٩-١٧٠.

^(١٤) الاضطخري: المسالك والممالك، ص ١٣١.

منصب الخاقان مقصورا على أهل بيت بأعيانهم من قديم الزمان.^(١٥) ولم تكن تعقد الخاقانية إلا لمن يدين باليهودية.^(١٦) وكانت مدة حكم ملكهم أربعون عام، إذا جاوزها يوما واحدا قتله الرعية وخاصته، وقالوا "هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه".^(١٧) أى أن الفترة المحددة لحكم الخاقان هي السبيل الوحيد لإقصائه وليست صيحة الشعب واستيائه.

أما عن مراسم تنصيب الخاقان بمملكة الخزر فيذكر المسعودي^(١٨) قائلا: "ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم إلا بخابان يكون عنده فى دار مملكته، ومعه فى حيزه فإذا أجدبت أرض الخزر أو نابت بلدهم نائبه، أو توجهت عليهم حرب لغيرهم من الأمم أو فاجأهم أمر من الأمور، نفرت الخاصة والعامة إلى ملك الخزر، فقالوا له: قد تطيرنا بهذا الخاقان وأيامه، وقد تشاءمتا به، فاقتله أو سلمه إلينا نقتله، فربما سلمه إليهم فقتلوه، وربما تولى هو قتله، وربما رق له فدافع عنه، لأن قتله بلا جرم استحقه ولا ذنب أتاها....." ويعقب المسعودي بأن ذلك رسم الخزر فى ذلك الوقت، ولا يدرى أفى قديم الزمان كان ذلك أم حدث.

والخزر "إذا أرادوا أن يقيموا هذا الخاقان جاءوا به فيخنقوه بحريه حتى إذا قارب أن ينقطع نفسه قالوا له: كم تشتهى عدة الملك، فيقول كذا وكذا سنة، فإن مات دونها وإلا قتل إذا بلغ تلك السنة"^(١٩) والحقيقة أن تلك الصورة الخاصة

(١٥) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ ١، ص ١٣٦.

(١٦) الاضطخري: المسالك والممالك، ص ١٣١.

(١٧) ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، ص ١٧٢.

القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٨٥.

(١٨) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص ١٣٦.

(١٩) الاضطخري: المسالك والممالك، ص ١٣١.

ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٢٨٣-٢٨٤.

صورة الأرض، ص ٣٩٥.

باحترافات تنصيب الخاقان عند الخزر وما يصاحبها من طقوس غريبة تثير الغرابة والدهشة، ولا ندري هل تحرى المؤرخون المسلمون الدقة في عرضهم لهذا الموضوع أم أن هذا الموضوع يعتبر في حكم العادى إذا نظرنا إليه بروح العصور الوسطى ولم ننظر إليه بروح العصر الحاضر.

أما مراسم دفن الملك فقد كانت أغرب مما سبق حيث إن "رسم الملك الأكبر إذا مات يبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتاً، ويحفر له في كل بيت منها قبر. وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل، وتفرش فيه، وتطرح النورة^(٢٠) فوق ذلك، وتحت الدار نهر، والنهر كبير يجرى ويجعلون القبر فوق ذلك النهر، ويقولون: "حتى لا يصل إليه شيطان ولا إنسان ولا دود ولا هوام". وإذا دفن ضربت أعناق الذين يدفنونهم حتى لا يدري أين قبره من تلك البيوت، ويسمى قبره الجنة. ويقولون: "قد دخل الجنة". وتفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب".^(٢١) وإذا مات ودفن لم يمر أحد بقبره إلا ترجل وسجد له، ولا يركب حتى يغيب عن قبره.^(٢٢) ويبدو أن الملك كان يعامل معاملة الإله من حيث القدسية والطاعة العمياء من قبل رعاياه. ويؤكد ذلك أنه بلغ من طاعتهم لملكهم أن أحدهم ربما وجب عليه القتل - ويكون من كبرائهم - وكان الملك لا يريد قتله على الملأ، فيأمره أن يقتل نفسه، فيذهب إلى منزله ويقوم بقتل نفسه^(٢٣).

=الدمشقي : نخبه الدهر في عجائب البر والبحر، ص ٢٦٣.

(٢٠) النورة : من الحجر الذى يحرق ويسوى منه الكلس ويخلق به شعر العانة.

انظر ابن منظور : لسان العرب، ح ٦، ص ٤٥٧٣.

(٢١) ابن فضالان : رسالة ابن فضالان، ص ١٧٠-١٧١.

(٢٢) ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ١٣١.

صورة الأرض، ص ٣٩٥.

(٢٣) الأمطخري : المسالك والممالك، ص ١٣١.

ولقد تشكك المؤرخ المحدث بيورى فى أقوال الجغرافيين المسلمين فى القصص العجيبة التى أوردوها والمصادر التى اعتمدوا عليها^(٢٤) والحقيقة أن ما يؤخذ على المؤرخين المسلمين المعنيين بالخزر أنهم ركزوا اهتمامهم على الأشياء الغريبة العجيبة فقط دون غيرها، ومن المحتمل أنه لو صحت تلك العادات عند الخزر فإنها ربما تولدت عندهم من ماضيهم القبلى الذى كانت تكتنفه الهمجية.

وفى الرسالة التى بعث بها الملك يوسف ملك الخزر - فى القرن العاشر الميلادى إلى حسداى وزير خارجية الخليفة الأموى بالأندلس عبد الرحمن الثالث (٩١١-٩٦١م / ٣٠٠-٣٥٠هـ) والذى تعرض فيه لنواحى كثيرة بمملكة الخزر. نجدها خالية تماما مما عرضته المصادر الإسلامية الأمر الذى يدفعنا إلى القول أن المراسيم والعادات والتقاليد التى لازمت الخزر فى فجر ظهورهم قد نالتها يد التغير والتبديل بعد اعتناقهم الديانة اليهودية.

ولا تدل المصادر المتاحة لدينا على أن اختيار الخزر لملوكهم كان عن طريق الانتخاب الشعبى أو إعلان الموافقة على ما اختاره زعمائهم أو عن طريق العنف والغدر والاغتيال. والمطلع على الخطاب الذى أرسله الملك يوسف إلى حسداى يجد أنه أورد قائمة بأسماء الملوك الذين سبقوه، وقد بدأ بذكر الملك عبديه Obadiah الذى خلفه ابنه هيزيكيا Hezekiah الذى خلفه ابنه مانسه Manasseh وقد خلف مانسه هانوكاه Hanukkah أخو عبديه، وقد خلف هانوكاه أخاه إسحاق Isaac، وقد خلف إسحاق ابنه موسى Moses (أو مانسه الثانى) والأخير خلف ابنه نيسى Nisi الذى خلف ابنه آرون الثانى Aron II. ثم الملك يوسف Joseph كان نفسه ابن الملك آرون، وارتقى العرش طبقا للقانون الخزرى الذى يعتبره خليفة والده^(٢٥) وبذلك يتضح أن طريقه الوصول إلى العرش فى مملكة الخزر كان عن طريق النظام الوراثى.

(24) A History of the Eastern Roman Empire, p. 405.

(25) Rosenthal : Art. Chazar, in the Jewish Ency., Vol. iv, p. 2.
Koestler : op. Cit., p. 74.

وكيفما كان الأمر فقد كشفت تلك المعلومات عن أسلوب اختيار الخرز لمملوكهم والمراسيم المختلفة التي كانت تجرى في بلاطهم. ويتضح ذلك فيما أورده المؤرخ والإمبراطور البيزنطي قسطنطين بورفيروجينيتوس^(٢٦) فقد ذكر أن خاقان الخزر كان يتمتع بمكانه طيبه في البلاط البيزنطي وكانت الرسائل الدبلوماسية التي كان يرسلها البلاط الإمبراطوري إلى خاقان الخزر تحمل سمات الاحترام والتقدير. فالرسائل التي كان يبعث بها البلاط البيزنطي إلى حكام مصر وسردينيا وسالرنو وكابوا ونابولي وروما والبلغار وغيرهم، كانت ترسل مختومة ومذهبة بختم يساوي عمله ذهبية واحدة (صولدي)، أما الرسائل التي كانت ترسل إلى خاقان الخزر، فقد كانت ترسل مختومة ومذهبة بختم يساوي ثلاثة صولدي Trisoldai، الأمر الذي يدل - كما سبق القول - على أن خاقان الخزر كان يتمتع بمكانة رفيعة في البلاط البيزنطي.

القضاء:

من المتعارف عليه أن السلطة القضائية تكون منفصلة عن السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية. والقضاء لا يحكم وفقا لرأي الحاكم، وإنما يحكم وفقا لنظام أو شريعة معينة يستند إليها.

ويوضح لنا المسعودي^(٢٧) الوضع القضائي في مملكة الخزر قائلا: "ورسم دار مملكة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة، اثنان منهم للمسلمين، واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة، واثنان لمن بها من النصرانية يحكمان بحكم النصرانية، وواحد منهم للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية، وهي قضايا عقلية فإذا ورد عليهم مالا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم وانقادوا إلى ما توجبه شريعة الإسلام".

(26) De Cerimoiis Aulæ Byzantinae, in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonnae, 1829), Vol. I, p. 590.

(27) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ص ١٣٥.

ويتضح مما سبق أن النظم القضائية للأديان المختلفة في هذه المملكة كانت كل منها منفصلة عن الأخرى. فكان المسلمون يحكمون بين الناس على أساس أحكام القرآن الكريم والنصارى على أساس أحكام الإنجيل، والخزر الذين تهودوا على أساس أحكام التوراة ويتضح أيضا من عدد القضاة وتوزيعهم أن أصحاب الديانات الوثنية هم أقل الفرق بالمملكة، كما أن تصريف شئون العدالة في تلك المجتمعات كان يتم بصورة عادلة أمام محاكم عادلة. وكان لأى مواطن خزرى الحق فى أن يرفع دعوى على خصمه، ومن هنا كان على الخصم أن يمثل أمام المحكمة التى تخصه من المسلمين أو النصارى أو اليهود أو الوثنيين، ويجرى الاقتصاص منه. ومما يدل على صحة ما أورده المسعودى أننا لم نسمع عن أى اضطهاد دينى قام به الخزر ضد أصحاب الديانات السماوية، بل كانت مملكة الخزر فى الحقيقة مأوى وملجأ للمضطهدين دينيا من اليهود، كما ظهرت جليا العدائية فى توزيع القضاة على طبقات المجتمع الخزرى والشيء الملاحظ هنا أن قضايا النزاع التى كانت تنشب بين مسلم وآخر غير مسلم كانت تحال إلى المحاكم الإسلامية ليجرى الفصل فيها وفقا للشرعية الإسلامية فمثلا إذا جرى قيام دعوى قضائية بين مواطن مسلم ومواطن نصرانى أو مواطن يهودى وآخر من هاتين الطائفتين فإن ذلك يحال إلى المحاكم الإسلامية وحدها.

وإلى جانب ذلك فقد كان لملك الخزر دور قضائى، فقد نهض بعهمة الاستماع إلى الدعاوى القضائية والفصل فى المنازعات، ويقول الأصطخرى^(٢٨):
 "ولملك سبعة"^(٢٩) من الحكام (القضاة) من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل

(٢٨) المسالك والممالك، ص ١٢٩.

ابن حوقل : المسالك والممالك، ص ٢٧٩.

: صورة الأرض، ص ٣٩٠.

"ذكر ياقوت، نفس هذا المقطع بالنص، إلا أنه ذكر أن للملك تسعة من الحكام وليس سبعة، ويبدو أنه الصواب سبعة لاتفاق المسعودى والأصطخرى وابن حوقل على هذا الرقم. =

الأوثان، إذا عرض للناس حكومة قضى فيها هؤلاء، ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه، وإنما يصل إلى هؤلاء الحكام، وبين هؤلاء الحكام يوم القضاء - وبين الملك سفير يرأسلونه فيما يجرى من الأمر، وينتهون إليه، فيرد عليهم أمره ويمضونه".

ومما يبعث على الدهشة ما أورده ابن حوقل^(٣٠) عن الأحكام القضائية بقوله: "وما جرى في أحكام الملك من أشياء كالخرافة ومنها ما حكاه المعتضد، وقد ذكر بين يديه فازدراه ذاكره فقال المعتضد كلا إنه لمروى عن النبي ﷺ أنه قال "الله جل اسمه لم يول رجلا قوما إلا وأيده بضرب من التسديد وإن كان كافرا"، ومن ظريف ذلك أن رجلا من أهل خزران كان له ولد قد تصرف في التجارة ومهر في الأخذ والعطاء، فأخرجه إلى بلغار الداخل ولم يزل يجهز عليه التجارة، وتبنى بعد إخراج ابنه عنه عبدا كان له فخرجه وبصره فحسنت بصيرته فيما ندبه له من التجارة حتى دعاه بالنبوة لقربه من طاعته وقلبه وطالت غيبة الابن، ومقام الغلام في خدمة الأب إلى أن هلك الرجل وأقبل الابن على الجهاز ولم يعلم بموت أبيه، والغلام يحصل ما يرد عليه ولا يجهز عرضا مما يرد إليه، وكاتب الابن الغلام لينفذ إليه الجهاز على رسمه فرد عليه الأمر بالقدوم عليه ليحاسبه عما بيده ويقبض منه ما لأبيه عنده، فورد على الابن ما أسرع به إلى مستقر أبيه من خزران وتنازعا الخصومة في ذلك، والحجاج بالبينات، فكان إذا قام لأحدهما ما قد ظنه كافيا من الحجة، جاء الآخر من الشبه بما وقف حاله وأكثر أحكامهم مبنى على مثل ذلك".

ويستمر ابن حوقل^(٣١) قائلا: "وطال بهما التنازع حولا كاملا، إذ طالت الخصومة وصار الأمر في التشاجر والمنازعة إلى حال الوقوف أتلى الملك بين

= انظر : معجم البلدان - ٣، ص ٤٣٣.

(٣٠) صورة الأرض، ص ٣٩١.

المسالك والممالك، ص ٢٧٩

(٣١) صورة الأرض، ص ٣٩١-٣٩٢

الخصمين، فجلس لهم وأحضر جميع الحكام وأهل البلد وأعادا دعواهما منذ ابتداء الخصومة، فلم ير الملك لأحدهما على الآخر سبيلا لتكافؤ البيئات عنده. فقال الملك لابن أتعرف قبر أبيك على الحقيقة، فقال عرفته ولم أشهد دفنه فأحقه. فقال للغلام المدعى أنت تعرف قبر أبيك فقال نعم أنا توليت دفنه، فقال على منه برمة إن وجدتموها، فأتى الغلام القبر فانتزع منه بعض عظامه البالية. وجرى بها إليه. فقال للغلام المدعى بنوة التاجر أفصد نفسك ففصد، ثم أمر فألقى دمه على العظم فتسرب الدم عنه ولم يعلق بشيء منه، وفصد الابن وطرح دمه على ذلك العظم فنشفه وعلق به. فأدب الغلام وعزره ودفعه وماله إلى الابن".

والحقيقة أن تلك القصة رغم ما يكتنفها من مبالغة إلا أنها تبين أن الخزر احتفظوا بعبادات بدائية تخلفت عندهم من ماضيهم القبلية. وهذه الطريقة التي اتبعها الملك يمكن أن نطلق عليها طريقة التحكيم الإلهي، وهي وسيلة لمعرفة ما إذا كان المتهم بريئا أو مجرما. وهي أيضا ممزوجة بالطقوس الدينية، لأن مسؤولية إثبات دليل البراءة أو الذنب ترجع عندئذ إلى الإله. ولا شك أنهم كانوا يلجأون إلى تلك الطريقة بعد استنفاذ جميع الوسائل الدالة على إدانة المتهم أو إخفاقة في إثبات دليل براءته ومهما يكن من أمر فإن رواية ابن حوقل تحملنا على الاعتقاد بأن حكم الملك كان ساريا على الطبقات المختلفة التي شكلت المجتمع الخزري. وتوضح أيضا أنه كان من واجبات الملك الخزري الفصل في المنازعات والخصومات، وأن أحكامه كانت ملزمة واجبة النفاذ، لا تقبل المعارضة أو المداولة أو الطعن في الحكم أو الاستئناف العالي، وربما مرجع ذلك إلى أن المفاهيم الأخيرة لم تكن سائدة ومعروفة في ذلك الوقت.

على أن المصادر المتاحة بين أيدينا عجزت عن إمدادنا بالمزيد من المعلومات المتعلقة بالقوانين المختلفة المختصة بكيفية معالجة القضايا المختلفة

المتعلقة بالاعتداءات والوراثة أو تقسيم الملكية أو الزواج والطلاق وغيرهما من المسائل الأخرى.

الجيش:

لا شك أن دولة كدولة الخزر تقع في موقع استراتيجي في شرق أوروبا بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الإسلامية والعديد من الشعوب القاطنة في شرق أوروبا، كان عليها أن تعمل حسابا لتلك الشعوب. وكان لابد من وجود جيش قوى على أهبة الاستعداد أو يتصف بالكفاية والدراية بفنون الحرب، يحرسها ويقيها.

وسبق القول أن المصادر الإسلامية أوضحت أنه كان على راس مملكة الخزر شخصان أحدهما كان يعامل معاملة القدسية وليس له من الأمر شيء وهو الملك والثاني نائبه الذي كان عليه تدبير المملكة من قيادة الجيش إلى أدنى الأمور بالمملكة، ولكن يبدو أن للخاقان الكبير دور بالنسبة للأمور الخطيرة كإعلان الحرب، "وإذا ركب هذا الملك الكبير ركبت سائر الجيوش لركوبه ويكون بينه وبين المواكب ميل، فلا يراه أحد من رعيته إلا خر لوجهه ساجدا له لا يرفع رأسه حتى يحوزة^(٣٢)". وبذلك كان الملك الأكبر لا يخرج إلا إذا تعرضت الدولة الخزرية لخطر عظيم من أعدائها.

أما عن التشكيلات والتجهيزات الحربية وأسلوب قتال الخزر في الحرب، فنجد ذلك في نص ابن رسته^(٣٣) إذ يقول: "وهم يغزون البجناكية في كل سنة وأيشا (نائب الخاقان) هذا يتولى الخروج بنفسه، ويخرج في مغازيه بعساكره ولهم جمال ظاهر وإذا خرجوا في وجه من الوجوه، خرجوا بأسلحة تامة محلاة وأعلام

(٣٢) ابن فضلان: رسالة بن فضلان، ص ١٧١.

القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٨٥.

ياقوت : معجم البلدان، ح ٣، ص ٤٣٥.

(٣٣) الأعلام النفيسة، ص ١٤٠.

طرادات^(٣٤) وجواشن^(٣٥) محكمة وركوبه في عشرة آلاف فارس ممن هو مرتبط بأجری عليهم، وفيهم من قد وظف على الأغنياء وإذا خرج لوجه من الوجوه هيىء بين يديه مثل شمس على صنعة الدف يحتمله فارس يسير به أمامه، فهو يسير وعسكره خلفه ييصرون ضوء تلك الشمس، فإذا غنموا جمعوا تلك الغنائم كلها في معسكره ثم اختار أيشا منها ما أحب وأخذ لنفسه وأطلق لهم باقى الغنيمة ليقسموها بينهم".

ويشير الكرديزى^(٣٦) إلى الأسلوب القتالى الذى كان يتبعه الخزر قائلا: "وهم يذهبون كل عام إلى ولاية جنالك للغزو، ويجلبون من هناك المال والسبايا. ويأخذ الشاد (نائب الخاقان) خراجه ويوزعه على الجيش ولهم أثناء غزو السبرداس (البرطاس) الأعلام والطرادات والجواشن المحكمة والمعارك الضاربة. وحينما يركب ملك الخزر يركب معه عشرة آلاف فارس بعدتهم وآلاتهم، وبعضهم يأخذ الرواتب وبعضهم يأخذ مما يوضع على الأغنياء من أموال وصدقات، وحينما يذهبون إلى الغزو يتركون جيشا كثيفا فى ديارهم حتى يرعوا الأبناء والذخيرة ولهم طلائع تتقدم الجيش كما تتقدم الملك الشموع والنفاطات^(٣٧) التى صنعت من الشمع حتى يسير على نورها مع الجيش. وحينما يغنمون غنيمة فإنهم يجتمعون جميعا فى المعسكر ثم يأخذ قائدهم لنفسه كل ما يريد من تلك الغنائم ثم يقسم الباقي بين الجيش. ويأمر قائدهم أن يحمل كل جندي دبوسا له راس حادة مقداره ثلاثة أزرع، وحينما ينزلون يغرسون تلك الدبابيس حولهم، ويلقون على كل دبوس درعا وبذلك

(٣٤) طرادات : جمع طراد وهو الرمح القصير.

انظر ابن منظور : لسان العرب، ص ٢٦٥.

(٣٥) جواشن : الجوشن، اسم الحديد الذى يلبس من ائسلاح (الدرع).

انظر : ابن منظور : لسان العرب، حـ ١، ص ٦٢٩.

(٣٦) زين الأخبار، حـ ٢، ص ٤٦٤-٤٦٥.

(٣٧) النفاطات : ضرب من السرج يرمى بها بالنفط وهى أدوات تعمل من النحاس يرمى فيها

بالنفط والنار، انظر ابن منظور : لسان العرب، حـ ٦، ص ٤٥٠٦.

يصنعون ما يشبه السور المعسكر، ولو أراد عدو أن يباغتهم ليلاً ويقيم معهم معركة فإنه لا يستطيع لأن المعسكر بتلك الدبابيس المدرعة يصير كأنه الحصن".

وإذا تمعنا فيما أورده ابن رسته والكرديزى نجد أن الحرب عند الخزر كانت من التقاليد الراسخة نظراً للظروف الجغرافية المكانية التي كانت فيها مملكتهم، كما يتضح أن ملك الخزر كان هو القائد الأعلى للجيش الخزرية، فإذا أعلن أوامره لحملة عسكرية على أحد الشعوب القاطنة حول الخزر كالبجناكية أو ضد المسلمين، وجب على الجميع الإنصياع لأوامره كما أنهم على ما يبدو لم يعرفوا مبدأ الشورى في تصريف الأمور العسكرية وبعبارة أخرى لم يكن الملك يأخذ برأى كبار قادته العسكريين.

ولا شك أن جيش الخزر قد واكب مبتكرات زمانه في المعدات وفنون الحرب. إذ يتضح مما أورده ابن رسته والكرديزى من أنهم في حروبهم كانوا يخرجون بأسلحة تامة وأثناء حروبهم مع المسلمين كانوا يستخدمون بعض العجلات الحربية وكان ملكهم يستخدم إحدى هذه العجل والتي كانوا يطلقون عليها اسم الجداة وقد فرشت له بأنواع الفرش وقد علت بقبة من الديباج وعلى رأس القبة رمانة من ذهب.^(٣٨)

أما عن أعطيات الجند فيبدو أنها كانت تعتمد اعتماداً كلياً على الغنيمة وكان الملك أو قائد الكتيبة يتقاضى أكبر قدر بينما يتقاضى من هم دونه باقى تلك الغنيمة، كما أنه كان للخزر أساليب تكتيكية استراتيجية في الحروب انفردت على ما يبدو به وهو أسلوب الحصار الدفاعى الذى تخلقه حول كتائبها والذى يشبه الحصن وبقائها من قدوم هجمات مفاجئة.

وقد استعان الخزر فى جيوشهم بالجند المرتزقة التى كانت تحمل السلاح وتؤدى الخدمة العسكرية فى صفوف الخزر "وليس فى الملوك من عنده جند مرتزقة

(٣٨) ابن أعثم: كتاب الفتوح، ج ٨، ص ٦٧.

فى تلك الجهات غير ملك الخزر^(٣٩) وقد أوضح ذلك جليا فى اشتراك أهل خوارزم فى جيش الخزر الذين كانوا يحصلون عند التحاقهم على حق الحياذ إذا دخل الخزر فى حرب ضد بلد إسلامى^(٤٠). كما أن جنود الخزر أنفسهم انخرطوا فى صفوف جيوش الإمبراطورية البيزنطية مع العناصر الأوربية والأرمينية والهنغارية التى شاركت فى حروب الإمبراطورية^(٤١). وعلى أية حال فإن الجيش الخزرى كان يعتمد فى حروبه على الجنود النظاميين من الخزر فضلا عن الجند المرتزقة.

أما عن أعداد جيوش الخزر فقد كان للملك جيش يبلغ عدده اثنا عشر ألف رجل وإذا مات منهم رجل أقيم غيره^(٤٢). كما كان للخزر أعداد ضخمة من الجيوش والأقوام المحاربة التى تسكن مدينة طولاس Tulas الخزرية^(٤٣) وقد ذكر كل من الكرديزى وابن رسته أن عدة الجيش عشرة آلاف، والحقيقة أن هذا الرقم لا يتفق مع ما أورده المؤرخون المسلمون فى حروب المسلمين مع الخزر التى زاد بعضها عن الثلاثمائة ألف وعلى الرغم من أن العدد الأخير مبالغ فيه إلا أنه بكل تأكيد كان يزيد عن عشر آلاف نظرا لأن الحروب قديما كانت تعتمد على الكثرة العددية. وقد سبق الإشارة فى الفصل الثانى الخاص بعلاقة الخزر بالبيزنطيين كيف قدم حاكم الخزر أربعين ألف للإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م)^(٤٤) ويمكن أن نطلق على هذه الأرقام التى ذكرتها المصادر الإسلامية أنها قوة مسلحة مرابطة مرافقة للملك فقط.

(٣٩) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ح، ١، ص ١٣٦.

ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص ٢٥٢.

(٤٠) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ح، ١، ص ١٣٥.

بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ص ٦٠.

(٤١) Kazhdan and Epstein: Change in Byzantine Culture in the Eleventh and Twelfth Centuries, (London, 1985), p. 172.

Franzius : History of the Byzantine Empire, p. 187.

(٤٢) الأصبخى : المسالك والممالك، ص ١٢٩.

(٤٣) Hudud Al Alam, p. 162.

(٤٤) انظر الفصل الثانى من الكتاب.

وتجدر الإشارة إلى ما كان يلاقيه المتخاذل في الحرب من عقاب على يد الملك حيث إنه "إذا بعث سرية لم تولد الدبر بوجه ولا سبب. فإن انهزمت قتل كل من ينصرف إليه منها. فأما القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر ساءهم وأولادهم فوهبهم بحضرتهم لغيرهم وهم ينظرون. وكذلك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم، وربما قطع كل واحد منهم قطعتين وصلبهم، وربما علقهم بأعناقهم في الشجر وربما جعلهم إذا أحسن إليهم ساسة".^(٤٥)

ومهما يكن من أمر فقد كان للخزر جيش قوى استطاع أن يوقف الزحف الإسلامي على شرق أوروبا - كما سبق أن أشرنا - ووقف أمام بيزنطة في فترات عديدة، وكان الجندي الخزري ندا قويا في ملاقاته مع عدوه. هذا ولم تذكر المصادر المتاحة بين أيدينا أى شئ عن الأسطول الخزري والدور الذى قام به. ويبدو أن القتال العسكرى البحرى عند الخزر لم يأخذ نفس الأهمية التى أخذها القتال البرى.

اللغة:

تعتبر اللغة أساس الحضارة البشرية، واللغة ظاهرة اجتماعية تستخدم لتحقيق التفاهم بين الناس وانتقال المعلومات والخبرات بين الأفراد. أما بشأن لغة الخزر فيقرر جغرافيو العرب "أن لسان الخزر غير لسان الترك والفارسية ولا يشاركه لسان فريق من الأمم".^(٤٦) أى أنه كان للخزر لغة منفردة لها قواعدها ودلالاتها ونطقها وصيغها.

^(٤٥) ابن فضلان: رسالة بن فضلان، ص ١٧٢.

^(٤٦) الأصبخري: المسالك والممالك، ص ١٣٠.

ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٣٤.

البكري: المسالك والممالك، ص ٤٤.

Klaproth : Memoire sur les khazars, in Journal Asiatique, T.3, pp.155-6.

الخاصة بها، وهو ما يتفق على ما يبدو مع ما ذكره المقدسي^(٤٧) من أن "لسان الخزر شديد الانغلاق".

ويذهب الأصطخري^(٤٨) أيضا إلى أن "لسان بلغار مثل لسان الخزر وبرطاس" أي أنه كان للخزر والبلغار لغة مشتركة منفردة عن بقية الشعوب.

ومن جهة أخرى فقد تحدث اليهودي إبراهيم بن يعقوب (القرن العاشر الميلادي) وذكر أن الخزر كانوا يتكلمون بلغة الصقالبة (البلغار).^(٤٩)

غير أن الكاشغري^(٥٠) يناقض الأصطخري فيما ذهب إليه من أنه كان للخزر والبلغار لغة مشتركة متميزة على التركية ويجعل لهجات البلغار والسوار والبيجناك متدرجة في مجموع واحد.

على أنه يبدو أن الجغرافيين المسلمين قد أصابوا فيما ذهبوا إليه من أن الأقوام التركية التي تبدأ بالبيجناك في جنوب روسيا ثم تنتشر حتى حدود الصين تتكلم بلغات متشابهة فيما عدا البلغار في حوضي الفولجا والخزر، فإن لغتهما لم تكن تقيم عند سائر الأقوام التركية ولهجة الجوفاش^(٥١) الحالية هي بنفس هذا الوضع. ويسمى البلغار والخزر نهر الفولجا (أتيل) وهي كلمة جوفاشية بمعنى نهر. ومن هنا ذهب أصحاب الدراسات التركية إلى أن لغة الجوفاش هي بقايا اللسان القديم

(٤٧) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٦٨.

(٤٨) المسالك والممالك، ص ١٣١.

(٤٩) Dunlop : The History of the Jewish Khazars, p.230.

(٥٠) Barthold : Art. Turks, in the Ency. of Islam, Vol. vi.

(٥١) يفترض أن لغة الخزر هي لهجة الجوفاش التركية المنتشرة الآن في الجمهورية السوفيتية بين نهر الفولجا والسورى Sura، ذلك أن الشعب الجوفاش يعود إلى حد كبير بأصوله إلى البلغار الذين تشبه لغتهم لغة الخزر.

Koestler : op. Cit., p. 21.

انظر:

للبلغار وربما للخزر^(٥٢). وبذلك تكوين لغة البلغار والخزر منسوبة إلى اللغة التركية القديمة والتي منها الآن الجواش.

ويبدو أن الشعوب الكائنة في منطقة القوقاز كانت تدرج تحت عائلة لغوية واحدة تعود بأصولها إلى اللغة التركية وهذه العائلة تنسب إلى العديد من الفروع، هذه الفروع تختلف وتقترب من بعضها البعض طبقا لاختلاف المسافات بينهما وطبقا لألوان الاحتكاكات فيما بينهما. وربما يكون الاختلاف اختلاف لهجات فقط.

أما عن نوعية الكتابة التي مارسها الخزر فيذكر ابن النديم^(٥٣) عند حديثه عن الترك ونوع كتاباتهم "أن الخزر تكتب بالعبرانية". والحقيقة أن ذلك صحيح إلى حد بعيد إذ أن مهاجري اليهود إلى بلاد الخزر قد جلبوا معهم فنونا وحرفا يزنطية أرفع مما كنا نجده عند الخزر، منها حروف الهجاء العبرية المربعة، وانتشرت هذه الكتابة العبرية فبلغت جيران الخزر من الشعوب الصقلبية^(٥٤). ومن ثم فإن تحول الخزر لليهودية اقترن بتطورات ثقافية جاءت في ركابه.

وفي الرسالة المتبادلة بالعبرية بين الأندلس وبلاد الخزر ذكر الملك يوسف ملك الخزر أن الخزر تكتب بالعبرية^(٥٥).

ولا يهمنا هنا الإحاطة بمفردات اللغة ومعرفة قواعدها ودلالاتها وصيغها ولهجاتها أو أشكالها الصوتية فهذا من شأن علماء اللغة، إلا أن الشيء الذي لم تفصح عنه المصادر المتاحة بين أيدينا هو كيف كان مدى الكفاءة اللغوية (وهي القدرة على استخدام اللغة) والأداء اللغوي (أي تطبيق تلك الكفاءة في الكلام والاستماع) بين طبقات المجتمع الخزري المختلفة والجنسيات المستقرة فيه الروسية والإسلامية

(٥٢) بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ٢٥.

(٥٣) الفهرست، ص ٢٩.

(54) Koestler : The Thirteenth Tribe the Khazar Empire and its Heritage., p. 62.

(55) The Answer of Joseph., CF., Adler: Jewish Travellers, p. 35.

والبغارية ومعظم جنسيات العالم تقريبا. هل كان من الميسر التعامل بلغات كل تلك الجنسيات أم اقتصر التعامل في أرض الخزر بلغة الخزر.

المجتمع:

قدر لمملكة الخزر أن تكون مسرحا لأجناس شتى من شعوب متباينة، ولا شك أن تلك الشعوب التي عجت بها أرض الخزر احتوت على نوعيات مختلفة من الناس أسهمت في بناء المجتمع الخزري. هذه النوعيات جاءت إلى أرض الخزر مدفوعة بدوافع عديدة كالهجرة والتجارة وربما المغامرة، وبذلك صارت الخزر بحق مجتمعا فريدا في نوعه.

وكان المجتمع الخزري يضم مختلف الطوائف الدينية تقريبا من المسلمين ونصارى ويهود وعبداء أوثنان ممن يسجد ممن يسجد لبعضهم البعض عند التعظيم^(٥٦). ويلاحظ في دراسة المجتمع أن الملك كان يقع على رأس المجتمع الخزري وفي ذلك يذكر ابن فضلان^(٥٧) قائلا: "ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة، كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه، يأخذها طوعا أو كرها. وله من الجوارى السرارى لفراشه ستون، ما منهن إلا فائقة الجمال. وكل واحدة من الحرائر والسرارى في قصر مفرد، لها قبة مغطاة بالساج^(٥٨) وحول كل قبة مضرب، ولكل واحدة منهن خادم يحجبها. فإذا أراد أن يطأ بعضهن بعث إلى الخادم الذي يحجبها فيوافي بها في أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشه. ويقف الخادم على باب قبة الملك، فإذا وطنها أخذ بيدها وانصرف، ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة". ولا

(٥٦) الأصبخري: المسالك والممالك، ص ١٢٩.

ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٢٧٨-٢٧٩.

: صورة الأرض، ص ٣٩٠.

(٥٧) رسالة ابن فضلان، ص ١٧١.

(٥٨) الساج: شجر يعظم جدا قيل لا ينبت إلا ببلاد الهند وخشب أسود.

انظر ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، ص ١٧١، حاشية رقم ٤.

شك أن ما ذكره ابن فضالان يعتبر صورته من صور الحياة التي كان يعيشها ملك الخزر، ويتضح من خلالها كيف تمسك بمظاهر الرفاهية والترف. وبذلك نستشف أن قصور أمراء وعظماء الخزر كانت مأوى لكثير من الجوارى على اختلاف أجناسهن وطباعتهم وعاداتهن وتقاليدهن ولغاتهم. ومن جهة أخرى فإن هذا الرقم الذي ذكره ابن فضالان فيما يتعلق بالجوارى والسرارى يعنى أن خاقان الخزر لم يبلغ نفوذه خمس وعشرين مملكة فحسب، بل فاق ذلك بكثير.

ومما يؤكد عادة ملك الخزر فى أخذ بنات الملوك طوعا أو كرها أنه علم بأن ابنة ملك البلغار ذات جمال، فوجه يخطبها، فاحتج عليه ورده، فبعث من أخذها غصبا وهو يهودى، فى حين أنها كانت مسلمة، فماتت عنده، فأرسل يطلب بنتا له أخرى "فساعه اتصل ذلك بملك الصقالبة (البلغار) بادر فزوجها لملك "اسكل"، وهو من تحت يده خيفه أن يغتصبه إياها كما فعل بأختها^(٥٩)". الأمر الذى دفع ملك البلغار إلى طلب العون من الخلافة الإسلامية ضد الخزر^(٦٠).

وكان لملك الخزر قصر من آجر فى مدينة أتل وليس لأحد بناء من آجر غيره، ولا يسمح الملك لأحد أن يبنى بالآجر، أما البقية من طبقات الشعب فقد كانت تسكن فى أكواخ طينية أو خيام مصنوعة من اللباد^(٦١).

ومن العناصر المختلفة التى كانت بمملكة الخزر المسلمون فقد كانت لهم مساجد وأئمة ومؤذنون وكتاتيب^(٦٢).

ومن الأجناس التى حفلت بها أرض الخزر البغار والروس، وفى مدينة أتل الخزرية "يحرقون موتاهم ودواب ميتهم وآلاته والحلى. وإذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهى فى الحياة، وإن ماتت المرأة لم يحرق الرجل، وإن مات منهم أعزب

(٥٩) ابن فضالان: رسالة ابن فضالان، ص ١٤٥.

(٦٠) نفس المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٦١) الأصبخري: المسالك والممالك، ص ١٢٩.

(٦٢) ابن رسته: الأعلاق لنفيسة ص ١٤٠.

زوج بعد وفاته. والنساء يرغبن في تحريق أنفسهن لدخولهن عند حرق أنفسهن الجنة".^(٦٣)

ومن المؤسف أن الرحالة القدير ابن فضلان قد حيل بينه وبين زيارة عاصمة الخزر خوفا على حياته، ولم نجد بدا من الاعتماد على المعلومات التي أوردها عن البلاد التي زارها والتي كان بعضيا خاضعا للخزر وبعضها كان لهم طوائف منتشرة في بلاد الخزر.

ويصور ابن فضلان^(٦٤) مظاهر الحياة الاجتماعية للروس، وهي عبارة عن صورة صادقة لمشهد الاحتفال بموت الأمير الذي انضمت إليه زوجته وجواريه في رحلته الأخيرة والتي ذكر المسعودي أنها كانت تجرى بالمجتمع الخزري. ولقد فصل ابن فضلان الموت عند الروس تفصيلا بارعا حيث وقف على ذلك بنفسه وشاهده بعينه فقص علينا ما رآه في رسالته حيث يقول: "وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلماهن: "من منكم يموت معه؟" فيقول بعضهم: "أنا" فإذا قال ذلك، فقد وجب عليه لا يستوى له أن يرجع أبدا ولو أراد ذلك ما ترك، وأكثر من يفعل هذا الجوارى. فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره قالوا لجواريه: "من يموت معه؟" فقالت إحداهن: "أنا". فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث سلكت، حتى أنهما ربما غسلتا رجليها بأيديهما وأخذوا في شأنه وقطع الثياب له، وإصلاح ما يحتاج إليه. والجارية في كل يوم تشرب وتغنى فرحة مستبشرة فلما كان اليوم الذي يحرق فيه هو والجارية، حضرت إلى النهر الذي فيه سفينته، فإذا هي قد أخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب الخدنك^(٦٥) وغيره، وجعل أيضا حولها مثل الأنابيب الكبار من الخشب، ثم مدت حتى جعلت على ذلك الخشب. وأقبلوا

(٦٣) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ص ١٣٥.

(٦٤) رسالة ابن فضلان، ص ١٥٦-١٥٨.

(٦٥) الخدنك: فارسية معربة، الخدنك وقيل الخلنج على وزن سمند وهو شجر يكون في أعراف الهند. وقيل يكثر في جرجان. انظر: ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، ص ١٥٧.

يذهبون ويحيئون ويتكلمون بكلام لا أفهم، وهو بعد في قبره لم يخرجوه. ثم جاءوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشوه بالمضربات والديباج الرومي والمساند الديباج الرومي، ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت، ففرشت على السرير الفرش التي ذكرنا. وهى وليت خياطته وإصلاحه وهى تقتل الجوارى، ورأيتها جوان بيره^(٦٦)، ضخمة مكفهرة".

ويواصل ابن فضلان^(٦٧) حديثه قائلا: "فلما وافوا قبره نحو التراب عن الخشب ونحو الخشب، واستخرجوه فى الإزار الذى مات فيه، فرأيته قد أسود لبرد البلد، وقد كانوا جعلوا معه فى قبره نبیذا وفاكهة وطنبورا فأخرجوا جميع ذلك، فإذا هو لم يتن ولم يتغير منه شيء غير لونه. فألبسوه سراويل ورانا وخفا وقرطقا وخفتان ديباج له أزرار ذهب، وجعلوا على رأسه قلنسوة ديباج سمورية. وحملوه حتى أدخلوه القبة التى على السفينة وأجلسوه على المضربة وأسندوه بالمساند وجاءوا بالنبيذ والفاكهة والريحان فجعلوه معه. وجاءوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه، وجاءوا بكلب فقطعوه نصفين، وألقوه فى السفينة. ثم جاءوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا، ثم قطعوهما بالسيف وألقوا لحمهما فى السفينة. ثم جاءوا ببقرتين فقطعوهما أيضا وألقوهما فيها. قم أحضروا ديكا ودجاجة فقتلوهما. وطرحوهما فيها. والجارية التى تريد أن تقتل ذاهبة وجائبة تدخل قبة قبة من قبابهم، فيجامعها صاحب القبة، ويقول لها: "قولى لمولائك إنها فعلت هذا من محبتك" فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة وجاءوا بالجارية إلى شيء، قد عملوه مثل ملبن الباب، فوضعت رجلها على أكف الرجال، وأشرقت على ذلك الملبن وتكلمت بكلام لها، فأنزلوها. ثم اصعدوها ثانية ففعلت كفعلها فى المرة

(٦٦) جوان بيره : كلمة فارسية تتركب من كلمتين (جوان وبيرة) أى شابة عجوز، وهى أيضا "جوانبيره" بمعنى ساحرة أو تحترف صناعة السحر وهى إلهة الموت فى الميثولوجيا.

انظر : رسالة ابن فضلان، ص ١٥٨، حاشية رقم ٦.

(٦٧) رسالة ابن فضلان، ص ١٥٨ - ١٦٠.

الأولى، ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثة، ففعلت في المرتين. ثم دفعوا إليها دجاجة فقطعت رأسها وورمت به، وأخذوا الدجاجة فآلقوها في السفينة".

ويستمر ابن فضال^(٦٨) قائلا: "فسألت الترجمان عن فعلها فقال: "قالت في أول مرة أصعدوها هوذا أرى أبى وأمى، وقالت في الثانية: هوذا أرى جميع قرابتي الموتى قعودا، وقالت في المرة الثالثة: هوذا أرى مولاي قاعدا في الجنة والجنة حسنة خضراء، ومعه الرجال والغلمان، وهو يدعوني فأذهبوا بى إليه فمروا بها نحو السفينة فنزعت سوارين كانا عليها، ودفعتهما إلى المرأة التى تسمى ملك الموت وهى التى تقتلها، ونزعت خلخالين كانا عليها، ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانت تخدمانها وهما ابنتا المرأة المعروفة بملك الموت. ثم أصعدوها إلى السفينة، ولم يدخلوها إلى القبة. وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب، ودفعوا إليها قدحا نبیذا فغنت عليه وشربته فقال لى الترجمان: "إنها تودع صواحباتها بذلك" ثم دفع إليها قدح آخر، فأخذته وطولت الغناء، والعجوز تستحثها على شربه والدخول إلى القبة التى فيها مولاها. فرأيتها وقد تبلدت وأرادت دخول القبة فأدخلت رأسها بينها وبين السفينة، فأخذت العجوز رأسها أدخلتها القبة، ودخلت معها. وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجوارى، ولا يطلبن الموت مع مواليهن ثم دخل القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية. ثم أضجعوها إلى جانب مولاها. وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها وجعلت العجوز التى تسمى ملك الموت فى عنقها حبلا مخالفا، ودفعته إلى اثنین لیجذباه. وأقبلت معها خنجر عريض النصل، فأقبلت تدخله بین أضلاعها موضعا موضعا وتخرجه والرجلان يخنقانهما بالحبل حتى ماتت ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبة وأشعلها بالنار ثم مشى القهقرى نحو قفاه إلى السفينة، ووجهه إلى الناس والخشبة المشتعلة فى يده الواحدة، ويده الأخرى على باب أسته، وهو عريان حتى أحرق الخشب المعبأ الذى تحت السفينة من بعد ما وضعوا الجارية التى قتلوها جنب

(٦٨) رسالة ابن فضال: ص ١٦٠-١٦٣.

مولاهما ثم وافى الناس بالخشب والخطب، ومع كل واحد خشبة قد ألهب رأسها. فيلقيها في ذلك الخشب. فتأخذ النار في الخطب ثم في السفينة ثم في القبة، والرجل والجارية وجميع ما فيها ثم هبت ريح عظيمة هائلة فاشتد لهب النار واضطرم تسعرها".

وكان إلى جانب ابن فضلان رجل من الروس فسمعه ابن فضلان يكلم الترجمان الذى كان يصاحبه، فسأله عما قال: فقال "إنه يقول: أنتم يا معشر العرب حمقى" فقلت: "لم ذلك؟" قال: "إنكم تعمدون إلى أحب الناس إليكم وأكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب، وتأكله التراب والهوام والدود، ونحن نحرقه بالنار في لحظة، فيدخل الجنة من وقته وساعته".^(٦٩)

ولا شك أن تلك الطقوس كانت - ولا زالت - من طقوس الهند، إلا أن الهند ليس من شأنها أن تحرق المرأة مع زوجها إلا أن ترى ذلك المرأة. وكانت تلك الطقوس تجرى في وسط المجتمع الخزرى. والحقيقة أن ابن فضلان فصل هذا الموضوع تفصيلا بارعا دقيقا ولا بد أنه غضب من رؤية تلك الجارية يتناولها الفجار الكفرة من أصحاب ذلك الميث في أوضاع يأبأها الإسلام والدين والدوق.

ويبدو أن قبور الروس كانت تنتشر بمملكة الخزر والتي يفرش في موضعها خشبة عليها اسم الميث واسم ملك الروس. كما أشار ابن فضلان إلى أن السفينة "صارت والخطب والجارية والمولى رمادا رمددوا ثم بنوا على موضع السفينة، وكانوا قد أخرجوها من النهر شبيها بالتل المدور، ونصبوا في وسطه خشبة كبيرة خدنك، وكتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس، وانصرفوا"^(٧٠)

ويمدنا ابن فضلان^(٧١) بصورة أخرى للروس الذين كانوا يشكلون عنصرا أساسيا في المجتمع الخزرى حيث يقول عنهم: "الروس يجيئون من بلدهم فيرسون

(٦٩) ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، ص ١٦٤.

(٧٠) ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، ص ١٦٤-١٦٥.

(٧١) ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، ص ١٥١-١٥٢.

سفنهم باتل، وهو نهر كبير، وبينون على شطه بيوتا كبارا من الخشب ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر. ولكل واحد سرير يجلس عليه ومعهم الجوارى الروقة للتجار فينكح الواحد جاريته، ورفيقه ينظر إليه. وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحال بعضهم بحذاء بعض وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضى أربه. ولا بد لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه. وذلك أن الجارية توافى كل يوم بالغداة، ومعها قصعة كبيرة فيها ماء فتدفعها إلى مولاه فيغسل فيها يديه ووجهه وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة، ثم يتمخط ويبصق فيها ولا يدع شيئا من القذر إلا فعله في ذلك الماء. فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي بجانبه ففعل مقل فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت وكل واحد منهم يتمخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها".

والحقيقة أن ابن فضلان استنكر أشد الاستنكار وطء الروس جواريتهم على المأوى وقضاء حاجاتهم علنا كما تقرز من قذاراتهم حين لقيهم على نهر الفولجا (اتل) في أرض البلغار.

ومن العناصر الجنسية التي كانت تنتشر بأرض الخزر الأتراك الغزية الذي لم يطق الرحالة ابن فضلان والذي تعود على حمامات بغداد الفاخرة قذارة الأتراك ولاحظ. أنهم "لايستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك. وليس بينهم وبين الماء عمل، خاصة في الشتاء ولا يستر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم. وكذلك لا تستر المرأة من بدنها عن أحد من الناس".^(٣٢) وأورد ابن فضلان كثيرا من الروايات هاله فيها ما شاهده من مصاحبة النساء للرجال وفزع رؤيتهم في عرى مخجل.

(٣٢) ابن فضلان: رسالة ابن فضلان، ص ٩٢.

والحقيقة أن تلك العناصر المختلفة التي كانت تشكل المجتمع الخزرى لم تنحدر إلى مرتبة التبعية المطلقة، لأنهم احتفظوا بحريتهم فى ممارسة شعائرهم وتقاليدهم وقوانينهم ولا حاجة لنا هنا أن نثير الفكرة التى تقفز إلى الذهن عند دراسة مجتمع ما والتى مفادها أن تلك العناصر الغريبة التى تستقر بدولة ما غالباً ما تنزل إن لم يكن للعبودية المحضة فهى إلى حالة شبيهة بها على الأقل.

ومهما يكن من أمر، فإنه من المؤكد أن المجتمع الخزرى كان يسبغ على تلك العناصر والطوائف المهاجرة بشأن التجارة، المعاملة الحسنة. ذلك أنهم لو اتبعوا أسلوباً مخالفاً عن ذلك لكسدت تجارتهم التى هى موردهم الرئيسى.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن السمات التى تميز بها المجتمع الخزرى نجد بعض المصادر تذكر أنهم - أى الخزر - يقيمون إلى الشمال من المعمور إلى الأرض وأرضهم باردة رطبة، ومن ثم فإن بشرتهم بيضاء وعيونهم زرقاء وشعرهم مسترسل يضرب إلى الحمرة فى الغالب، وأجسامهم كبيرة وطبائعهم باردة ومنظورهم عامة كالهمج.^(٧٣) بينما تشير المصادر الإسلامية إلى أن الخزر "لا يشبهون الأتراك، وهم سمر يضربون بشدة السمرة إلى السواد كأنهم صنف من الهند، وصنف بيضى ظاهرو الجفن والجمال".^(٧٤) وفى حين أن كاتباً أرمينيا أشار إليهم قائلاً: "إنهم حشود الخزر المخيفة بوجوههم الوقحة العريضة الجرداء وشعورهم المسترسلة كالنساء"^(٧٥) والحقيقة أن هذه الاختلافات وعدم اتفاق المؤرخين على شكل ومظهر معين للخزر يؤكد أن المجتمع الخزرى كان مجتمعاً عالمياً عج بكثير من الجنسيات.

(73) Koestler : op. Cit., p. 19.

(٧٤) الأصبخري: المسالك والممالك، ص ١٣١.

ابن حوقل : المسالك والممالك، ص ٢٨٣.

: صورة الأرض، ص ٣٩٤.

القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٨٤.

(75) Koestler : op. Cit., p. 20.

ويبدو أن هناك شعوبا تأثرت بالخزر. ومنهم على سبيل المثال الروس الذين كانوا يعيشون بين المجتمع الخزرى، فعلى الرغم من أساليبهم العنيفة، فإنهم أبدوا رغبة صادقة فى التعلم من الشعوب التى قدر لهم أن يحتكوا بها. وشاهد على ذلك اتخاذهم لقب الخاقان من الخزر، وأيضاً اتخاذهم شخصين يتوليان أمرهم وهو أمر كان غريباً على الشعب الجرمانى فى الشمال.^(٧٦)

ولم تكن علاقة الخزر بالبيزنطيين والمسلمين وغيرهم معارك دموية متصلة، وإنما تخللتها علاقات ودية عديدة أعطت الفرصة للسلام والاختلاط الاجتماعى وكانت هناك مشاريع عديدة للزواج مثل زواج الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى (٦٨٥-٦٩٥، ٧٠٥-٧١١م) بشيودورا أخت خاقان الخزر التى سبق الإشارة إليها ومشروع زواج الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م) الذى تزوج خزوية هى ابنة الخاقان وحملت العروس صداقاً له هو رداء فاخر بلغ من إعجاب البلاط البيزنطى أن اتخذوه حلة يرتديها الرجال فى المحافل الرسمية، وكانوا يطلقون عليها تريتزاكيون Tzitzakion وهو الاسم الخزرى التركى المحبب للأميرة ابنة الخاقان والتى كان اسمها أيضاً شيشاك أو الزهرة، ثم أطلق عليها إيرين بعد تعميدها^(٧٧). ولقد علق المؤرخ البيزنطى قسطنطين بروفيروجينيوس^(٧٨). على هذا المصطلح بالقول "إن هذه الكلمة Tzitzakion كلمة خزرية الأصل وهى اسم حلة

(٧٦) من الشىء المؤسف أن نظام الحكم السوفيتى قد جاء بعد ألف عام من الوقائع التاريخية بين الخزر والروس، وسعى إلى طمس كثير من الحقائق التاريخية وإنكار أثر الخزر الثقافى فى الروس وما بلغوه فى هذا الميدان من شأن، والغريب أنهم حملوا الأستاذ أرتامونوف على تغيير رأيه فى وجود هذا الأثر حيث نقدته صحيفة "برافدا" فغير رأيه الذى أبداه فى كتابه الصادر سنة ١٩٣٧م وأنكره فى كتابه الصادر عن تاريخ الخزر سنة ١٩٦٢م وقال: "إن الروس لم يأخذوا شيئاً عن الخزر". انظر: Koestler : op. Cit., p. 92-94.

(٧٧) Koestler : op. Cit., p. 48.

(٧٨) De Cerimoniis Aulæ Byzantinae, Vol. I, p. 22.

يرتديها الرجال في الدولة البيزنطية واشتقت من اسم الأميرة الخزرية التي قدمت هذا الرداء".

كما كانت هناك مشاريع زواج قامت بين الخزر والمسلمين مثل زواج الأميرة الخزرية ابنه خاقان الخزر بوالى أرمينية المسلم. وقد قدمت الأميرة الخزرية إلى بلاد الإسلام ومعها عشرة آلاف من أهل بيت من الخزر وأربعة آلاف رمكة^(٧٩) بفحولها وألف بغل وبغلة وألف إنسان، وعشرة آلاف جمل خزرى من الجمال الصغار، وألف جمل تركى كل جمل تركى منها بسنامين وعشرون ألف شاه، وعشر عجلات على مثل القباب. لها أبواب مضروبة بصفائح الذهب والفضة ومفروشة بالسمور ومحللة بالديباج وعشرون عجلة فيها أمتعة وآنية من الذهب والفضة وغير ذلك^(٨٠). من كنوز صداقتها.

النشاط الاقتصادي:

تمتعت مملكة الخزر بفترة طويلة من الرخاء الاقتصادي وكانت مجالا واسعا التقى فيه الشرق بالغرب، حيث وجهت مملكة الخزر اهتمامها إلى التجارة باعتبارها أبرز مواردها الاقتصادية.

وقد اعتمد المصدر الرئيسى لدخل الخزر على التجارة. ذلك أنهم تحكموا فى الطرق التجارية التى تربط الشرق الأقصى بالإمبراطورية البيزنطية من جهة، والأقاليم الإسلامية بالأراضى السلافية من جهة أخرى وكانت تفرض رسوما على البضائع المارة بأراضيها^(٨١)، مما جعلها تستفيد من الأرباح الناجمة عن تلك التجارة.

(٧٩) رمكه : الرمكة، الفرس (العرب) - الانثى من البراذين.

انظر ابن منظور : لسان العرب، حـ ٣، ص ١٧٣٣.

(٨٠) ابن أعم: كتاب الفتوح، حـ ٨، ص ٢٢٩-٢٣٠.

Dunlop: op. Cit. Pp. 179 - 108.

(٨١) Sinor : Art. Khazar in the New Ency. Britt., Vol p. 788.

ولقد اعتاد التجار المعروفين بالراهدانية على عبور إمبراطورية الخزر عند انتقالهم من وإلى الصين والهند.^(٨٢) والراهدانية تجار يهود يتكلمون بالفارسية والروسية والعربية والإفريقية، ويسافرون من المشرق إلى المغرب والعودة مرة أخرى. ويمرون على أقاليم الخزر فيحصل منهم ملك الخزر الضرائب والمكوس.^(٨٣) وكانوا يحملون معهم الخصيان الخدم والأولاد والحرير والفراء والسيوف والمسك وعود الهند والكافور والقرفة ومحاصيل أخرى من أقصى الشرق^(٨٤).

ولقد كان للخزر علاقات تجارية كبيرة مع بيزنطة ففي القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) روى بعض السفراء البيزنطيين في بلاط الخليفة الأموي بقرطبة أن ثمة سفنا قادمة من بلاد الخزر إلى القسطنطينية تجلب إليها من وقت لآخر سمكا وجلودا وفراء وتشحن عند عودتها أقمشة من بيزنطة.^(٨٥) والحقيقة أن تجار الخزر شاركوا تجار البلغار والترك في جلب كميات ضخمة من المنتجات الطبيعية إلى البسغور والقسطنطينية ومن هذه المنتجات الذرة والملح والسمك والفراء والشمع والعسل وجلود الحيوانات والكهرمان والعبيد^(٨٦). ولقد ورد ذكر التجار الخزر مع العديد من تجار البلاد الأخرى التي تنتمي إلى جنسيات مختلفة في وصف الرحالة بنيامين التيطلي^(٨٧) لمدينة القسطنطينية حيث ذكر أن بالمدينة حركة دائبة من التجار القادمين من بابل وفارس وروسيا وأسبانيا وغيرها من البلاد.

(82) Bachrach: Art. Khazar, in Lexicon Universal Ency., Vol. 12, p.66.

(٨٣) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص ٢٧٠-٢٧١.

(84) Rosenthal: Art. Khazar, in the Jewish Ency., Vol. iv, p.3.

(85) Heyd (W.): Histoire du Commerce du Levant au moyen age, (Leipzig, 1923), Vol. I, p. 47.

Rosenthal: Art. Khazar, in the Jewish Ency., Vol. iv, p.3.

Brehier (L.): Le Monde Byzantine La Civiliaztion Byzantine., (Paris, 1950), p. 202.

(86) Boissonade (P.): Life and work in Medieval Europe (London. 1937), p. 53.

(٨٧) بنيامين التيطلي: رحلته، ص ٧٨.

Weinryb : The Jews of poland., pp. 22-23.

كما كان الخزر وجيرانهم يجتلبون فراء السهوب ورقيقها وسمكها المحفف إلى خرسون ببلاد القرم أو تحملها السفن الروسية من الدنيبير إلى القسطنطينية^(٨٨).
والشيء الجدير بالملاحظة أن بيزنطة كانت تحتكر منتجات الحرير في أوروبا وكان الخزر والمسلمون يتزاحمون على استيراد القماش الموشى (المطرز) من بيزنطة، كما كان يفعل الغرب^(٨٩).

ولم تكن العلاقات التجارية بين الخزر وبيزنطة فحسب فقد كان للتجار الخزر نشاط بارز خارج مملكتهم في جهات أخرى من العالم في ذلك الوقت حيث وجدوا في بغداد التي كانت ملتقى لمعظم التجار على اختلاف جنسياتهم، من بابل وفارس والهند وغيرهم^(٩٠). كما أن التجار المسلمين جلبوا إلى أسواقهم في خزريا سلع فارس والصين وتبادلوا معهم الأطعمة والخيول ومنتجات الغابة والعسل والفراء والشمع وغيرها من هذه المنتجات^(٩١). وكان سيل من التجارة يتدفق في مجرى الفولجا وغيره من الأنهار، ويصل إلى وسط روسيا واسكنديناوه عن طريق مملكة الخزر. وآية ذلك أن مقادير ضخمة من العملة الإسلامية معظمها من خراسان والجهات الشرقية للخلافة الإسلامية اكتشفت بجهات نائية مثل ألمانيا وأقاليم البلطيق^(٩٢). ولا شك أن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على اتساع وضخامة حجم التجارة بين الأقاليم الآسيوية وشمال أوروبا.

^(٨٨) Runciman: Byzantine Civilization, p. 167.

والترجمة العربية، رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص ١٩٩.

^(٨٩) Lindsay (J.): Byzantium into Europ, (London, 1952), p. 143.
Runciman: op. Cit., pp. 166-7.

والترجمة العربية، رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص ١٩٨.

^(٩٠) Lindsay (J.): op. Cit., p. 153.

^(٩١) Wren: The Course of Russian History, p. 37.

^(٩٢) موس : ميلاد العصور الوسطى، ص ٢٧٢.

ترجمة عبد العزيز جاويد، مراجعة : السيد الباز العريفي.

والحقيقة أن الشيء الملاحظ في منطقة القوقاز هو تلك الحضارة البدائية لأقوام هذه المناطق وتنقلاتهم المستمرة وسكانها ذوى السلالات واللغات المختلفة وكل ذلك كان عقبة فى إقامة علاقات تجارية دائمة، غير أن ملوك الخزر سكان المناطق التى يخترقها مجرى نهر الفولجا السفلى نجحوا أخيراً فى تهيئة وضع منتظم، وأذنوا لليهود والمسيحيين والمسلمين بالإقامة فى بلادهم بكامل حريتهم ومن ذلك الحين استطاع التجار المسلمون أن يوثقوا علاقات منظمة فى مناطق شمال بحر قزوين، وشهدت أتيل عاصمة الخزر الواقعة على مصب نهر الفولجا وصول سفنهم وقوافلهم ولم يقف العرب بالوصول إلى أتيل، بل استطاعوا أن يصعدوا نهر الفولجا حتى قلب روسيا طلباً للجلود والفراء^(٩٣).

والحقيقة أن أتيل عاصمة الخزر كانت بحق على درجة كبيرة من التحضر، وكانت أعظم مركز تجارى فى ذلك الوقت^(٩٤). كما كان القرنين السابع والثامن الميلاديين يمثلان العصر الذهبى لمملكة الخزر فى التجارة حيث بسطوا كل سيادتهم على كل السهوب الجنوبية وكانوا سادة معظم القبائل السلافية الجنوبية^(٩٥)، حيث أجبروهم على دفع الجزية، وكانت تلك القبائل السلافية تشارك فى التجارة^(٩٦). كما أن الوثائق الأثرية تشير إلى أن علاقات تجارية قامت بين مملكة الخزر والسويد، ومن المحتمل أن تكون بدأت هذه العلاقات فى نهاية القرن الثامن الميلادى^(٩٧). وكانت مملكة الخزر تقوم بتحصيل العشر من قيمة الشحنات المارة بأتيل والتى تمر عبر أراضي الخزر عموماً^(٩٨).

(93) Heyd : op. Cit., Vol. I, p. 47.

(94) The Time Atlas of World History, p. 108.

(95) Sumner: Survey of Russian History, p. 35.

(96) Mackenzie & Curran: A History of Russian and the Soviet Union, pp. 15-16.

Walsh: Russia and the Soviet Union, p. 17.

(97) Florinsky: Russia, vol. I, p.172.

(98) Franzius: History of the Byzantine Empire, 172.

Walsh : op. Cit., p. 18.

أما عن المصادر الإسلامية التى أوردت إشارات عابرة عن الحياة الاقتصادية بمملكة الخزر، فتذكر أن واردات الخزر وصادراتها كانت من السلع الأجنبية التى كانت أهم مصدر لدخل البلاد، أما بلاد الخزر نفسها فلم تكن تنتج شيئا خاصا بها إلا غراء السمك أما الزئبق والعسل والشمع والخزر والأوبار. فمجلوب إليها من نواحي جرجان وطبرستان وأرمينيا وأذربيجان، والتى كانت تقوم بدورها بتصديره^(٩٩). أى أن معظم نشاطهم التجارى كان يعتمد على إعادة تصدير المواد التى كانت ترد إليهم من الخارج.

وقد عملت مملكة الخزر على توفير الأمن والاستقرار للتجار الوافدين عليها من مختلف الجنسيات وشتى بقاع الأرض وقد سبق أن ذكرنا أن التجار الوافدين كانوا يتحدثون لغات أوطانهم، ولكننا لا نعلم إن كانت هناك لغة مشتركة متفق عليها بين التجار لتسهيل نشاطهم التجارى ومهما يكن من أمر فإنه إذا كان هناك لغة مشتركة فإنها من المؤكد سوف تكون لغة التجارة فقط.

وغير معروف أيضا كيف كانت تعقد معظم الصفقات التجارية، هل هى بالنقد أم المقايضة أم البيع المؤجل الدفع، وإن كانت إحداهما فما طريقة عقد الصفقات الغالية؟.

أما عن العملة الخزرية فلم تمدنا المصادر المتاحة لهذا البحث بما يفيد عن أبرز ما تميزت به مجموعة نقودهم سواء أكانت ذهبية أم فضية، وعلى أى نسق سكت، وهل تأثرت بدولة معينة من ناحية طرازها أو عناصرها أو صنعها.

وفى مجال الزراعة حرصت مملكة الخزر على تنمية مواردها الزراعية جنبا إلى جنب مع التجارة لإنعاش أحوالها الاقتصادية وإن لم يصل نصيبها من الاهتمام كالتجارة. وكانت مزارعهم منتشرة وشاسعة ومعظمها كان الأرز، كما كانت مدينتهم سمندر مليئة بالبساتين الكثيرة وتشتمل على أربعين ألف كرم، "وكان الخزر بعد أن

(٩٩) الأصبخري : المسالك والممالك، ص ١٣١.

ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٣٤.

يحصدوا زرعهم يضموه بالعجل إلى النهر وإلى مواضع تقرب منه وينقلون ما اجتمع إلى النهر في السفن وما قرب من البلد نقل بالعجل إلى البلد^(١٠٠) والحقيقة أن سمندر تعتبر من أهم مدنها حيث كانت تطل على ساحل البحر مما جعلها تعج بالتجارة والأسواق^(١٠١).

ويفهم من رد الملك يوسف على خطاب حسداى السابق ذكره أن مملكة الخزر كانت واسعة الثروة، ليس من التجارة فحسب بل من ممارستها للنشاط الزراعى أيضا، وساعد على ذلك تمتع أرضها بالخصوبة ووفرة المياه المتمثلة في الأنهار والترع والجداول، وقد أشار يوسف إلى وجود الحقول ومزارع الفواكه بكثرة في أرض الخزر^(١٠٢).

أما عن الصناعة فلا تفيدنا المصادر المتاحة بشيء في هذا الصدد وإن كان ابن الوردي^(١٠٣) يشير إلى أنه بأرض الخزر جبل يسمى باثره به معادن الفضة السهل المأخذ والرصاص أيضا، ويؤيد ذلك كتاب (دربند نامه) الذى يشير إلى وجود الذهب والفضة بكثرة في بلاد الخزر^(١٠٤). وربما قامت بعض الصناعات على تلك المعادن، وإن كان من المؤكد أن دولة محاربة كمملكة الخزر لا يخلوا نشاطها الاقتصادى من صناعة بعض الأسلحة المعاصرة في ذلك الوقت.

ومهما يكن من أمر فإن شهرة إشتغال الخزر بالتجارة غطى على باقى الأنشطة الاقتصادية. ولقد ظل التجار الطليان يشيرون إلى القرم باسم خازاريا حتى وقت متأخر من القرن الخامس عشر^(١٠٥). أى بعد سقوط مملكة الخزر، ولا شك أن هذا لم يكن إلا مجرد رمز جغرافى يعيد ذكرى دولة عفى عليها الزمن.

(١٠٠) ابن حوقل : المسالك والممالك، ص ٢٨١.

: صورة الأرض، ص ٣٩٢.

(101) Hudud Al Alam., p. 162. C.F.

(102) The Answer of Joseph., CG Adler: Jewish Travllers., pp. 35-36.

(١٠٣) خريدة العجائب وفريده الغرائب، ص ٢٥٤.

(104) Koestler: op. Cit., p. 48.

(105) The Standard Jewish Ency., Art Khazar, p. 1125.

الديانة:

عاشت مملكة الخزر قوية منتعشة فترة طويلة من الزمن، وكانت تضم خليطا يعود بأصوله إلى العديد من الشعوب خصوصا وسط آسيا وشرقها. وكانت ديانة الخزر الأولى فيما قبل الديانة الشامانية^(١٠٦) Shamanistic وهى الديانة الوثنية للقبائل التركية عموما كما كانت لهم تصورات وثنية وإلههم الأكبر كان تنكرى خان^(١٠٧). وكان أكبر حدث فى تاريخ مملكة الخزر، هو اعتناقهم لليهودية، حدث ذلك فى القرن الثامن الميلادى، حيث اعتنقها ملك الخزر والطبقة الحاكمة، وعدد كبير من شعبه، ويبدو أنهم كانوا قد وصلوا إلى درجة من الحضارة دفعتهم إلى التخلي عن عقيدتهم الوثنية، واتخاذ عقيدة جديدة، وهى اليهودية التى صارت الديانة الرسمية لدولة الخزر^(١٠٨). والواقع أن اعتناق الخزر لليهودية، قد حير معاصرى الخزر، كما حير العلماء والدارسين المحدثين.

والحق أن تحول الخزر إلى اليهودية أمر يثير طائفة من التخمينات خصوصا وأن هذا الأمر صدر من شعب ليس من أرومة يهودية وجدير بالملاحظة أنهم اتخذوا من اليهودية ديانة رسمية لهم، متحدين ضغوط المسيحيين فى بيزنطة وضغوط المسلمين من الشرق، واتخذوا دينا لا سند له من أية سلطة سياسية بل إنه كان موضع اضطهاد من الجميع تقريبا وقد كان هذا التحول مثيرا لدهشة جميع المؤرخين المشتغلين بالخزر، ولا يمكن أن يعد هذا الأمر أمرا عارضا وإنما يجب أن نعدده دليلا على سياسة انتهجتها مملكة الخزر^(١٠٩).

Rosenthal: Art. Chazar, in the Jewish Ency., Vol. iv, p. 6.

^(١٠٦) لمزيد من التفاصيل عن الشامانية، انظر، بارتولد: المرجع السابق ص ١٤.

^(١٠٧) Barthold & Golden: Art. Khazar, in the Ency. of Islam. Cambridge History of Iran, Vol. 3, p. 470.

Setton: A History of the Crusades, Vol. I, p. 136.

^(١٠٨) Grayzel: A History of the Jews., p. 28.

Weinryb: The Jews of Poland., p. 21.

The Time Atlas of World History, p. 108.

Brehier: Le Monde Byzantine La Civilization Byzantine., p. 302.

^(١٠٩) Koestler : op. Cit., p. 15.

إن اعتناق الخزر لدين يهوذا حدث فريد فى التاريخ، والعوامل التى دفعتهم إلى ذلك تحتاج إلى الإمعان، لقد كان العالم فى ذلك الوقت يستقطبه قوتين عظيمين هما الإمبراطورية البيزنطية وتمثل المسيحية والخلافة الإسلامية وتمثل الإسلام. وكانت بين تلك القوتين مملكة الخزر التى أثبتت فى كثير من الأحيان أنها ند لكل منهما.

ومن العوامل التى أسهمت فى تهويد الخزر هو الحرص على الاستقلال إزاء القوتين العظيمين، المتمثلتين فى المسيحية والإسلام، لذا فقد اختارت العقيدة الثالثة (اليهودية) غير التابعة لهاتين القوتين، إذ أنها لو اختارت عقيدة الإسلام سوف تجعل منهم التابع الروحى للخليفة فى بغداد، ولو اختارت عقيدة المسيحية سوف تخضعهم على الفور للإمبراطور الرومانى⁽¹¹⁰⁾ (البيزنطى) وربما تكون مملكة الخزر قد اعتنقت اليهودية، وفضلوا فى أكبر الظن أن يغضبوا الخلافة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية بدرجة واحدة من أن يغضبوا واحدة منهما غضبا يعرضهم للخطر⁽¹¹¹⁾. وبذلك يكون الخزر قد استقر بهم العزم على أن يكونوا غير تابعين لأى من القوتين العظيمين، وعلى أن يحافظوا على موقعهم كقوة ثالثة تتزعم الأمم الوثنية المنتشرة بالفيافى.

على أنه من خلال صلات الخزر الوثيقة ببيزنطة والخلافة تعلموا أن عقيدتهم الشامانية عقيدة بدائية ومتخلفة عن مطالب عصرها، وقد عفى عليها الزمن إذا قورنت بالديانات السماوية، ثم هى عاجزة عن أضفاء الهيبة الروحية والشرعية على زعماء الخزر كما هو حال رجال الحكم المسلمين والمسيحيين، حيث ينعم بها

(110) Bury: A History of the Eastern Roman Empire, p. 406.

(111) Durant: The story of Civilization, the Age of Faith, vol. iv, pp. 446-7.

والترجمة العربية ديورانت: قصة الحضارة. عصر الإيمان مجلد ٣، ج ٣، ص ٢٠١، ترجمة

الخليفة والإمبراطور^(١١٣). ولذلك فقد أثر الخزر اتخاذ ديانة غير النصرانية والإسلام واعتنقوا اليهودية.

ويرى البعض أن سبب اعتناق الخزر لليهودية هو حدوث انقلاب في الحكم ضد الخاقان سليل الأسرة الوثنية التي لا يمكن الوثوق بولائه للشريعة الموسوية، إلا من حيث هو رمز فحسب، كان ذلك سببا في اتخاذ الخزر العقيدة اليهودية كديانة رسمية للدولة^(١١٣). والحقيقة أن هذا الرأي لم يدعم بأية أسانيد ولكن الشيء الواضح أن الخزر اتخذوا طريقا مخالفا لأهل الغرب الذين أرادوا أن يحملوهم على اعتناق النصرانية ومقاومة أهل الشرق الذين كانوا يريدونهم اعتناق الإسلام.

وحول موضوع اعتناق الخزر لليهودية نلاحظ أن المصادر العربية والعبرية قد اختلفت في التفاصيل الخاصة بسبب اعتناقهم على الرغم من اتفاقها في تعليقه، فبالنسبة للمصادر الإسلامية فيقول المسعودي^(١١٤)، في هذا الصدد: "وكان تهود ملك الخزر في خلافة هارون الرشيد (٢٨٦-٢٨٩م/١٧٠-١٩٣هـ) وقد انضاف إليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم. وذلك أن ملك الروم في وقتنا هذا (وهو سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة) وهو أرمنوس (٩١٩-٩٤٤م) نقل من كان في ملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرهم فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرضه على ما وصفنا". وختم المسعودي قوله بالإشارة إلى كتاب له آخر تضمن وصفا لهذه الظروف إلا أن هذا الكتاب فقد ولا نعرف عنه شيئا.

ويتضح من نص المسعودي أن اعتناق الخزر لليهودية، كان على عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي كان معاصرا للإمبراطور البيزنطي رومانوس ليكاينوس المغتصب، والذي اشترك مع الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس (٩١٣-٩٥٩م)، والعبارتان الأخيرتان من نص المسعودي تشيران

(112) Koestler: op. Cit., p. 59.

(113) Ibid., p. 57.

(114) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ص ١٣٥.

إلى حوادث حدثت بعد اعتناق الخزر اليهودية بمائتي عام - كما سيأتي - وتكشف لنا عن مبلغ الاضطهاد الذي عاناه اليهود.

ويشير الدمشقي^(١١٥) إلى "أن صاحب القسطنطينية أيام هارون الرشيد أجلى من كان في مملكته من اليهود فقصدوا بلد الخزر، فوجدوا قوما عقلاء ساذجين فعرضوا عليهم دينهم فوجدوهم أصلح مما هم عليه فانقادوا إليه".

ويتضح مما سبق أن هؤلاء اليهود وجدوا في بلاد الخزر أرضا خصبة لانتشار اليهودية ويلاحظ أن الفترة التي تولاها الخليفة العباسي هارون الرشيد كانت بين سنتي ٧٨٦م، ٨٠٩م، وفي تلك الفترة كان يشغل كرسي الإمبراطورية البيزنطية قسطنطين السادس (٧٨٠-٧٩٧م) والإمبراطورة ايرين (٧٩٠-٨٠٢م) والإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢-٨١١م).

ومما يجدر ذكره أن كثير من الأباطرة البيزنطيين قد اتخذوا ضد اليهود إجراءات صارمة، ولقى اليهود كثيرا من الاضطهاد الديني في عهود الأباطرة جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م) وهرقل (٦١٠-٦٤١م) وليو الثالث (٧١٧-٧٤١م) ورومانوس ليكاينوس وغيرهم، فعلى عهد الإمبراطور هرقل مثلا نجده يصدر مرسوما يقضى بتعميد اليهود بعد أن علم بما ألحقه اليهود بالمسيحيين وبكنائسهم من أضرار، كما عمل على استئصال شأفتهم وإبادتهم من كل مكان حتى من خارج حدود الإمبراطورية حيث أقنع سيسبو Sisebut الحاكم القوطي بأسبانيا بطرد اليهود واقصائهم عن بلاده، وبالفعل قام سيسبو بطرد اليهود وإقصائهم عن بلاده، خاصة هؤلاء الذين لم يستطع إرغامهم على التعميد. كما نجح الإمبراطور هرقل في إقناع ملك فرنسا بالانضمام لهذا المشروع^(١١٦). ولما كانت بيزنطة أكبر قوة روحية مسيحية في شرق أوروبا وما ولاها، فقد كانت ترقب اتغيرات الروحية في دولة الخزر بعين

(١١٥) نخبه الدهر في عجائب البر والبحر، ص ٢٦٣.

(١١٦) ليلى عبد الجواد: الدولة البيزنطية في عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين ص ٢٠٢ -

مفتوحة، فنجده الإمبراطور جستنيان الثاني سنة ٦٩٢م يعقد مجمع ترولان الديني لمعالجة قضية اليهود، والذي تمخض عنه بيان يدعو إلى استئصال شأفة. "الانحراف اليهودي"^(١١٧). كما قام الإمبراطور ليو الايسوري بحملات اضطهاد واسعة جرى بمقتضاها إلزام اليهودى على التحول إلى المسيحية وأدى ذلك إلى هروب الكثير منهم إلى خارج بيزنطية^(١١٨). وربما يكون هؤلاء اليهود هم الذين هودوا ملك الخزر وحاشيته، بالإضافة إلى الاعتقاد السائد بأن يهود القوقاز هم الذين دفعوا مملكة الخزر لاعتناق هذا الدين^(١١٩).

كما أن الصلات بين دولة الخزر والإمبراطورية البيزنطية قد تأثرت باضطهاد اليهود فى عهد الإمبراطور رومانس ليكاينوس، وقد التجأ كثير من اليهود الذين أخرجوا من الإمبراطورية البيزنطية إلى بلاد الخزر فى ذلك العهد^(١٢٠). ومهما يكن من أمر، فلقد كانت بلاد الخزر الملجأ للخروج اليهودى تحت وطأة الحكم البيزنطى والاضطهاد الدينى فى عهود العديد من أباطرة بيزنطة، حيث كان اليهود يضمرون العداء للإمبراطورية البيزنطية وكانت تمتلئ قلوبهم بالحقده والكراهية لها، وكثيرا ما أظهروا العداء لها وفى كثير من الأوقات أمسى اليهود عنصرا قويا يهدد أمن وسلامة الإمبراطورية. وثمة مصدر إسلامى ثالث وهو "المسالک والممالك" للبكرى^(١٢١)، الذى يشير إلى ظروف اعتناق الخزر لليهودية بشكل تفصيلى، ويبدو أن تلك الظروف قد استقاها من الكتاب الذى أشار إليه المسعودى وفقد، حيث يذكر قائلا: "وملكهم على دين اليهودية ومسكنه فى قصر على البعد من النهر وإنما كان سبب تهود ملك الخزر وكان مجوسيا أنه تنصر فرأى فساد ما هو عليه

(117) Dunlop: The History of the Jewish Khazars, p. 177.

(118) Rosenthal : Art. Chazar, in the Jewish Ency., Vol. iv, p. 3.

Art. Chazar, in Chambers's Encyclopaedia, (London and Edinburgh, 1923), Vol. 3.

(119) Rosenthal (H.): Art, Caucasus, in the Jewish Ency., Vol. 3. P. 28.

(120) Barthold & Golden: Art., Khazar, in the Ency. of Islam.

فأخذ فيما غمه من ذلك مع بعض مرادبته. فقال له ايها الملك إن أصحاب الكتب ثلاث طوائف فأرسل إليهم واستخبر أمرهم واتبع صاحب الحق منهم، فأرسل إلى النصارى في أسقف وكان عنده رجل من اليهود ذو جدال فناظره قال له: "ما تقول في موسى بن عمران والتوراة المنزلة عليه" قال له: "موسى نبي والتوراة حق" فقال لليهودى للملك: "قد أقر بحقيقة ما أنا عليه فسله عما يعتقد، فسأله الملك فقال له: "أقول أن المسيح عيسى بن مريم هو الكلمة وأنه المبين عن الله عز وجل بالسرائر، فقال اليهودى لملك الخزر أنه يدعى دعوى لا أعلمها وهو مقرر بما عندى فلم يكن الأسقف كبير حجه، وأرسل إلى المسلمين فأرسلوا إليه رجلا عالما عاقلا عارفا بالجدل فدرس اليهودى عليه من سمه في طريقه فمات واستمال اليهودى الملك إلى ملته فتهود".

وعلى هذا الأساس اعتنق ملك الخزر اليهودية بفضل اجتهاد اليهودى الذى كان بارعا ومتمكنا فى الحجة والمناقشة، وبعيدا عما إذا كانت هذه القصة فى جانب الخطأ أو الصواب فإن المؤرخ المحدث بيورى^(١٢٢) يعلق قائلا: "إن هناك حقيقة أساسية هى أن بلاط الخزر كان متأثرا متأثرا قويا باليهودية قبل أن يتهود رسميا، ذلك أن رجل الدين المسيحى والمسلم قد أرسل الملك فى طلبهما، أما اليهودى فكان بالفعل فى صحبته".

ولكن الشيء الملاحظ هنا تعقبا على ما أورده البكرى أنه على عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م) حوالى سنة ٨٦٠م، قد قدمت سفارة خزرية من قبل خاقان الخزر وطلبت من الإمبراطور البيزنطى أن يرسل لهم من يشرح العقائد المسيحية^(١٢٣). ومن المعروف أن الديانتين الإسلامية واليهودية كانتا معروفتين عند الخزر^(١٢٤).

(122) A History of the Eastern Roman Empire, p. 407.

(123) Bury : op. Cit., p. 394.

(124) Ostrogorsky: History of the Byzantine state. P. 203.

ووقع الاختيار على قسطنطين وهو أحد تلاميذ البطريك فوتيوس ليكون مبعوثا دينيا يشرح لخاقان الخزر مزايا المسيحية ليقدر مكانتها من الديانتين الأخريين (الإسلامية واليهودية) ووصل قسطنطين إلى خرسون ومكث بها عدة أشهر لدراسة اللغة الخزرية^(١٢٥). ثم توجه إلى أتيل عبر طريق نهري الدون والفلوجا، وواصل رحلته إلى سمندر والتقى بخاقان الخزر، وعلى الرغم مما تركه قسطنطين من اثر طيب في نفس ملك الخزر فإن سفارته لم تكن ناجحة تماما، فلم يجر تعميم سوى مائتين من الأشخاص فقط وعاد إلى القسطنطينية بعد ذلك بوقت دون تحقيق النجاح المرجو^(١٢٦) مما يدل على أن الديانة اليهودية كان لها شأن كبير في بلاد الخزر آنذاك، وكان لأتباعها دور خطير ومؤثر في بلاط خاقان الخزر.

أما المصادر العبرية التي تحدثت عن اعتناق الخزر لليهودية منها الكتاب الذي وضعه يهوذا هاليافي (يهوذا اللاوي) (١٠٧٥-١١٤١م) أعظم وأشهر شاعر يهودي في أسبانيا، ويعتبر هاليافي أول مفكر لليهود في العصور الوسطى، ووضع كتابه عن الخزر وأسماء كوزاري Kuzari أى الخزر بالعبرية هخوزى (Hebrew safer-Hakuzari).^(١٢٧)

كتب هاليافي كتابه قبل أن يموت بسنة واحدة حيث إنه كان صهيونيا لقي ربه في حجه لبيت المقدس، وهذا الكتاب في الحقيقة هو عبارة عن رسالة فلسفية تعرض الرأي الذي يقول بأن الأمة اليهودية هي الوسيط الوحيد بين الله وسائر البشر، وسوف تعتنق الأمم جميعا الدين اليهودي في آخر الزمان، ويبدو أن اعتناق الخزر لليهودية إشارة على هذا الحدث الذي ليس بعده حادث^(١٢٨). وهذا الكتاب عبارة عن حوار في شكل مجادلات ومناقشات دارت بين الملك والملك والحبر

(125) Bury : op. Cit., p. 394.

(126) Dunlop: The History of the Jewish Khazars, p. 195.

(127) Art., Jewish Philosophy, in the New Ency. Britt., Vol. 10, p.210.

Grayzel: A History of the Jews, p. 333.

(128) Koestler: The Thirteenth Tribe the Khazar Empire and its Heritage, p.78.

اليهودى. وتحدث عن المحاولات الفلسفية التى دارت بين ممثلى الديانات الثلاث السماوية. ويجدر بنا هنا أن نعرض بعض ما جاء فيه.

يذكر هاليفى أن ملك الخزر رأى رؤية فى منامة حيث جاء إليه ملك وقال له: "نيتك حسنة ولكن عملك ليس كذلك"، وبناء على ذلك قرر ملك الخزر استدعاء ممثلى الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام لمناقشتهم وبيان أفضل هذه الأديان^(١٢٩).

ثم يستعرض فى كتابه كيف حاول الفيلسوف اليهودى اقناع ملك الخزر بدينه بانتهاج طريقه الفلسفة اليونانية العتيقة، فعمل على اقناعه بروح تلك الفلسفة حيث ذكر "أن الرب أعلى الأعالى، وسبب أسباب كل تطور فى الخلق كما أن كل مخلوق أصل من مخلوق سابق له والعالم لم يخلق إلا وهو قديم، وحاول أن يقنعه بمبدأ السببية من أن كل إنسان ولد من إنسان سابق له، وأن العالم مر بتطور تدريجى، وأن كل حلقة فى السلسلة مربوطة بالحلقة التى قبلها والتى بعدها مربوطة بكلتيهما. وهكذا فإن الأسباب والنتائج مرتبطة وملتصقة بالأخرى، وما هية كل واحدة نتيجة سابقة ومسببة لتلك التى بعدها "أى أن الفيلسوف حاول أن يقنع الخزر بفكرة الديانة اليهودية على أنها القاعدة والأساس للأديان الأخرى دون الاهتمام بالمشاكل الدينية والخلافات المختلفة بين تلك الديانات، ومن ثم فهو يستطيع أن يعرض دينه على أسرته ومواطنى دولته^(١٣٠).

بعد ذلك قرر الملك الخزرى أن يدعو ممثلين عن المسيحية والإسلام، لكى يقدموا أفكارا عن ديانتهما تحدد أى الديانتين أصلح وقد ألقى ممثل المسيحية محاضرة أمام ملك الخزر عن أسس ديانته. وعن هذه الأسس ذكر "أن المسيحيين يعتقدون أن إلههم قبل الأول وأن العالم خلق وقد استمر خلقه ستة أيام، وقد ولد

(١٢٩) شه لافان. يوسف: يهوذا هاليفى، هخوزرى.

هوتسات أو رعيم، معروت فهنجيرت للمود فلقرياه (١٩٧٨)، ص ١٠

(١٣٠) شه لافان. يوسف: المصدر السابق، ص ١٠-١٢.

البشر من آدم ومن أبناء نوح بعد الطوفان وكان الخالق مهتماً بخلقه وظهرها لهم، واختار من أجناس البشر شعب اليهود، ووضع بينهم روحه القدس، ويؤكد المسيحيون أنهم مؤمنون بوجه عام بكل شيء مدون بتوراة موسى، وكتب أنبياء إسرائيل (العهد القديم) وكل ما أتى عنهم حقيقة، والاختلاف في نظرة المسيحيين في العلاقة مع اليهود تبدأ مع يسوع المسيح، وكان تجسيد الرب قبل معرفتهم ليسوع، وقد ولد يسوع لإحدى عذارى اليهود ففي الظاهر اتخذ صورة بشرية. ولكن أصبح برغبته هو الرب، ففي الظاهر ظهر كنبي، وفي الخفاء كان هو المسيح الذي تطلع إليه اليهود وابن الله وأصبح هو شيء واحد الأب والابن والروح القدس، وبلغه واضحة فإن هذا التعريف يعد ثالوثاً ولكن في ماهيته "توحيد إلهي" وقد سكن مع شعب إسرائيل حتى صانوه ثم شنقوه، وقد أسقط شنقه غضباً إلهياً أبدياً على شعب إسرائيل، والمسيحيون يسرون في الطريق الصحيح لأنهم يتطلعون إلى يسوع المسيح، وقد عرف بطرس قوانين المسيحية ووصاياها، وقد جاء للتمسك بشرائع موسى وليس لإخفائها" على أن الملك الخزري أجاب الراهب بعد الانتهاء من محاضراته بأن الخزري لا يستطيع أن يتقبل العقيدة المسيحية، لأنها تعتمد على أقوال غير منطقية مثل إنجاب الله ابن من عذراء لحماً ودماً، ومع أنه ابن الله فهو أيضاً الأب وأيضاً الروح القدس في الوقت الذي هم فيه ثالوثاً هم شيئاً واحداً، وبذلك لا يمكن للخزري أن يتقبل تلك الديانة كإيمان^(١٣١).

بعد ذلك ألقى العالم المسلم محاضراته عن أسس دينه أمام ملك الخزر، وأنكر هو أيضاً مثل الخزر إمكانية تجسيد الله في يسوع وأوضح أن المسلمين يعتقدون أن الله كتب قرآنهم، وأن القرآن يشهد على حقيقته، فلا يستطيع بنى البشر أن يأتوا بمثله، بل ولا بآية من آياته ونبيهم محمد (ﷺ) هو آخر الأنبياء قد جاء بأمر إلهي لكي يلغى كل الشرائع التي سبقت، ويدعو الإسلام كل الشعوب لكي يسلموا، ويتلقى المؤمن بعد موته ثواب، ويتحد جسده مع نفسه في جنه عدن، ويتمتع هناك

(١٣١) ش، لافان. يوسف: المصدر السابق، ص ١٣-١٤.

بكل الملذات الممكنة، والممتنع عن الإسلام يموت في نار جهنم وجلدته لا يتركوه إلى الأبد..... الخ^(١٣٢)

على أن ملك الخزر رفض أيضا هذه العقيدة لأن - بزعمه - إعجاز القرآن في لغته والإنسان الذي لا يعرف اللغة العربية لا يستطيع أن يتبين بماذا يفضل القرآن عن الكتب العربية الأخرى، كما أن ملك الخزر لم يصدق أن الخالق تجلى لمحمد^(١٣٣) (ﷺ).

ثم جاء ممثل الدين اليهودي أمام ملك الخزر، ولم يفتح محاضرته عن الدين اليهودي كما فعل المسيحي والمسلم ولكنه بدأ المحاضرة بقوله: "نحن نؤمن بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب الذي أخرج أبناء إسرائيل". وقد ذكر ممثل الدين اليهودي أن مسنولي المسيحية والإسلام افتتحوا أقوالهم في المحاضرة على أسس الديانات التوحيدية، وليس في هذه القضية فرق جوهرى بين دين ودين آخر، ولذلك فلم يعد هو إلى تلك الأقوال وأدعى أن ما أورده ممثلى المسيحية والإسلام جاءت لكى تثبت حقيقة دين إسرائيل، ومن ثم دعى ملك الخزر إلى الإيمان بدين إسرائيل الذى يتأسس على وقائع تاريخية صادقة معروفة فى العالم منذ أن حدثت حتى اليوم، فلا يوجد فرد حاول أن ينكرها^(١٣٤).

ويهمنا هنا أن يهودا هاليفى يذكر فى موضعين مختلفين من كتابه أن تاريخ اعتناق الخزر اليهودية وقع منذ أربعمائة عام فى عام ٤٥٠٠ (طبقا للتقويم اليهودى) أى سنة ٧٤٠م^(١٣٥)، وهو أكثر التواريخ احتمالا.

ولا شك أن هاليفى اتخذ من اعتناق ملك الخزر لليهودية سبيلا لنصره دينه فغلف كتابه بهذه القصة التاريخية الواقعية، حتى يكون تأثير كتابه بعيدا وزعم أن

(١٣٢) شه لافن. يوسف: المصدر السابق، ص ١٤-١٥.

(١٣٣) شه لافن. يوسف: المصدر السابق، ص ١٥-١٦.

(١٣٤) شه لافن. يوسف: المصدر السابق، ص ١٦-١٧.

(١٣٥) Koestler: op. Cit., 79.

Gregoire: Le Glozel Khazare, in Byzantion, (1937),p. 249.

اليهودية خير أديان الأرض وأن ملك الخزر تهود عن قناعة تامة بالديانة اليهودية التي هي الوحيدة الوسيط بين الله وسائر البشر، ولقد نجح حيث ركز على أن المسيحية وتعاليمها تعتمد وترتكز في كثير منها على اليهودية ولا تعارضها إلا في فكرة الإله، كما ركز أيضا على فكرة التثليث التي تلاقي خلافا كبيرا لكنه على الرغم من أن المؤلف كان متمكنا ملما بالعقيدة المسيحية والفلسفة الإغريقية، وعلى معرفة بالإسلام - كما وضع - إلا أنه في الحديث الخاص بالإسلام الذي دار بين ملك الخزر والفقهاء المسلم يبدو ضعيفا، وذلك أنه أظهر الإسلام خاليا من المعجزات اللهم إلا القرآن الكريم المدون باللغة العربية، وبعد أن فكر الملك مليا وجد أن القرآن بالعربية ولا يستطيع أحد غير عربي أن يدرك معجزته.

وصفوة القول أن كتاب يهوذا هالي في عبارة عن نقد موجه إلى الديانتين الإسلامية والمسيحية، وهو شبيه إلى حد كبير بالقصة التي أوردتها البكري حيث نجح الحاخام اليهودي في إقناع ملك الخزر باعتناق اليهودية، في حين فشل القس المسيحي والفقهاء المسلم، والاختلاف بين الروايتين يتضح في أن الفقهاء المسلم لم يدس أحد له السم.

وتعتبر "الرسالة الخزرية The Khazar Carrespondence، التي تبودلت باللغة العبرية بين حسداى بن شفروط وملك الخزر يوسف من أهم المصادر التي تتحدث عن اعتناق الخزر لليهودية، وقد جرى تبادل هذه الرسالة في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر⁽¹³⁶⁾ (٩١١-٩١٦م / ٣٠٠-٣٥٠هـ) الذي استطاع أن يقضى على الحركات الانفصالية في دولته ويوحد البلاد تحت سيطرته ويجعل من عاصمة ملكه قرطبة مفخرة للأندلس العربية وأحد المعابر الرئيسية لانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا.

وقد ولد حسداى في قرطبة سنة ٩١٠م لأسرة يهودية بارزة، واستطاع أن يجذب انتباه الخليفة عبد الرحمن الناصر بمهارته وممارسته للطب، فاتخذه الخليفة

(136) Gregoire: op. Cit., p. 226.
Brehier: Le Mond Byzantine, p. 30.

طبيباً، ثم وزيراً لخارجيته ليُدلى بدلوه في سارب المعاملات الدبلوماسية المعقدة للخلافة مع بيزنطة، حيث كان الإمبراطور البيزنطي رومانوس الأول (٩١٩-٩٤٤م) مهتماً بضمان حياد قرطبة في أثناء الحملات البيزنطية على الخلافة العباسية في الشرق، لذا عزز من أواصر الصداقة بينه وبين قرطبة، وأرسل مخطوطة طبية وهي مخطوطة ديوسقوريدس Dioscorides مع الراهب نيقولاس Nicolaus الذي ترجمها من اليونانية إلى اللاتينية، وقام حسداى بترجمتها إلى اللغة العربية. وكان حسداى ينتهز كل فرصة للتدخل لتحسين وضع اليهود في بيزنطة وأسبانيا وفي كل مكان في أنحاء العالم، كما أشترك حسداى في كثير من النواحي السياسية الخارجية مع الإمبراطور الألماني أتو الأول (٩٣٦-٩٧٣م) وقشتاله وأرغون، وغير ذلك من الممالك النصرانية^(١٣٧). وقد سمع حسداى أول ما سمع من بعض تجار من خراسان ببلاد فارس، بوجود مملكة يهودية مستقلة على رأسها ملك يهودى، وأن هذه المملكة موجودة بالفعل وأسمها خوزار Khazar (مملكة الخزر). وقد أكد له رواية التجار سفراء بعثة دبلوماسية بيزنطية أرسلت إلى الخليفة عبد الرحمن، ولذلك عزم حسداى على إرسال مبعوثين من رجال البلاد إلى الخزر يحملون رسالة إلى الملك يوسف ملك الخزر في ذلك الوقت^(١٣٨).

وقد استهل حسداى خطابه بتحيات رنانة لملك الخزر، ثم تحدث عن اليهود، وما عانوه من المصائب والنكبات التي نزلت بهم، وكيف فرح حينما علم بوجود تلك المملكة اليهودية، ثم تحدث حسداى بإفاضة عن الأندلس واسمها وموقعها والتجارة وكل شاردة وواردة عن الأندلس والمسافة بينها وبين القسطنطينية وكيف ازدهرت أسبانيا في عهد العرب، كما تحدث عن جغرافيتها، كما وضح كيف يعيش اليهود في كنفها عيشة رغده، ثم انتقل حسداى بعد ذلك للحديث عن الكيفية التي عرف بها المملكة اليهودية من التجار الخرسانيين وكيف شك في صدق

(137) Koestler : op. Cit., pp. 65-66.

(138) The Epistle of R. Chisdai., CF, Adler: op. Cit., p. 22.

Rosenthal: Art., Chazar, in the Jewish Ency., Vol, iv, p. 3.

روايتهم واعتقد أنهم يسعون إلى كسب عطفه ووده، ولكن البعثة الدبلوماسية البيزنطية أكدت له روايتهم، وذكرت أن تلك المملكة تبعد عن القسطنطينية في رحلة تستغرق خمسة عشر يوما، وأن لبيزنطة علاقات تجارية طيبة معهم وعلى رأسها الآن ملك خزرى اسمه يوسف^(١٣٩).

وذكر حسداى كيف عزم على الاستفادة من خدمات السفارة البيزنطية لنقل رسالته إلى ملك الخزر، وكيف أوفد رسولا أسماه إسحاق بن ناسان Isaac Ibn Nathan بتعليمات تقتضيه أن يمضى فى رحلته حتى يبلغ بلاط الخزر، وحمله بهدايا قيمة للإمبراطور البيزنطى لكى يسر له رحلته، وعندما وصل الرسول إلى القسطنطينية عومل معاملة طيبة، ولكن البيزنطيين أخروه ومنعوه من المضى فى رحلته بحجة أن الطريق مملوء بالأخطار، ومن ثم عاد إسحاق رسول حسداى إلى قرطبة دون إنجاز المهمة^(١٤٠). وربما يرجع سبب عودته إلى أن الإمبراطورية البيزنطية لم تكن راغبة فى قيام تحالف بين بلاد الخزر اليهودية وخلافة قرطبة التى كان كبير وزرائها يهوديا.

ويمضى حسداى ذاكرة كيف أصيب بالإحباط حينما علم بذلك الأمر، وقرر إرسال خطابه عن طريق بيت المقدس لأن هناك أشخاصا وعدوا بتوصيله، إلا أن رسلا من قبل ملك Gebalim (بويسلاف الأول Boleslav I of Bohemia) وصلوا إلى قرطبة فى زيارة سياسية، وكان من بين أفراد البعثة يهوديان اسمهما سول Soul ويوسف Hoseph اللذان عرضا عليه توصيل الخطاب، وذلك بإرساله إلى اليهود القاطنين فى هنغاريا (المجر) اللذين يقومون بدورهم بتوصيله إلى روسيا ومن هناك

⁽¹³⁹⁾ The Epistle of R. Chisdai., CF, Adler: op. Cit., pp. 27-8.
Rosenthal: op. Cit., Vol, iv, p. 3.

⁽¹⁴⁰⁾ Rosenthal: op. Cit., Vol, iv, p. 3.
The Epistle of R. Chisdai., CF, Adler: op. Cit., p. 28.
Koestler : op. Cit., pp. 70.

إلى البلغار، حتى آخر المطاف فى أتيل عاصمة الخزر، ولقى هذا الاقتراح الاستحسان والقبول لدى حسداى الذى عبر عن شكره العظيم لهم^(١٤١).

ومضى حسداى فى رسالته قائلا: "إنى لأشعر بحافز يدفعنى إلى معرفة الحقيقة: هل حقا يوجد مكان على ظهر هذه الأرض، يستطيع فيه اليهود المنهكون أن يحكموا أنفسهم دون أن يخضعوا لأحد"^(١٤٢)، لوقيض لى أن أعلم بوجود هذا المكان حقا، لما أصابنى التردد فى التضحية بكل ما أملك من ألقاب الشرف التى أحملها والاستقالة من منصبى الجليل تاركا مكانتى العالية وأهلى وماضيا فى رحلتى

(141) Rosenthal: op. Cit., Vol, iv, p. 3.

The Epistle of R. Chisdai., CF, Adler: op. Cit., p. 28-9.

Art., Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p. 950.

(١٤٢) ورد فى العهد القديم أن إقامة اليهود فى فلسطين استمرت ستة قرون من سنة ١٢٠٠ ق.م إلى سنة ٥٨٦ ق.م وكان لليهود مملكة فى فلسطين فى عهد داود كانت عاصمتها أورشليم. وما لبثت تلك المملكة أن انشطرت إلى قسمين بعد وفاة سليمان خليفة داود، وهما مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة (نابلس) شمالا، ومملكة يهوذا فى الجنوب وعاصمتها أورشليم (القدس)، وظلت المملكتان تتقاتلان، كل دولة تعمل على فناء الأخرى، وانتهت الحرب بينهم بالقضاء على الشمالية، واتصوا تابعيها تحت لواء مملكة يهوذا.

انظر العهد القديم سفر الملوك الأول، اصحاح ١٤.

بعد ذلك تعرضت مملكة يهوذا لطرقات مصر مرتين على يد شيشنق والثانية على يد نخاو إلى أن جاء دور المملكة الشمالية حيث فتحها سرجون الأشورى فى عام ٧٢١ ق.م وقضى عليها تماما ثم أغار نبوخذ نصر ملك بابل فى عام ٥٨٦ ق.م وقضى على مملكة يهوذا نهائيا واستولى على أورشليم وأحرقها وهدم هيكل سليمان وساق من تبقى من اليهود إلى بابل أسرى كما تروى التوراة.

انظر: - العهد القديم، سفر الملوك الثانى، اصحاح ٢٤.

وبذلك زالت إلى الأبد دولة اليهود فى فلسطين وأصبح ليس لهم أى أهمية فى فلسطين. وقد بدأ اليهود فى الاضمحلال وأوشكوا على الفناء الكلى كما ورد فى أخبار الأيام الثانى "فأفقيت أُمى بأمة ومدينة بمدينة لأن الله أزعجهم بكل ضيق".

انظر: العهد القديم، اصحاح ١٥، آية ٦.

أعبر الجبال وأقطع السهول، ضاربا في اليابسة، خائضا الماء حتى ابلغ البلاد التي يحكمها مولاى الملك (اليهودى)^(١٤٣).

وبعد ذلك يسأل حسداى طائفة من الأسئلة المباشرة عن دولته وطبيعة أرضه والقبائل التي تقطن حول دولته، وعن الملوك الذين اعتلوا المملكة وعن جغرافية أرض الخزر وشعائرها ونظامها القضائي، والأمم التي تدفع الجزية واللغة الدارجة في أرض الخزر وموقفها من يوم السبت، وعن جيوشه، وعن أصله ومن أي نسل انحدروا، كما سأل حسداى "هل لدى الملك يوسف علم بالتاريخ المحتمل للهجرة الأخيرة (أي ظهور المسيح عليه السلام) التي ننتظرها ونحن نجوب الأرض من بلد إلى بلد، ويحق علينا في ذلتنا وخضوعنا للذين نعاني منهما في تشردنا أن نصغى في صمت إلى أولئك الذين يقولون: "لكل أمة أرضها وأنتم دون سواكم لا تملكون حتى الشبح من أرض على وجه هذه البسيطة"، وأنهى حسداى خطابه بـرجاء أن يرد عليه الملك يوسف^(١٤٤). ويلاحظ من خطاب حسداى أنه كان طويلا ذكر فيه معلومات غزيرة وتفصيلات طويلة عن الأندلس بهدف إغراء الملك يوسف بالإضافة في ذكر أحوال مملكته في رده عليه.

أما عن رد ملك الخزر يوسف على رسالة حسداى، فنجد أنه يبدأ مستهلا بتحيات دافئة، ثم تحدث الملك مرددا مطالب حسداى الرئيسية التي جاءت في رسالته، منوها في فخر واعتزاز بأن مملكة الخزر تكذب الذين يقولون "أن صولجان يهوذا قد سقط من أيدي اليهود إلى الأبد" والذين يقولون أيضا "أنه لا مكان على وجه الأرض للملكة خاصة باليهود"^(١٤٥). ثم ردد الملك الخزري مطالب أخرى لحسداى تضمنت إجابة عن سؤال حسداى الخاص بشعبه وأصله، ومن أي قبيلة من

(143) Koestler : op. Cit., pp. 71.

(144) The Epistle of R. Chisdai., CF, Adler: op. Cit., pp. 30-32.
Art., Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p. 950.

(145) Koestler : op. Cit., pp. 72.

القبائل الأثنى عشر اليهودية^(١٤٦) ينتسب الملك وشعبه، وأجاب يوسف بأنه وشعبه يرجع أصولهم إلى يافث الابن الثالث لنوح ولا يرجعه إلى سام^(١٤٧).

وبذلك نستطيع القول أن الملك الخزري يوسف بالرغم من إيمانه الشديد باليهودية واعتزازه بقيامه على "صولجان يهوذا" فإنه لم يستطع أن يزعم أنه من أصل سامي وبذلك يكون الخزر لا علاقة لهم بالجنس السامي، كما أن حسداى فى رسالته سأل عن أى قبيلة من القبائل الأثنى عشر ينتسب (الملك) ظنا منه أن يهود الخزر خرجوا من فلسطين شأنهم فى ذلك شأن يهود الأندلس.

بعد ذلك يتحدث يوسف فى رده عن اعتناق الخزر لليهودية بشكل أسطورى، والذى حدث قبل ذلك بقرنين من الزمان، وبدأ بمدح الملك بولان ووصفه بالعدل والحكمة، وأنه من أعظم الغزاة حيث طرد السحرة والمشركين، "وقد تراءى له فى أحلامه ملك نصحه وحضه على أن يعبد الإله الواحد الحق الذى سوف يجزيه بالإكثار من ذريته ومباركتهم وتخليص مملكته من أعدائها وجعلها تدوم حتى نهاية العالم^(١٤٨). ويعقب كويستلر^(١٤٩) قائلا: "أن هذا بالطبع من وحي القصة

^(١٤٦) ارتبط اليهود فى التاريخ بإبراهيم الخليل - أبى الأنبياء - الذى نشأ عليه السلام كلدانيا فى القسم الجنوبي من العراق وإبراهيم من سلالة سام بن نوح عليه السلام، ولقد هاجر من مدينة أور فى أرض الكلدانيين حوالى سنة ١٨٠٠ ق.م. هو وزوجته سارة، ولوط ابن أخيه إلى فلسطين أرض الكنعانيين، ولما أشد القحط بفلسطين أخذ إبراهيم أسرته ومن معه إلى مصر فدخلها أيام الهكسوس، ثم عاد مرة أخرى إلى كنعان، وهناك سيولد له إسماعيل من جاريته هاجر والآخر إسحاق من زوجته سارة، وسيولد لإسحاق هذا ولدان هما عيسو ويعقوب وقد أقام يعقوب أو إسرائيل فى أرض كنعان وأنجب اثنى عشر ولدا ولقد سموا أسباط إسرائيل، وهم الأساس الذى خرج منه بنوا إسرائيل جميعا وعرفوا بقبائل إسرائيل الأثنى عشر اليهودية.

- انظر التوراة، سفر التكوين، إصحاح ٤٩.

(147) The Answer of Hoseph., CF., Alder: op. Cit., p. 34.

(148) Koestler : op. Cit., pp. 66-67.

(149) Ibid, p. 67.

التي وردت في سفر التكوين وشمل أن الخزر زعموا أنهم "شعب مختار". أيضا قد عاهدوا الرب على الرغم من أنهم لم يكونوا من نسل إبراهيم.

والحقيقة أن هذا يدل على أن الملك يوسف ملك الخزر قد تأثر بالوعود الربانية المزعومة التي حفلت بها التوراة^(١٥٠).

على أن الملك يوسف بعد أن تحدث عن تحول الخزر إلى اليهودية يقف عند هذا الحد، ويسلك اتجاه آخر غير متوقع، إذ ذكر أن الملك بولان كانت نيته قد صحت على أن يطيع الله، غير أنه يضع مشكلة في هذا السبيل ويقول: "وأنت يا رب تعلم ما يكنه قلبي من أسرار، وقد تغلغت فيما تنطوى عليه جوانحي، فعلمت أنني عليك توكلت، غير أن قومي اللذين أحكمهم لهم عقول مشرقة، وليست أدري أيؤمنون بي أم لا يؤمنون، وإنني إذ أجد في عيونك المطلقة الرضا والرحمة، وإنني أسألك أن تتجلى أيضا للأمرير الأكبر، لتجعله يمدني بعونه وتأييده". واستجاب المولى لطلب الملك بولان فتجلى للأمرير الأكبر في الحلم، وحينما استيقظ في الصباح من نومه حتى شخص إلى الملك بولان وأخبره بكل ما رأى في منامه^(١٥١).

على أن الشيء الملاحظ أنه لم يرد في أخبار المؤرخين المسلمين فيما يختص باعتناق الخزر لليهودية عن وجود أمير أكبر يجب الحصول على رضاه، لكن

^(١٥٠) منها ما جاء في سفر التكوين "ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبرام وقال له أنا الله القدير، سر أمامي وكن كاملا فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيرا جدا، فسقط إبرام على وجهه، وتكلم الله معه قائلا: "أما أنا فهوذا عهدي معك وتكون أبا لجمهور الأمم، فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم أني أجعلك أبا لجمهور من الأمم، وأثرك كثيرا جدا وأجعلك أمما. وملوك منك يخرجون وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا. لأكون إلهك ولنسلك من بعدك. وإعط لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم".

- انظر، إصحاح ١٧، آية ١ - ٨.

(151) Koestler : op. Cit., p. 67.

ربما يكون ذلك صدى لما ذكرته المصادر الإسلامية من أنه كان للخزر - كما ذكرنا من قبل - شخصان (عاهلان) يقومان بأعباء الحكم في المملكة.

ويستمر يوسف في حديثه ويروى كيف ظهر الملك مرة أخرى في منام بولان وكيف أمره بإقامة مكان للعبادة يحل فيه الرب وذلك "أن السماء والسموات التي فوقها لا تتسع لى" على أن بولان رد عليه في خجل وحياء بأنه لا يمتلك الذهب ولا الفضة التي تعينه على القيام بهذا العمل وإن كان الواجب والرغبة يوجبان القيام بذلك، وهنا أكد له الملك بأن كل ما يجب عليه عمله هو أن يقود جيوشه إلى داريل وأردبيل في أرمينيا، وفعل ذلك بولان ما أشار عليه الملك. وعاد منتصرا ومحملا بالغنائم وأقام هيكلًا مقدسًا ومجهزًا بصندوق مبارك (تابوت العهد) وشمعدان ومذبح وأدوات مقدسة حفظت إلى اليوم ولا تزال بعد في حوزتى (أى في حوزة الملك يوسف)^(١٥٢).

والحقيقة أن هذه الحملة التي تحدث عنها الملك يوسف تنطبق على الحملة التي قام بها الخزر على أردبيل والتي قتل فيها الجراح الحكيم وسبقت دخول الخزر اليهودية وكانت سنة ٧٣١ م (١١٢ هـ) تقريبًا، وكما سبق فإن بعض المصادر الإسلامية قد أشارت بأنه كان للخزر مناجم ذهب في القوقاز، ومجمل القصة التي رواها يوسف أنها تجمع بين الحقيقة والخيال.

وبعد أن ينتهى الملك يوسف من رده على حسداى، يتحدث عن الملك عبديه Abadiah، وهو أحد حفدة بولان الذى أصبح ملكا على مملكة الخزر، ووصفه يوسف بالشجاعة حيث أصلح وجدد في مملكة الخزر، وقوى من شأن اليهودية في المملكة، ودعى بعض المدارس اليهودية إلى المملكة، وجمع جمعا من حكماء إسرائيل وجعلهم يفسرون الكتب المقدسة والمشنا والتلمود، وأقام عبديه المدارس والمجامع اليهودية واستخدم الخزر في مكاتبتهم الرسائل العبرية^(١٥٣).

(152) Ibid, pp. 67-68.

(153) Rosenthal: Art., Chazar, in the Jewish Ency. Vol. iv, p.2.
Art., Khazar, in Ency. Judaica, Vol. x, p. 951.

وعلى ما يبدو أنه بعد بولان بعدة أجيال حدثت نهضة دينية أو إصلاح وربما يكون هذا التغيير قد واكبه انقلاب في المملكة أدى إلى ذلك، وأن اعتناق الخزر لليهودية تم على عدة مراحل كما وضح فإن بولان طرد السحرة والمشركين، قبل أن يتجلى له الملك في منامه وأقام العهد مع الإله الحق قبل أن يقرر، إله اليهود هو أم النصرى أم المسلمين، وأغلب الظن أن اعتناق الملك بولان واتباعه لليهودية كان مرحلة وسط أو أنهم اعتنقوا صورة بدائية من اليهودية تعتمد على التوراة دون سواها، مع استبعاد باقى كتب اليهود الربانية والشعائر المشتقة منها، وهم فى ذلك يشبهون "القرائين" وهم فرقة كبيرة يعود أصلها إلى القرن الثامن الميلادى فى بلاد فارس وكانت تتمسك بالتوراة (العهد القديم) فقط دون غيرها من الكتب اليهودية كالتلمود.

ثم أجاب يوسف على بعض الأسئلة الخاصة بمملكة الخزر من حجمها وجغرافيتها والأمم التى تدفع الجزية، إلا أنه يجنح فى خطابه بعيدا عن الكياسة والفتنة حيث يظهر بمظهر المدافع عن الخلافة الإسلامية فى بغداد حين ذكر أنه يمنع الروس ويقاتلهم ليمنعهم من نهب الأقاليم الإسلامية التابعة للخلافة⁽¹⁵⁴⁾ ومن المعروف أن الخلافة الأموية فى قرطبة التى كان حسداى فى خدمتها كان بينها وبين الخلافة العباسية فى بغداد عداوة مستحكمة أفاضت فى ذكرها المصادر المعاصرة.

على أن الملك يوسف خص تاريخ ظهور المسيح عليه السلام بالقول: "إن عيوننا على حكماء أورشاليم وبابل وعلى الرغم من أننا نعيش بعيدا عن صهيون، فإننا قد سمعنا مع ذلك بأن الحسابات مخطئة لوفرة الآثام، ونحن لا نعلم شيئا وإنما الباقي هو الذى يعلم كيف يتولى الحساب، وليس لدينا ما نستند إليه إلا نبوءات دانيال Danial ونسأل الله أن يعجل بخلصنا".⁽¹⁵⁵⁾ ونقف عند هذه الفقرة، ونقول أن جمهور اليهود يعتقد أن فلسطين هى أرض الميعاد وأنهم سوف يعودون إليها، وانضم

(154) The Answer of Joseph., C.F., Adler: op. Cit., p. 35.

(155) Koestler: op. Cit., p. 75.

إلى هؤلاء اليهود الخزر الذين لا يمتوا بصلة إلى بنى إسرائيل. وهذه العودة سوف تتم على يد ما أسموه المسيح المنتظر، وأن هذا المسيح (المنقذ أو المخلص) سيخرج من بيت داود ويجمع شمل اليهود ويعود بهم إلى أورشليم لينقذهم من المحن والشدائد التي يعانونها، ويخلصهم من التشريد والهوان جزاء عصيانهم أوامر الله، وينتقم لهم من جميع الشعوب ويفرض عليها سلطان اليهود، ولقد ورد في تلمودهم: "عند ما يأتي المسيح تطرح الأرض فطيرا وملابس من الصوف وقمحا في حجم كلاوى الثيران الكبيرة وحينئذ ترجع السلطة لليهود" (١٥٦).

وهناك أسطورة في توراتهم تشير إلى أن هناك نبي يدعى إيليا صعد إلى السماء مستقلا مركبة من نار يجرها حبل من نار أيضا، واليهود يعيشون في انتظاره على أمل هبوطه من السماء بشيرا بمقدم المسيح (١٥٧). كما تحفل التوراة بنبوءات تشير إلى هذا المسيح المنتظر (١٥٨).

وفي نهاية الخطاب ذكر يوسف أن الإله ربما يجمعه هو وحسداى وكل المشتتين والمأسورين وكل من أحب إسرائيل من اليهود، وأجابه بأنه على استعداد لدخول حسداى في خدمة ملك الخزر، وأكد له يوسف في عبارات دافئة أنه يعتبره والده ويعتبر نفسه ابنا له وأن شعب الخزر سوف يكون تحت رهن مشورته (١٥٩).

كان هذا خطاب حسداى والرد عليه من ملك الخزر يوسف. والحقيقة أنه على الرغم من وفرة المعلومات عن اعتناق الخزر لليهودية إلا أن هذا الموضوع مازال مثيرا لدهشة العديد من المؤرخين المعنيين بالخزر، صحيح أن تحول الخزر

(١٥٦) التلمود: ص ٧-٨.

لم يظهر المسيح المنتظر، ولم تظهر بوادر ظهوره ولم تنتج الأرض فطيرا ولا قمحا كثيرا حجم الحبة الواحدة منه في حجم كلية النور، ويبدوا أنهم أحسوا بتأخر من ينتظرونه ففكروا في إقامة دولة لهم في قبرص أو مدغشقر، وسعوا إلى تكوينها في فلسطين بالاغتصاب.

(١٥٧) التوراة: سفر الملوك الثاني، إصحاح ٢.

(١٥٨) انظر، أسفار حزقيال: إصحاح ٣٧ - اشعيا: إصحاح ٢ - هو شع إصحاح ٣.

(١٥٩) The Answer of Joseph., C.F., Adler: op. Cit., p. 36.

إلى اليهودية كان الدافع إليه سياسيا إلا أنه ليس من المعقول أن ملك الخزر اعتنق هذا الدين بهذا الشكل الأسطوري الذى أوردته المصادر المتباينة، ولا يمكن أن يكون قد انقاد إليه انقيادا أعمى دون أن يعرف شعائره وفروضه. إن اللاجئين الذين فروا بدينهم من اضطهاد بيزنطة كانوا يتقاطرون على بلاد الخزر حشودا إثر حشود، وكانت بلاد الخزر هى المأوى الطبيعى للخروج اليهودى تحت وطأة الاضطهاد الدينى، ولابد أن الخزر كانوا على معرفة وثيقة باليهود وشعائر دينهم قبل اعتناقهم لهذه الديانة، ولكن مما يدعوا إلى الدهشة أن الخزر اتخذوا دينا لا سند له من أية سلطة سياسية، بل كان موضع اضطهاد من الجميع تقريبا.

ويبدو أن اليهود أقنعوا ملك الخزر وشعبه بأن اليهود قد اختارهم الرب لكى يقودوا العالم إلى الحياة الفضلى، وأن الله اختارهم لهداية بقية الشعوب فى العالم، لاشك أن القائمين على هذه الديانة أقنعوا ملك الخزر وحاشيته بأنه إذا اعتنق اليهودية سوف تكون أمته اليهودية الجديدة هى المعلم بالنسبة لشعوب العالم الناعسة الغافلة، وانه سوف يصبح أكثر حضارة من بيزنطة المسيحية والخلافة الإسلامية.

ويبدو أيضا أن القائمين على الديانة اليهودية انبروا وراحوا يصفون بوؤس اليهود والمظالم التى لاقوها ويعيشون فيها، ودعوا ملك الخزر إلى العطف على اليهود وناشدوه باعتراف اليهودية، وربما يكون اليهود قد نسوا أرض الميعاد التى يطمعون العودة إليها فى ذلك الوقت، فعملوا على إقناع ملك الخزر باعتراف اليهودية هو وشعبه، وقرروا التخلي عن أرض الميعاد (فلسطين) - مؤقتا - وقنعوا بمنطقة أخرى تحقق أحلامهم بإقامة وطن قومى لهم، فيبدو أن اليهود الذين مضى عليهم ألف عام مشردين فى الأرض بلا مأوى نسوا ما يكون عليه حالهم إذا تولى أمرهم ملك ليس منهم وأرض لا أصل لهم بها.

وهكذا اعتنق الخزر اليهودية على الرغم من البعثات التبشيرية الضخمة التى كانت ترسلها بيزنطة لنشر الديانة المسيحية والتى لم تصادف النجاح، فإن الخزر أصروا بعناد على أن اليهودية عقيدة أحسن من النصرانية، ولم تكن فتيلة جهود

القديس كيرلس الذى تعلم الخزرية والعبرية تهيؤاً لتلك الغاية، فلم يستطع أن يصرفهم تماماً عن رأيهم^(١٦٠).

وعلى الرغم من أن مملكة الخزر كانت تحمى اليهود واليهودية فى أراضيها إلا أنه كان فى أتيل أكثر من عشرة آلاف مسلم ومسجد جامع له منذنة شامخة وكان المسلمون يصلون فيه الصلاة ويحضرون فيه أيام الجمع، وبلغ ملك الخزر فى سنة ٩٢٢م (٣١٠هـ) أن معبد اليهود قد دمر فى بعض البلاد الإسلامية، فما كان منه إلا أن هدم منذنة المسجد وقتل المؤذن، ولم يمس المسجد نفسه بسوء مخافة أن تدمر جميع المعابد اليهودية فى البلاد الإسلامية^(١٦١) وكان ذلك أكبر دليل على حماية الخزر لليهود واليهودية خارج نطاق دولتهم.

(160) Runciman: Byzantine Civilization, p. 286.

والترجمة العربية، رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص ٣٥١.

(١٦١) ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٣٥.



هكذا اتضحت أبعاد الدور الكبير الذى لعبته مملكة الخزر فى العصور الوسطى فى القرنين السابع والثامن للميلاد، وليس الغرض من هذه الخاتمة أن تكون تلخيصا للبحث وإلا صار الأمر تكرارا لا مبرر له.

من الواضح أن مملكة الخزر كانت فى البداية واحدة من تلك المجتمعات غير المستقرة لا ماديا ولا روحيا، تعيش حياة البداوة وتحكمها العلاقات القبلية، وكانت لا تختلف فى البداية عن التشكيلات المختلفة التى كانت تنتشر فى الأصقاع القاسية من وراء القفقاس وحول بحر قزوين وفى السهوب الروسية حتى المناطق الممتدة من اسكندنافيا إلى البلقان والنمسا كالجرمان والسلاف والهون والآفار والفايكنج وغيرهم.

وكانت مملكة الخزر عبارة عن قبائل وثنية شديدة المراس صانعتها الغزو والفتح، واستطاعت أن تسيطر على العديد من الشعوب القاطنة فى شرق أوروبا والقوقاز، وأن تتعامل مع الترك والبيزنطيين والمسلمين، وأخضعت البلغار والالان والبرطاس والمجر وغيرهم من الشعوب المتجولة فى تلك المنطقة وحملتهم على الاعتراف بسلطانها حتى أصبحت دولة مرهوبة الجانب.

وحينما ظهر الخزر فى القوقاز وأصبحوا مجاورين لحدود الفرس، أصبح الفرس العقبة الكأداء فى سبيل توسع الخزر وانتشارهم، مما أدى إلى حدوث تقارب بين الخزر وبيزنطة أمام الفرس عدوهم المشترك.

ولقد عانى الفرس الساسانيون مرارا عن غزوات العناصر التركية، وكانت أكثر الشعوب التركية ارتيادا للأراضى الفارسية الخزر خاصة فى عهود قباد (٤٨٨-٥٢١م) وكسرى أنوشروان (٥٢١-٥٧٩م).

ومن المعروف أن فارس كانت العدو التقليدى لبيزنطة وكان الصراع بينهما يمثل شوكة فى حلق الإمبراطورية البيزنطية، وبعد أن سقطت فارس فى يد

المسلمين فى القرن السابع الميلادى ورث المسلمون دور فارس كعدو تقليدى لبيزنطة وأيضاً للخزر.

وفى العلاقة بين الخزر وبيزنطة، وضح أن الصلات بين الجانبين كانت قديمة، ولكن الفترة التى تلت عهد الإمبراطور البيزنطى موريس (٥٨٢-٦٠٢م) شهدت زيادة الصلات والاحتكاك بين الطرفين خاصة على عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) والإمبراطور جستينيان الثانى (٦٨٥-٦٩٥م، ٧٠٥-٧١١م) وغريمه تيبريوس الثالث (٦٩٨-٧٠٥م)، ثم الإمبراطور فيليبكوس باردانس (٧١١-٧١٣م) وليو الأيسورى (٧١٧-٧٤٠م) وابنه قسطنطين الخامس (٧٤٠-٧٧٥م) الذى تزوج أميرة خزرية سنة ٧٣٢م أنجبت له ليو الرابع الذى عرف باليو الخزرى وقدر له أن يعتلى هرش الإمبراطورية البيزنطية من سنة ٧٧٥م إلى سنة ٧٨٠م.

لقد توج هرقل إمبراطوراً على بيزنطة وحينذاك كان عليه أن يواجه الصعاب الضخمة والمشكلات المعقدة التى قدر لبيزنطة أن تعيش فيها، وكان أكبر تلك المشكلات هو مواجهة العدو الفارسى، وكان الفرس فى الناحية الشرقية على أتم أهبة لإنزال ضربة قاصمة بالإمبراطورية البيزنطية، وكانت مملكة الخزر تواجه نفس المصير فظهرت حماسة للاتفاق مع بيزنطة ضد العدو المشترك.

وفى علاقة الخزر ببيزنطة بلغ من نفوذهم أن كان فى استطاعة خاقان الخزر أن يرفع حاكماً جديداً فى بيزنطة ويمنح البيزنطيين إمبراطوراً جديداً، فحينما تخلى خاقان الخزر عن جستينيان الثانى جعل سقوطه أمراً مؤكداً فى حين أن فيليبكوس لم يكن يستطيع البقاء دون معاونته.

كانت العلاقات بين بيزنطة والخزر علاقات طيبة ولم يتعكر صفوها سوى مرات قليلة عادت بعدها إلى حالتها الطبيعية، بدليل أن الخزر حينما طلبوا مساعدة الإمبراطورية البيزنطية فى بناء قلاع لصد أعدائهم من الغرب والشمال. لى الإمبراطور البيزنطى ثيوفيلوس (٨٢٩-٨٤٢م) الطلب بحماس شديد.

ولقد كانت مملكة الخزر حازما يحمى بيزنطة من شر غزوات القبائل البربرية المختلفة التى كانت بالفا فى الشمالية، قبائل البلغار والمجر والبشناق والفيكنج والروس وغيرهم.

وبعد انتشار الإسلام ووقوع كثير من مناطق القوقاز تحت مظلة الإسلام، أصبحت حدود الخزر تلاصق أملاك المسلمين، وتقترب من مناطق فتوحاتهم الجديدة لنشر الدين الإسلامى، وفى الحرب التى اندلعت بين الخزر والمسلمين والتى امتدت أكثر من قرن من الزمان، أسفرت فى النهاية عن نجاح الخزر فى الحد من الهجوم الإسلامى العاصف فى مراحل الأولى على شرق أوروبا من جهة ومنع الخزر من التوسع على حساب المسلمين من جهة أخرى.

لقد كان الخزر قوة برهنت على ذلك بأن كانوا الحد والحصن الرئيسى تجاه توسعات المسلمين فى القوقاز، ولو قدر للمسلمين السيطرة على مملكة الخزر والقضاء عليها لنفذوا إلى أوروبا، ولتغير تاريخ أوروبا وخريطتها تماما عما نعرفه الآن.

ولقد سعت كلا من بيزنطة والخلافة الإسلامية إلى تدعيم السلام مع الخزر وكان ذلك هو النتيجة المباشرة لموقع إمبراطورية الخزر الجغرافى الفريد، لذا حاول كلا من الطرفين أن يجذبا الخزر إليهما عن طريق الديانة أو مشاريع الزواج السياسى بعد استخدام السيف والدبلوماسية.

ولقد تمتعت مملكة الخزر بكل امتيازات الأمم المتحضرة فى العصور الوسطى، من حكومة متسامحة وتجارة منتعشة ومجتمع عالمى وتشريع متقن وجيش على أهبة الاستعداد.

وبعد أن تشعبت قبائل الخزر البدائية وأصبحت شعبا له وضعه الخاص وتركيبته الاجتماعية المتميزة فى العصور الوسطى، نمت فى نفس هذا الشعب نزعة إلى التماسك ورغبة فى إقامة مجتمعا له عقيدة منظوية على نفسها، خاصة وأن مملكة الخزر لم ترض أن تبقى على وثنياتها البدائية الساذجة المتخلفة تلك الوثنية التى

أصبح تناسق أنظمتها وغناها بالخيال قد عفى عليه الزمن، رفضت مملكة الخزر أن تبقى على تخلفها المادى وسذاجتها الفكرية، فاعتنقت الديانة اليهودية وقد اعتنق الخزر اليهودية على الرغم من محاولات بيزنطة استقطاب هذا الشعب وشده إلى عجلة الإمبراطورية وتشجيعه على اعتناق المسيحية والحيلولة بينه وبين اعتناق العقائد الأخرى.

ولقد وضح أن يهود الخزر ليس هناك ما يربطهم إطلاقاً من الناحية الأنثروبولوجية بيهود فلسطين القدماء.

وأخيراً فإن اعتناق الخزر لليهودية قد أعطى للعصور الوسطى سمة خاصة تميزت بها تحول غير اليهود إلى اليهودية.

الملاحق والخرائط

- المحلق الأول (١) :صور الرسائل المتبادلة باللغة العبرية بين الخزر
والأندلس في القرن العاشر الميلادي.
- الملحق الثاني (٢) :صورة لأمير منتصر ممسكا بأحد أعدائه (الفن
الخرزي).
- خريطة (١) :إمبراطورية الخزر (القرن ٧-١١م).
- خريطة (٢) :أهم هجرات الشعوب المتصلة بالخرز وطرق تجارتها.
- خريطة (٣) :إمبراطورية الخزر.
- خريطة (٤) :طريق رحلة ابن فضلان من بغداد إلى بخارى.
- خريطة (٥) :مخطط الأماكن التي وردت في رحلة ابن فضلان.

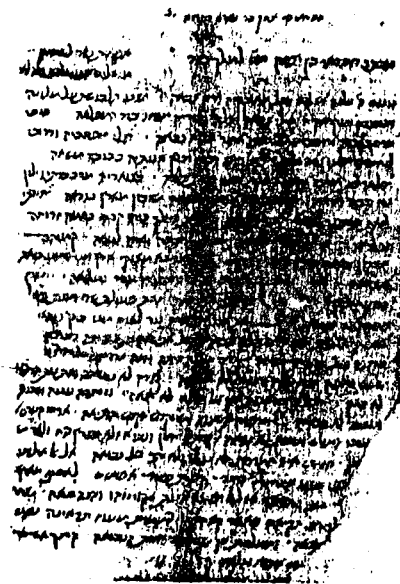


Figure 1: First of the letters from Hisdai ibn Shaprut to the king of the Khazars, 10th century. Oxford, Christ Church Library, Ms. 193, p. 12

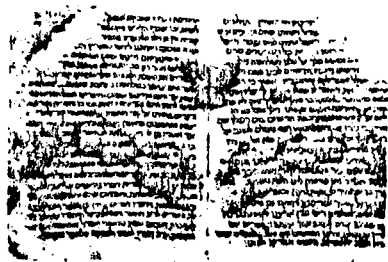


Figure 2: Two pages from the Cambridge Document, docos in the Canto Genziah which contains Khazar correspondence. Cambridge University Library, I-S. Loan 86

صورة للرسائل المتبادلة باللغة العبرية بين الخزر والأندلس في القرن العاشر

الميلادي

- Encyclopedia Judaica, Art. Khazar, vol. x, pp. 951-952.

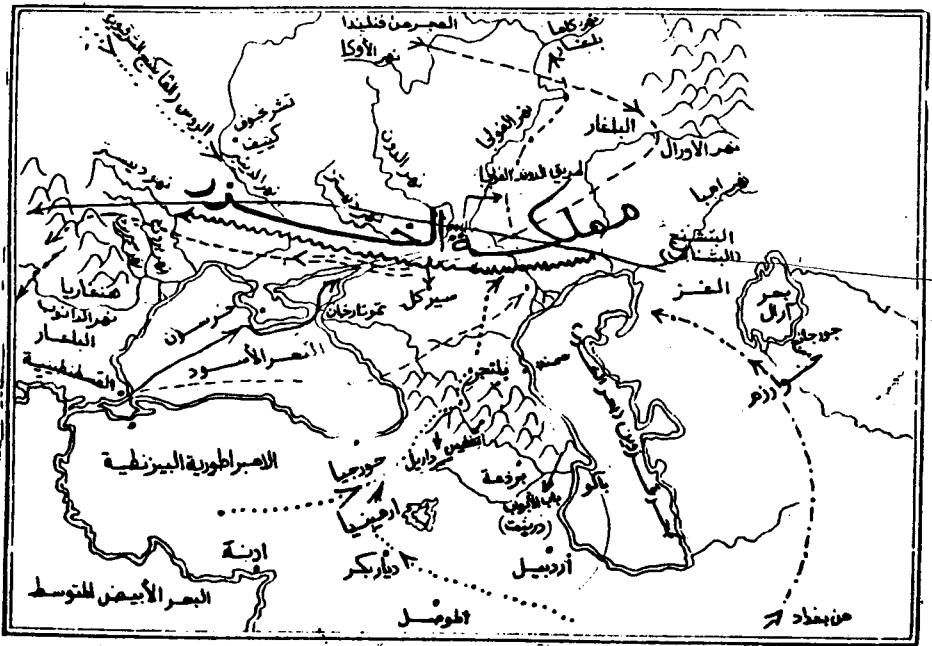


'Victorious prince' returning with prisoner-of-war. A severed head hangs from his pommel. The gold coin depicting this scene comes from the 'treasure of Fethiye' (containing 19th-10th century) and gives some idea of the arts produced within the Islamic Empire. (See Chapter I, p. 10-11)

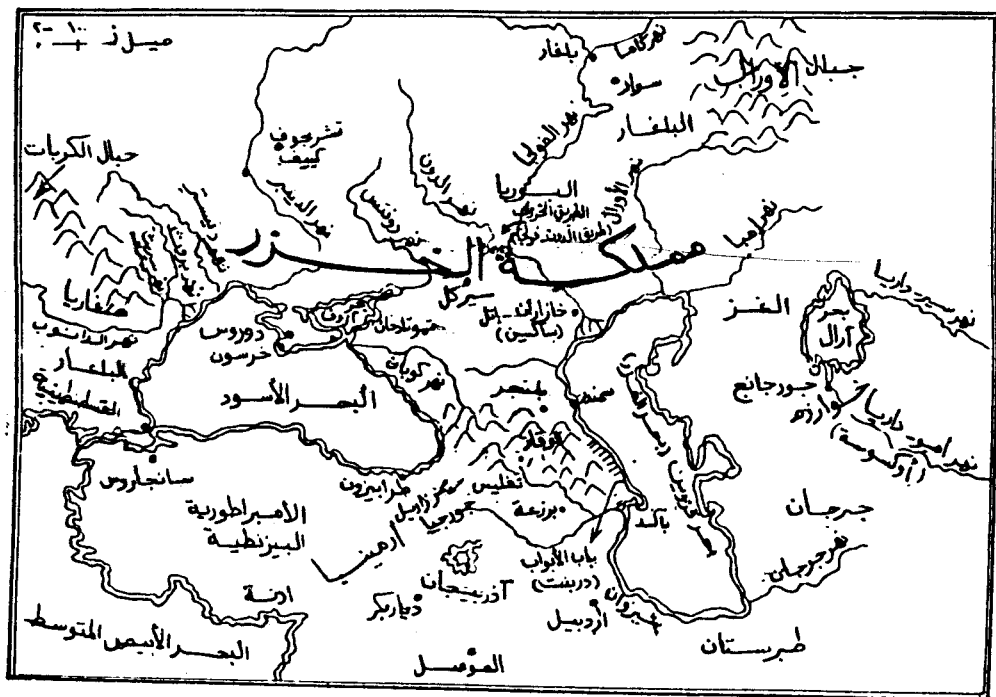
Kunstliche Schmuckstücke aus dem Islam

صورة لأمير منتصر ممسكا بأحد أعدائه (الفن الخزري)

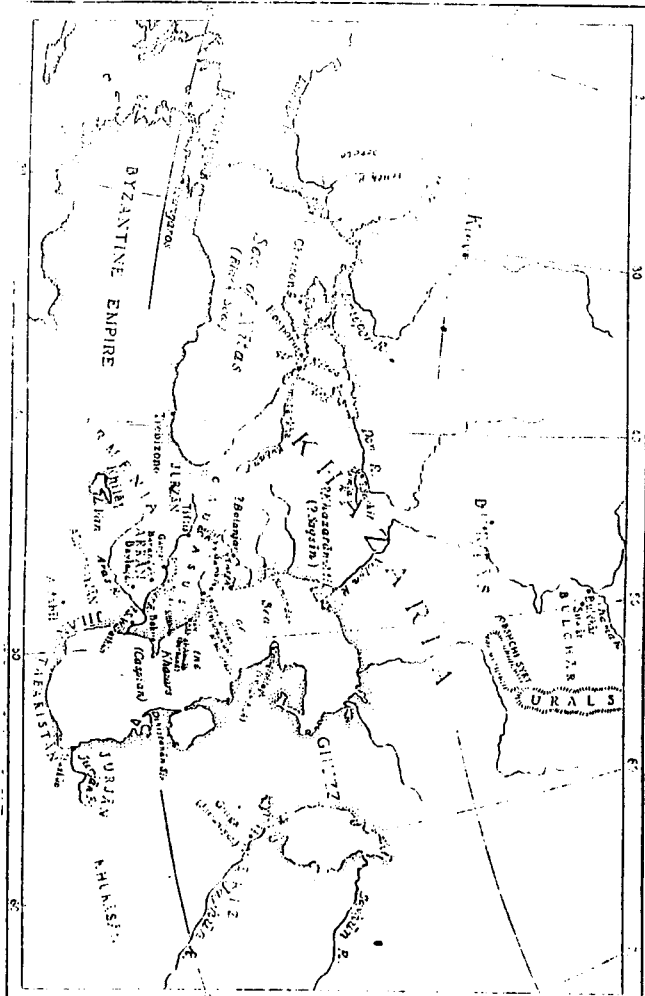
- Koestler The Thirteenth tribe the Khazar Empire and its Heritage . p 2



أهم هجرات الشعوب المتصلة بالخزر وطرق تجارتها.

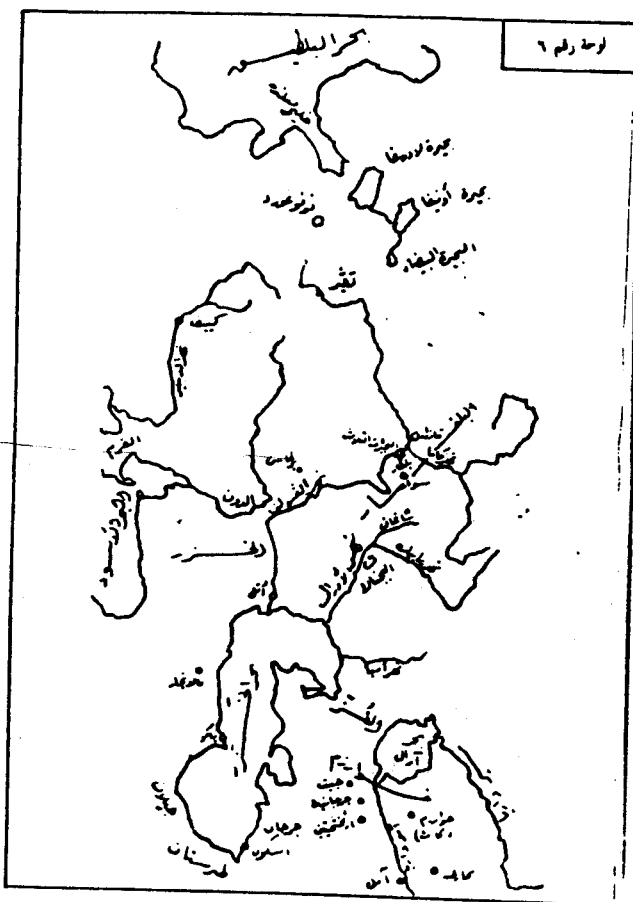


امبراطورية الخزر (القرن ٧-١١م)



إمبراطورية الخزر

Dunlop : The History of the Jewish Khazars, p. 88.



— مخطط الأماكن التي وردت في رحلة ابن فضلان ، كما رسمها الأسطول كامار في الترجمة
 ١ من بخاري إلى بلخار ١

رسالة ابن فضلان، ص ٦٦

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر:

- أ - المصادر البيزنطية (يوناني - لاتيني).
- ب - المصادر السريانية والأرمنية.
- ج - المصادر العبرية (اليهودية).
- د - المصادر الفارسية والتركية.
- هـ - المصادر العربية والمترجمة.

ثانيا المراجع:

- أ - المراجع العربية والمترجمة.
- ب - دوائر المعارف والأطالس والقواميس.
- ج - الدوريات والمجموعات.
- د - المراجع الأجنبية المختلفة.

أولا المصادر:

أ - المصادر البيزنطية (يوناني - لاتيني)

- **Gedrenus (G)** : *Historiarum Compendium*, Vol. I, in *Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae*, (Bonnae, MDCCxxxviii) (1838).
- **Constantinus Porphyrogenitus** : “*De Administrando Imperio.*”, in *Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae*, (Bonnae, MDCCCXI) (1811).
- ————— : *De Administrando Imperio*, English trans. By R. J. H. Jenkins, (Budapest, 1949).
- ————— : *De Cerimoniis Aulae Byzantinae*, Vol. I, in *Corpus Scriptorum Historiae Byzantine*, (Bonnae, MDCCCXXIX) (1829).
- **Nicephorius. Patriarch Constantinopolitani** : “*Breviarium Historicum De Rebus Gestis post imperium Mauricii*” Tomus. C. Cols 875-944, in *Patrologia Graecae*, (Paris, 1860).
- **Theopanis** : “*Chrongraphia*”, Vol. I, in *Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae*, (Bonnae, MDCCCxxix) (1839).
- **Zanoras (Ioannis)** : “*Epitomae Historiarum, Librii. XVIII* In *Corpus Scriprum Historiae Byzantinae*, (Bonnae, MDCCXCVII) (1797).

ب - المصادر السريانية والأرمنية:

- **Chronique De Michel Le Syrien**, Patriarche Jacobite D'Antioche, (1166-1199), editee et traduit en Francais par J.B. Chabot, T. ii, (Paris, 1904).
- **Bar Hebraeus** : The Chronography of Gregory Abul Faraj. The Son of the Aron., Translated to English from Syriac, By E.A.W. Budge, (Oxford, London, 1932).
- **Moses Khorenots** : History of the Armenians, Translated and Commentary on the literary Sources. By Robert. W. Thomson, (London, 1978).

ج - المصادر العبرية (اليهودية):

שה-לבך. יוסף:

יהודה הלוי ה' כוזרי, הוציא את "צור-עם"
הערות והנחיות ללמוד ולקרוא, 1978

شہ لافان. یوسف: یہوذا ہالیفی "ہخوزری" ہو تسان اور عیم، ہعروت فہنحیوت

للمود فلقرياه (١٩٧٨)

- **The Epistle of R-Chisdai Son of Isaac (of Blessed memory) to the king of the Khazars in, Adler: Jewish Travellers, pp. 22-32.**
- **The Answer of Joseph king of the Togarmi for Chisdai the Head of the Captivity son of Isaac son of Ezra the Spaniard Beloved And Honoured By us, in Adler: op. Cit., pp. 32-36.**

د - المصادر الفارسية والتركية:-

-ابن البلخي

: (ت ۱۱۰۶م / ۵۰۰هـ)

" فارسنامه "

(کمبرج، ۱۹۲۱م).

-قزوینی

: (ت ۱۳۴۹م / ۷۵۰هـ) حمد الله بن ابی بکر بن احمد بن نصر

مستوفی.

" تاریخ کذیمة: مجا، (دار السلطنة، لندن ۱۹۱۰م).

-الکردیزی

: (عاش فی القرن الحادی عشر المیلادی / الخامس الهجری)

أبو سعید عبد الحی بن الضحاک.

"زین الأخبار"، ۲.

ترجمة، عفاف السيد زیان، الطبعة الأولى (۱۹۸۲م / ۱۴۰۲هـ).

-الکاشغری

: (عاش فی القرن الحادی عشر المیلادی / الخامس الهجری)

محمود بن الحسین بن محمد.

"دیوان لغات الترك" المجلد الأول.

(دار الخلافة العليا - مطبعة عامرة ۱۳۳۳هـ)

- Hudud Al Alam (The Reigon of World), Apersian Geography.,
312 A.H. -982 A.D., translated and explained By
V. Minorsky, E.J.W. Gibb Memorial series, New
Series xi, (London, 1937).

هـ - المصادر العربية والمترجمة:-

-القرآن الكريم.

-الكتاب المقدس.

-ابن أعثم : (ت ٩٢٦م/٣١٤هـ) العلامة أبى محمد أحمد الكوفى.

"كتاب الفتوح"، طبع بإعانة وزارة المعارف. الحكومة العالية الهندية، تحت إشراف د. محمد عبد المعين خان. ح-٢، (١٩٨٩م/١٣٨٩هـ) ح-٦ (١٠٧٣م/١٣٩٣هـ) ج-٧ (١٩٧٤م/١٣٩٤هـ)، ج-٨ (١٩٧٥م/١٣٩٥هـ) الطبعة الأولى - دار الندرة الجديدة - بيروت - طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية لحيدر أبا دالكن - الهند.

-ابن الأثير : (ت ١٢٣٣م/٦٣٠هـ) ابو الحسن على أبى الكرم محمد بن عبد الكريم الجزرى.

"الكامل فى التاريخ" ١٢ جزء (بيروت ١٩٧٠م).

-البحترى : (ت ٨٩٧م/٢٨٤هـ) ابو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى "ديوان البحترى" مجلد ١، ٢، عنى بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصرفى (الطبعة الثالثة - دار المعارف - بدون تاريخ).

-البكرى : (ت ١٠٩٤م/٤٨٧هـ) عبد الله بن عبد العزيز "المسالك والممالك"، نشره وترجمه إلى اللغة العربية Rose ، بطر سبوج (St. Persbource, 1878).

-البلاذرى : (ت ٨٩٢م/٢٧٩هـ) أحمد بن يحيى بن جابر "فتوح البلدان"، عنى بمراجعتة والتعليق عليه رضوان محمد رضوان، (بيروت ١٩٨٣م/١٤٠٢هـ).

-بنيامين : (ت ١١٧٣م/٥٦٩هـ) بنيامين بن يونه التطلى "رحلة بنيامين التطلى"، ترجمها من الأصل العبرى عزرا حداد، (بغداد ١٩٤٥م).

- الجاحظ

. (ب ٨٦٩م / ٢٥٥هـ) أبو عثمان عمرو بن بحر "كتاب الحيوان".

ح د

(بيروت ١٩٨٠).

- ابن حوقل

. (ت ٩٧٧م / ٣٦٧هـ) أبو القاسم أحمد القصبى "المسالك

والممالك"

(ليدن، بريل ١٨٧٣م)

- ابن حوقل

: "صورة الأرض" قسمان فى كتاب واحد (بريل ١٩٦٧م).

- ابن خرداذبه

: (ت ٩١٢م / ٣٠٠هـ) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله "المسالك

والممالك" يليه نبذة من كتاب الخراج لأبى فرج قدامة بن

جعفر،

(بريل ١٨٨٩م)

- ابن خلدون

: (ت ١٤٠٥م / ٨٠٨هـ) عبد الرحمن بن محمد بن جابر "العبر

وديان المبتدأ والخبر" ٥، ٤، ٣ (بريل ١٩٨٣).

- الدينورى

: (ت ٨٩٥م / ٢٨٢هـ) أبو حنيفة أحمد بن داود "الأخبار الطوال"،

تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة د. جمال الدين الشيال، أعادت

طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد، (المعادى

١٩٥٩م / ١٣٧٩هـ)

- الدمشقى

: (ت ١٣٣٨م / ٧٣٩هـ) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى

طالب الأنصارى المعروف بشيخ الربوة "نخبة الدهر فى عجائب

البر والبحر"، طبع بمدينة بطرسبورغ المحروسة فى مطبعة

الأكاديمية الإمبراطورية

(١٨٥٦ / ١١٢٨هـ).

- الذهبى

: (ت ١٣٤٧م / ٧٤٨هـ) شمس الدين محمد بن أحمد "دول

الإسلام"، تحقيق فهد محمد شلتوت، محمد مصطفى إبراهيم،

جزئين فى مجلد واحد

(القاهرة ١٩٧٤م).

- ابن سعد

: (ت ٨٤٥م / ٢٣٠هـ) محمد بن سعد كاتب الواقدى "الطبقات

الكبرى" ١، (دار التحرير - القاهرة ١٩٦٨م / ١٣٨٨هـ)

- ابن رسته : (ت ٩٢٢م / ٣١٠هـ) أبو علي أحمد بن عمر "الأعلاق النفيسة" المجلد السابع ويليهِ كتاب البلدان لليقوبى، (مطبعة بريل - ليدن ١٩٦٧م).
- الإصطخرى : (ت ٩٢٥م / ٣٤٦هـ) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الغارسى المعروف بالكرخى "الممالك والممالك"، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى، مراجعة محمد شفيق غربال (القاهرة ١٩٦١م).
- الطبرى : (ت ٩٢٢م / ٣١٠هـ) أبو جعفر محمد بن جرير "تاريخ الرسل والملوك"، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٠ أجزاء (بيروت ١٩٨٠م).
- ابن عبد ربه : (ت ٩٤٠م / ٣٢٨هـ) أحمد بن محمد "العقد الفريد"، ح ٢، شرحه وضبطه وصححه أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإييارى (القاهرة ١٩٦٩م / ١٣٨٩هـ).
- ابن العبرى : (ت ١٢٨٦م / ٦٨٥هـ) غريغوريوس الملطى "تاريخ مختصر الدول"، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، (بيروت ١٨٩٠م).
- " تاريخ الزمان " نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة (بيروت ١٩٨٦م).
- ابن فضلان : (ت ٩٢١م / ٣٠٩هـ) أحمد بن العباس بن راشد بن حماد "رسالة ابن فضلان" حققها وعلق عليها وقدم لها د. سامى الدهان. الطبعة الثانية (بيروت ١٩٨٧م).
- ابن الفقيه : (ت ٩٠٢م / ٢٩٠هـ) أبو بكر أحمد بن محمد الهمدانى "مختصر كتب البلدان"، (ليدن - بريل ١٣٠٢هـ).

١- ابن قتيبة

. (ت ٨٩٩م / ٢٧٦هـ) أبو محمد عبد الله بن مسلم "المعرف".
حققه وقدم له د. ثروت عكاشه، الطبعة الثانية، سلسلة ذخائر
العرب (٤٤) بدون تاريخ.

-القزويني

: (ت ١٢٨٣م / ٦٨٢هـ) زكريا بن محمد بن محمود "آثار البلاد
وأخبار العباد". (بيروت - دار صادر - بدون تاريخ).
"عجائب المخلوقات في غرائب الموجودات" (كتاب التحرير
بدون تاريخ).

-قسطنطين

: (عاش في القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري)
بورفيروجينيوس "إدارة الإمبراطورية البيزنطية"،

-القلقشندي

ترجمة وعرض وتحليل د. محمود سعيد عمران (بيروت ١٩٨٠م)
: (ت ١٤١٨م / ٨٢١هـ) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي
"صبح الأعشى في صناعة الإنشا".

١٤ جزء١، (القاهرة ١٩١٣-١٩١٩م).

-ابن كثير

: (ت ١٣٧٢م / ٧٧٤هـ) أبو الفد إسماعيل بن عمر الحافظ "البداية
والنهاية" ١٠، ٩، ٧.

-محبوب

: (عاش في القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري) المنبجي
"كتاب العنوان"، منشور في مجموعة أعمال الآباء الشرقيين
Patrologia Orientalis, Vol. VII-VIII نشره فازيليف
(Paris, 1911), Vasiliev.

-المسعودي

: (ت ٩٥٧م / ٣٤٦هـ) أبو الحسن علي بن الحسن بن علي "مروج
الذهب ومعادن الجواهر" جزءان، تحقيق محمد محي الدين عبد
الحميد، (كتاب التحرير ١٩٦٦م / ١٣٨٦هـ).

-المقدسى

: (ت ٩٩٧م / ٣٨٧هـ) شمس الدين بن عبد الله محمد البشاري
"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" (مطبعة بريل - ليدن
١٩٠٦م)

-ابن منظور

: (ت ١٣٠٣م / ٧١١هـ) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم
الإفريقي المصري.
"لسان العرب"

أجزاء ١ إلى ٦ (دار المعارف - بدون تاريخ).

-ابن النديم

: (ت ٩٨٦م / ٣٧٨هـ) محمد بن إسحاق "الفهرست"، (المطبعة
الرحمانية بمصر ١٣٤٨هـ).

-النويري

: (ت ١٣٣٢م / ٧٣٣هـ) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
الكندي.

"نهاية الأرب في فنون الأدب"،

ج ١٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٧٥م).

ج ٢١، تحقيق محمد البجاوي (القاهرة ١٩٧٦م).

ج ٢٢، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني (القاهرة ١٩٨٤م)

ومراجعة إبراهيم مصطفى.

-ابن الوردي

: (ت ١٣٤٩م / ٧٤٩هـ) أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر "تتمه
المختصر أو تاريخ ابن الوردي".

إشراف وتحقيق أحمد رفعت البدراوى (بيروت ١٩٧٠م).

"خريدة العجايب وفريدة الغرائب"

نسخة عربية مترجمة إلى اللاتينية في مجلد واحد.

(Edidit et latine vertie, Andreas Hylande (Lunde, 1823)

- ياقوت : (ت ١٢٢٩م / ٦٢٦هـ) شهاب الدين أبو عبد الله الحموي
"معجم البلدان"، ١٠ أجزاء.
- اليقوبى : (ت ٨٩٧م / ٢٨٤هـ) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح.
"تاريخ اليقوبى" ٢، (دار صادر - بيروت - بدون تاريخ).

ثانياً المراجع:

أ - المراجع العربية والمترجمة:-

-أومان (شارل):

الإمبراطورية البيزنطية. ترجمة د. مصطفى طه بدر.

(القاهرة ١٩٥٣ م)

-بينز (نورمان):

الإمبراطورية البيزنطية. ترجمة د. حسين مؤنس، محمود يوسف

(القاهرة ١٩٥٧ م)

زايد

-بارتولد (و):

تاريخ التركة في آسيا الوسطى. ترجمة د. أحمد السعيد سليمان

(القاهرة ١٩٥٨ م)

راجعة إبراهيم صبرى.

جوزيف نسيم يوسف: (دكتور)

تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤-١٤٥٣)

(الإسكندرية ١٩٨٨ م)

-حسين فوزى: (دكتور)

حديث السندباد القديم.

(مصر ١٩٤٣ م)

-حسين محمد ربيع: (دكتور)

دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية.

(القاهرة ١٩٨٦ م)

-ديورانت (ول):

قصة الحضارة، الجزء الثالث من المجلد الثالث (عصر الإيمان)
ترجمة محمد بدران.
(القاهرة ١٩٧٦)

-دحلان (أحمد زيني):

الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، جزءان في مجلد
واحد.
(الطبعة الأولى، مصر ١٣٢٣ هـ)

-رنسيما (ستيفن):

الحضارة البيزنطية. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكى
على.
(القاهرة ١٩٦١)

-زبيدة عطا: (دكتور)

الترك في العصور الوسطى، بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون.
(دار الفكر العربى - بدون تاريخ)

-سعيد عبد الفتاح عاشور: (دكتور)

أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، التاريخ السياسى.
(القاهرة ١٩٧٥)

-السيد الباز العرينى: (دكتور)

الدولة البيزنطية ٣٢٣-١٠٨١ م.

(بيروت ١٩٨٢)

-عبد القادر أحمد اليوسف: (دكتور)

الإمبراطورية البيزنطية.

(بيروت ١٩٦٦)

-فتحى عثمان:

الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال
الحضارى. ، الكتاب الأول والثانى (القاهرة ١٩٦٦م)

-كراتشكوفسكى : (أغناطيوس يوليا فيتش)

تاريخ الأدب الجغرافى، قسطن

نقله إلى العربية، صلاح الدين عثمان هاشم (القاهرة ١٩٦٣م)

لىلى عبد الجواد إسماعيل : (دكتورة)

الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين.

(القاهرة ١٩٨٥م)

-محمود محمد الحويرى: (دكتور)

١- رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية (القاهرة ١٩٨١م)

٢- الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث

عشر من الميلاد (القاهرة ١٩٧٩م)

-موس (هـ. سانت. ل. ت):

ميلاد العصور الوسطى. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة د.

السيد الباز العرينى. (القاهرة ١٩٦٧م)

-هسى (ج. م):

العالم البيزنطى، ترجمة د. رافت عبد الحميد.

(القاهرة ١٩٨٤م)

-التلمود "كتاب الإرهاب الصهيونى":

هدية من جريدة التعاون. العدد رقم ٢٣٥ (١٩٦٧م/ ١٣٨٧هـ)

(القاهرة ١٩٧٢م / ١٣٩٢هـ)

ب - دوائر المعارف والأطالس والقواميس:

- **The New Encyclopaedia Britannica.**
(Ready reference and Index), Art., Khazar, Vol. v, Pecheneg, Vol. vii-Cumans, Vol. iii. (London, 1974).
- **The New Encyclopaedia Britannica.**
(knowledge in Depth), Art. Byzantine Empire, Vol. 3. Caliphate, Vol. 3- Jewish Philosophy, Vol. 10 (London, 1974).
- **The Encyclopaedia Americana.**
Art., Khazar, Vol. 16, (First Published, 1899).
- **The Standard Jewish Encyclopedia.**
Art., Khazar (Jerusalem, Tel Aviv, 1958).
- **The American people Encyclopaedia.**
Art., Khazar, Vol. ii (New York, 1966).
- **The Jewish Encyclopaedia.**
Art., Chazar, Vol. v- Art., Caucasus, Vol. iv. (New York and London).
- **Encyclopaedia of Islam.**
Art., Khazar, Vol. iv- Bulghar, Vol. I – Bahr Al Khazar, Vol. I – Abkhaz, Vol. I – Turks, Vol. iv (Leiden- Brill, 1978).
- **Chambers's Encyclopaedia.**
Art., Chazars, Vol. 3 (London and Edinburgh, 1923)
- **Chambers's Encyclopaedia.**
Art. Khazar, Vol. vii (London, 1973).
- **Encyclopaedia of World Biography**
Art., Khosrow I., vol. 6 (1973).
- **Encyclopaedia Judaica.**
Art. Khazar, vol. x (Jerusalem, 1974).
- **Harmsworth Encyclopaedia.**

- Art., Khazar, vol. vi (London, 1906).
- **Lexicon Universal Encyclopaedia.**
Art., Khazar, vol. 12 – Art.. Cumans, Vol. 5.
(New York, 1983).
- **Dictionary of the Middle Ages.**
Art., Khazars, Vol. 7 (New York, 1986).
- **The Time Atlas of World History.**
(New Jersey, 1985).

ج - الدوريات والمجموعات:-

- **Byzantion.**, (1937).
- **Dumbarton Osks Papers .** (1959).
- **Journal Asiatique.** (1823).
- **Cambridge History of Iran.** (Cambridge, 1983).
- **The Cambridge Medieval History.** (Cambridge, 1980).
- **Patrologia Orientalis.** (Paris, 1911).
- **Patrologia Graecae.** (Paris, 1860).
- **Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.** (Bonnae, 1828-1897).
- **Slavonic and East European Review.** (1944).
- **Bulletin of the school of Oriental and African studies.**
(1948).
- **Notices et Extraits des Manuscrits De La Bibliotheque De Roi., Tom 11**
(Paris, MDCCLXXIX) (1789).

د - المراجع الأجنبية:-

- **Abnour (A):**
Histoire Abreege De Peuples De La Russie.
(Paris, 1909).
- **Adler (E.N):**
Jewish Travellers. (London, 1930).

- Allen (W.D):
A History of the Georgian People (London, 1939).
- Bachrach (B.S):
Art., Khazar, in lexicon Universal Encyclopaesia,
Vol. 12 (New York, 1983).
- Baynes (N):
The Successor of Justinian, in Cambridge
Medieval History., Vol. II
(Cambridge, 1980).
- Barthold (W) & Golden (P.B):
Art., Khazar, in Encyclopaedia of Islam, Vol. IV,
pp.1172-1181 (Leiden-Brill, 1978).
- Barthold (W):
Art., Bulghar, in Encyclopaedia of Islam. Vol. I,
pp. 1304-1308 (Leiden-Brill, 1960).
- Barthold (W):
Art. Turks in Encyclopaedia of Islam, vol. iv.
(Leiden-Brill,
1978).
- Barthold (W):
Art. Abkhaz in Encyclopaedia of Islam, vol. I.
(Leiden-Brill,
1968).
- Barthold (V.V):
Four studies on the History of central Asia.
Translated from the Russian by V.Barthold and
T.Minorsky, vol. III. (Leiden-Brill, 1969).
- Bernard (P):
A History of Russia. (London, 1962).
- Becker (C.H) :
The expansion of the Saracens. In Cambridge
medieval History. Vol. II (Cambridge, 1980).

- Boissonade (P)

Life and work in Medieval Europe

(London, 1937).

-Brutakus (J):

The Khazar Origin of Ancient Kiev. In Slavonic and East European Review. Vol. 22, pp. 108-24. (1944).

- Brehier (L):

Vie et Mort de Byzance.

(Paris, 1947).

- Brehier (L):

La Civilisation

Le Mond Byzantine (Laxivilization Byzantine.

(Paris 1950)

- Brooks (W.E) :

The Successors of Heraclius to 717. In Cambridge Medieval History, Vol. II, pp. 391-411.

(Cambridge, 1980).

- Buss (R):

Art. Pechenges in Lexicon Universal Encyclopaedia. Vol. 15 (New York, 1983).

- Buss (R):

Art. Cumans in Lexicon Universal Encyclopaedia. Vol. 5

(New York, 1983).

- Bury (J.B):

A History of the Eastern Roman Empire.

(London, 1912).

- Bury (J.B):

A History of the Later Roman Empire from the Death of Theodosios I to the Death of Justinian.

(London. 1923).

- Chavannes (E) :
 Documents sur Les T'ou-Kiue (Turcs)
 Occidentaux.
 (St. Petersburg, 1903).
- Cole (F.C):
 Art. Khazar, in the American People
 Encyclopaedia. Vol. XI
 (New York, 1966).
- Diehl (C):
 Histoire De L'Empire Byzantine.
 (Paris, 1920).
- Dunlop (D. M):
 The History of the Jewish khazars.
 (Princeton, 1954).
- Dunlop (D. M):
 Art. Khazar, in Encyclopaedia Judaic. Vol. 10.
 (Jerusalem, 1974).
- Durant (W) :
 The story of civilization, the age of Faith A
 History of Medieval civilization; Christian,
 Islamic and Judaic from Constantine to Dante
 AD 325-1310. Vol. IV.
 (New York, 1950).
- Finley (G):
 History of Greece. Vol. I.
 (Oxford, 1877).
- Florinsky (M. T):
 "Russia" A History and an interpretation in two
 volumes, Vol. I. (New York, 1953).

- Franzius (E):**
History of the Byzantine Empire Mother of nation.
(New York, 1961)
- Gibbon (E):**
The Decline and fall of the Roman Empire. Vol. II.
(London, 1952).
- Glubb (S. j):**
The Empire of the Arabs.
(London, 1963).
- Gregoire(H):**
Le "Glozel" Khazar. In Byzantion pp. 225- 266.
(1937).
- Grayzel (S):**
~~A History of the Jews. From the Babglonian exile to the end of the world war.~~
(Philadelphia, 1948).
- Grousset (R):**
L'Empire Des stepps.
(Paris, 1948).
- Grousset (R):**
Histoire de L'Armenie de Origines a 1071.
(Paris, 1947).
- Halpen (L):**
Les Barbares.
(Paris, 1936).
- Head (C):**
Imperial Byzantine Portraits.
(New York, 1982).
- Heyd (W):**
Histoire du Commerce du Levant au moyen age. Vol .I.
(Lepzig, 1923).

- Hodgson (G.S):
The venture of Islam.
(Chicago, 1974).
- Hussey (J. M):
The Byzantine World.
(New York, 1961).
- Kazhdan (N. P) and Epstein (A.W):
Change in Byzantine Culture in the eleventh and
twelfth centuries. (London, 1985).
- Klaproth (M) :
Memoire sur les khazar.
T.3, in Journal Asiatique pp. 153-160.
(Paris, 1823).
- Koestler (A):
The thirteenth tribe the Khazar Empire and its
Heritage. (London, 1976).
- Krachkovski (I. U):
Istoria Arabskoi Geograficheskoi literatury.
(Moskova- Leningrad, 1957).
- Lamouche (C):
Histoire de la Turquie.
(Paris, 1934).
- Levtchenko (M. V):
Byzance de origines A. 1453.
(Paris, 1949).
- Lewis (A.R):
Naval Power and Trade in the Mediterranean
A.D. 500-1100. (New Herssey, 1951).
- Lebeau ():
Histoire de Bas-Empire.
Tome. XI.
(Paris, 1930).

Lindsay (J) :

Byzantium into Europ; The story Byantium as the first Europ (326-1204) and its further contribution.

(London. 1952)

- Macarthy (C.A):

The Magyars in the ninth century.

(Cambridge. 1930)

-Mackenzis (D) Curran (M):

A History of Russia and the Soviet Union.

(New York, 1982).

- Mavor (J) :

An Economic History of Russia Vol., I.

(London, 1925).

- Minorsky (T):

Tamim Ibn bahr's Journey to the Ughurs; in Bulletin of the school of Oriental and African studies. VolXII. (1948).

- Miller (D. A):

The Byzantine tradition.

(New York and London).

- Obolensky (D):

The Byzantine Commonwelth.

(London, 1971).

- Oman (C. W):

The Byzantine Empire,

(New York, 1892).

- Ostrogorsky (G) :

History of the Byzantine state Eng. Trans. J. Hussey

(Oxford, 1957).

- **Ostrogorsky (G):**
The Byzantine Empire in the world of the Seventh century. In Dumbarton Oaks Papers, pp. 3-21 (1959).
- **Patkanian (M.K) :**
Essai d'une Histoire de la dynastie des Sassandies dans Journal. Asiatique. Serie I Tome. VII. (1866),
- **Poliak (A.N):**
Khazaria, in Hebrew.
(Tel Aviv, 1944).
- **Pritsak (O):**
Art. Khazars, in Dictionary of the middle ages. Vol.7.
(New York, 1986).
- **Ripley(W.Z):**
The Races of Europe. (London, 1945).
- **Rosenthal (H) :**
Art., Chazar in the Jewish Encyclopaedia; Vol. IV.
(New York and London)
- **Rosenthal (H) :**
Art., "Caucasus" in the Jewish Encyclopaedia. Vol. III.
(New York and London)
- **Rosenthal (H) :**
Technique and Approach of Muslim Scholarship.
(1947).
- **Robinson (S):**
A short History of Medieval people.
(London MCMVII) (1907).

- **Runciman (S) :**
A History of the first Bulgariam Empire.
(London, 1930).
- **Runciman (S) :**
Byzantine civilization.
(London, 1933).
- **Runciman (S) :**
A History of the Crusades. Vol. I.
(Cambridge, 1954).
- **Setton (M. K):**
A History of the Crusades. Vol. I.
(Philadelphia, 1955).
- **Shaban (M. A):**
Islamic History a new interpration. Vol I. A. D.
600-750, A. H. 132.
(London, 1984).
- **Shaban (M. A):**
Islamic History a new interpration. Vol 2. A. D.
750-1055, A. H. 132-442.
(Cambridge, 1981).
- **Shater(E. Y):**
Art., Khosrow I (531-576) in Encyclopedia of
world Bigraphy Vol. 6. (1973).
- **Shirin Akiner :**
Islamic People of the Soviet Union.
(London, 1983).
- **Sinor (D) :**
Art. Khazars. In the New Encyclopaedia
Britannica. Vol. V. (London, 1974).
- **Stratos (A.N) :**
Byzantium in the Seventh Century (602-634),
Vol. I. Trans. By Marco Ogilvie Grant.
(Amsterdam, 1921).

- Sumner (B. H) :
Survey of Russian History.
(London, 1944)
- Sykes (P) :
History of Persia. Vol. I.
(London, 1921).
- Vasiliev (A. A) :
Histoire de L'Empire Byzantine. Tom. I.
(Paris, 1932).
- Vasiliev (A. A) :
History of the Byzantine Empire. Vol. I.
(Madison, 1958).
- Walsh (W. B):
Russia and the Soviet Union.
(New York, 1958).
- Weinryb (B. P) :
The Jews of Poland. A social and economic
History of the Jewish community in Poland 1100
to 1800.
(Philadelphia, 1973).
- Wren(M. C):
The course of Russian History.
(New York, 1958).

فهرس محتويات الكتاب

الصفحة

الموضوع

المقدمة:

٣٤-٧

أهمية الموضوع - دراسة تحليلية لمصادر ومراجع البحث

الفصل الأول:

٧٠-٣٥

قيام مملكة الخزر

الإشارات المبكرة عن تاريخ الخزر - علاقة الخزر بالأرمن -
علاقتهم بالبيزنطيين قديماً - علاقتهم بالهون - علاقتهم
بالفرس - علاقتهم بالأتراك الغربيين - الهيمنة الخزرية على
بعض الشعوب في شرق أوروبا (البلاد التي كانت تدفع الجزية
للخزر - البلغار - الغز - البرطاس - مملكة السرير - الآلان -
المجر - هون ورشان - البجناك)

الفصل الثاني:

مملكة الخزر وعلاقتهم بالبيزنطيين في القرنين

١١٤-٧١

السابع والثامن الميلادى

علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور
هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) - علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية
في عهد الإمبراطور جيستنيان الثاني (٦٨٥ - ٦٩٥، ٧٠٥ -
٧١١ م) - علاقة الخزر بالإمبراطورية البيزنطية في عهد
الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ - ٧٤١ م) - علاقة
الخزر بالإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور ثيوفيلوس
(٨٢٩ - ٨٤٢ م).

الفصل الثالث:-

مملكة الخزر وعلاقتهم بالمسلمين في القرنين

١١٥-١٥٤

السابع والثامن للميلاد

علاقة الخزر بالمسلمين في صدر الإسلام - علاقة الخزر

بالمسلمين في عهد الدولة الأموية - علاقة الخزر بالمسلمين

في عهد الدولة العباسية.

الفصل الرابع:

١٥٥-٢١٢

المظاهر الحضارية بمملكة الخزر

التنظيم السياسي - القضاء - الجيش - اللغة - المجتمع -

النشاط الاقتصادي - الديانة.

٢١٢-٢١٨

الخاتمة

٢١٩-٢٢٦

الملاحق والخرائط

٢٢٧-٢٥٠

قائمة المصادر والمراجع

هذا الكتاب

محاولة جادة لتسليط الضوء على تاريخ مملكة الخزر
التي تأثر بها حاضرنّا تأثراً بعيداً، فالدراسة التي يقدمها
الكتاب باللغة الأهميّة لأنها تدحض كثيراً من المزاعم
اليهوديّة، وتؤكد أن معظم يهود العالم بما فيهم يهود
إسرائيل لا علاقة لهم على الإطلاق بالجنس السامي .
يعرض الكتاب أيضاً لصفحة جديدة في تاريخ
المسلمين، فبعد انتشار الإسلام ووقوع كثير من
مناطق القوقاز تحت مظلة الإسلام أصبحت حدود
الخزر تلاصق أملاك المسلمين، وتقترب من مناطق
فتوحاتهم الجديدة لنشر الدين الإسلامي، ففى
الحروب التي اندلعت بين الخزر والمسلمين والتي
امتدت لأكثر من قرن من الزمان، أسفرت فى النهاية
عن نجاح الخزر فى الحد من الهجومات الإسلامية
العاصف فى مراحل الأولى على شرق أوربا من جهة
ومنع الخزر من التوسع على حساب المسلمين من
جهة أخرى .

كما يعرض الكتاب الدور الهام الذى لعبته مملكة
الخزر فى العصور الوسطى مع البيزنطيين والفرس
والبغفار والأرمن واللات والبشناق والمجيار
والروس وأسبانيا (الأندلس) والعديد من الشعوب
الأخرى .

إن هذه الدراسة ضرورية للمختصين فى التاريخ،
فضلاً عن أنها يجب أن تكون جزءاً من ثقافة جمهور
المتعلمين بصفة عامة والمهتمين بالقضية
الفلسطينية بصفة خاصة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تم تحميل هذه المادة من:

مكتبة المهتدين الاسلامية لمقارنة الاديان

<http://kotob.has.it>

<http://www.al-maktabeh.com>